

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة منتوري - قسنطينة -

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

الرقم :

رقم التسجيل :

ظاهرة الغربية في شعر مفدي زكريا

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير

(شعبة الأدب الحديث)

إعداد الباحث :

حمة دحماني

إشراف الأستاذ الدكتور :

عبد الله حمادي

أعضاء لجنة المناقشة

1- الدكتور

جامعة :

رئيسا

2- الأستاذ الدكتور : عبد الله حمادي

جامعة : منتوري (قسنطينة)

مشرفا ومقررا

3- الدكتور :

جامعة :

عضوا مناقشا

4- الدكتور :

جامعة :

عضوا مناقشا

السنة الجامعية

2006 - 2005

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى أبي وأمي
وكل من علمني حرفاً
من القلب كل الشكر والعرفان

المقدمة

المقدمة

قبل الشروع في إنارة ممرات هذه المحاولة، أجدني مضطرا إلى الوقوف عند مفهوم "الغربة" وتحديد معانيها، بوصفها مصطلحا شاملا و متعدد التعريفات، وهو ما أرمي إليه من وراء هذه الدراسة، وانطلاقا مما جاء في المعاجم اللغوية والإستخدامات العديدة والإستعمالات المتنوعة الشائعة، فإنني وجدت من بين معاني "الغربة" - البعد، النوى، التغريب، السطو، السلب - والإغتراب. يختلف مفاهيمه واستعمالاته ومعانيه و صوره الأخذ، مثل : الأخذ، الإستحواذ، الفصم...

وبناء على هذه المعاني والإستعمالات العديدة المشكلة لظاهرة الغربة، فإن كلمة " الغربة " لا يبعد كثيرا عن مفاهيم هذه المعاني و الكلمات والإستعمالات، بل تشتمل - إلى حد بعيد-على مختلف هذه المعاني.

ومن خلال ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا وحب التركيز - بالطبع - عليها باعتبارها ظاهرة بارزة، قد ولدت في أبعادها النفسية مأساة الشاعر، وأفرزت أشعاره صور البطش وألوان التعذيب داخل مختلف السجون، ومختلف المخططات الجهنمية التي رصدت للتشريد والإبادة الجماعية، وما تتركه هذه الجرائم والمخططات من فقر وجهل وخراب خلال قرن ونيف من الزمن، إذ كادت هذه الأعمال الوحشية، والمناهج الإستعمارية الإجرامية الفريدة من نوعها في تاريخ الإستعمارات، أن تزيل الشعب الجزائري كأمة من على خريطة البشرية فوق الأرض.

وقد كان لكلمة "الغربة" أثر عميق في تلك الظروف التاريخية الصعبة، في نفوس الأحرار في العالم، حيث لم يقصر رجال القلم من شعراء وكتاب وصحافة، ولم يتسنّ لكل محبي الحرية وحقوق الإنسان، إدراك أغوار وأبعاد هذه الظاهرة الإنسانية المأساوية، إذ هبوا جميعا بدون

تردد لدعم و مساندة الإنسان الجزائري، و الوقوف إلى جانب ثورته المباركة، وتقديم يد المساعدة في إسعاف أبناء الجزائر المحرومين من أرضهم، والمشردين في كل شعاب الأرض، ظلما وعدوانا. وكانت الدول الشقيقة المجاورة، عند بداية المجزرة الإستعمارية الفرنسية، أول من فتحت ذراعيها لإحتضان بقايا من نجوا من مخططات الإبادة التي زرعها فوق أرض الجزائر مرتزقة الحلف الأطلسي. أما سبب إختياري "ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا" للدراسة، فذلك راجع لإيماني بأن في شعر الرجل مأساة عظيمة تحملها الكلمات، وهناك ما هو مخبأ بين السطور يحتاج إلى الغوص لإستجلائه، والإطلاع على أغواره البعيدة المسببة للهيبة، وهذا وفق نظرة جديدة، تبرز جوانب إنسانية خفية هامة من المعاناة والآلام عاشها الشاعر، يجب الوقوف عندها، وإمطة اللثام عنها، لنخرجها لدنيا الناس في حلة قشبية هية.

وعلى الرغم من أن مفدي زكريا قد حاز على اهتمام الكثير من الدارسين، وتناولته العديد من الدراسات والبحوث الأكاديمية والرسائل العلمية الجامعية، إذ اعتنى بشعره ونثره - بشغف كبير - العديد من الباحثين والدارسين الذين أضأوا من خلال أعماله الخالدة وفنه المتميز الفريد، محطات عديدة هامة، وأناروا سبل الباحثين، وكشفوا عن زوايا مختلفة ومتنوعة - جازاهم الله خيرا - ومع ذلك لا نزال نجد عند هبيب شعره وتحت ظلال زيتونه ومن وحي أطلسه، ودخل أعجاده الخالدة، وبين ملحمة النادرة، روافد متدفقة بالعطاء الذي لا ينضب، تنفث شرارات ملونة بالآهات، مشكلة مأساة الرجل الباطنية، وتحمل أنين أعماقه المتقطعة الحزينة، هذه الإضطرابات الباطنية، والمتناثرة بين الحروف وتحملها الكلمات، مصاييح وإضاءات، تفتح آفاقا جديدة رحبة، يأخذ كل باحث لجوج قبسا، ينير له دروب غياهب الإبداع الشعري.

من هذه الألسنة المتعامدة في شعره، المشحونة بالحزن والجراح الدامية، الحملة بالغربة المضنية، إقتبسنا "ظاهرة الغربة" التي وجدناها تتسع وتتلألأ في نماذج عديدة من أشعاره، و تتناثر هنا وهناك بين السطور، وتحتاج إلى تجميع وإلى نظرة ثاقبة، ودراسة نفسية وتوثيقية تاريخية، و فنية تحليلية، تخرجها إلى دنيا الناس في زيّ جديد، توضح بدقة صدق الظاهرة المأساوية التي عانى منها الشاعر، في علاقته الوطيدة الحميمة، وارتباطه الوثيق بالأرض والحياة.

وفق هذا المنظور جاءت هذه الدراسة، كإستجابة لنداء بضرورة إعادة قراءة شعر **مفدي زكريا**، قراءة متأنية ورصينة، بعيدة عن الدراسات الوصفية المألوفة التي عرف بعضها الشعر الجزائري، ومتخذة المنهج التاريخي والفني والنفسي، لإبراز زوايا غائرة هامة في شعره، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا لم تحض بالدراسة الوافية والعناية الكافية من الدارسين، ربما لأنهم صنفوا الظاهرة ضمن الشعر الثوري النضالي، لهذا نلاحظ أن أكثر الدراسات، التي نهجت هذا الإتجاه إعتمدت على المنهج التاريخي والوصفي في رصد تطور وتنامي الأغراض الشعرية، والتي ساعدتها على التوثيق وإبراز الظواهر الفنية، دون أن تسعى إلى استنفار العوالم الداخلية والحقيقية لتلك الزفرات الحادة و الحمم المحروقة، والحاوية لآلام والمعاناة، التي تتناثر في قصائده.

إن شعر **مفدي زكريا** ينتابه إحساس مرهف بوطنه المحتل، وتجرفه تيارات العاطفة في مشاطرة ومجاعة الأحزان والآلام، وتدفعه بشدة للتضحية وتحمل التبعيات، وركب المخاطر والإستعداد للسجن أو النفي والغربة أو حتى القتل، مثل هذه الشخصية، ووفق هذه الإرادة، لا تبقى في حياة **مفدي زكريا** مجالا للعبث واللغو، ولا تترك في قلمه منطقاً للغو الكلام. وإذا كان في شعر **مفدي زكريا** وحياته كثير من الغربة و المآسي، فإن هذه الدراسة **ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا** تأخذ وتتبع الظاهرة - فقط - من خلال أشعاره، وترصدها، باعتبارها تجربة مأساوية واحدة تنمو و تتصاعد في قصائده، وتسترسل في شكل نماذج ذاتية واجتماعية وقومية وإنسانية.

والفضل كله يرجع إلى الدراسات التي تناولت شعر **مفدي زكريا** ونتائجها العديدة، والتي أنارت الطريق أمامي في هذه الدراسة، وأخص بالذكر دراسة الدكتور **محمد ناصر** في عمله القيم الشامل عن حياة وأعمال **مفدي زكريا** تحت عنوان " **مفدي زكريا شاعر النضال والثورة** "، وقد تضمن دراسة شافية عن سيرة " **مفدي** " ومقدمة حول معظم ما كتب الشاعر، لذا يعد هذا الكتاب مصدرا لكل باحث ودارس لشعر ونثر **مفدي زكريا**، أيضا دراسة الدكتور يحيى الشيخ صالح بعنوان " **شعر الثورة عند مفدي زكريا وهي دراسة فنية تحليلية** "، بليغة وشاملة، كما وقف عند مراحل حياة الشاعر وأبرز أثرها في شعره، وفي دوره الجبار في حركة

الشعر النضالي والثوري في الجزائر والعالم العربي. وجاءت دراسة الأستاذ حواس بري، غير بعيدة عن دراسة الدكتور يحيى الشيخ صالح، تحت عنوان **مفدي زكريا** " دراسة و تقويم " متناولة للتراث الشعري الذي خلفه الشاعر، والذي تركه مجموعا وبعض شعره المنشور وغير المجموع من مرحلة ما بعد الإستقلال، فكانت متابعة مضمينة لخطى الشاعر من خلال أعماله الشعرية العديدة.

وهذه الدراسة التي تهدف معرفة **ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا** في مرحلة عصيبة مهمة في تاريخ الشعر الجزائري، تمتد من الحرب العالمية الثانية حتى وفاة الشاعر، تقوم على ثلاثة مناهج تتداخل مع بعضها في كل مرحلة من مراحل الدراسة، وهذه المناهج هي **المنهج التاريخي** الذي يساعدنا على معرفة البواعث والنوايا الحقيقية التي أفرزت هذه المأساة، وكذلك **المنهج النفسي** المدعم بالإستقراء النافذ لخبايا الإنفعالات الداخلية، ويكون دعامة قوية ملحة لقراءة جديدة، وفهم سليم للنص الشعري، و**المنهج الفني التحليلي** الذي يكمل الدراسة من الناحية الفنية. ولتحقيق غاية البحث، إقتضت الضرورة تقسيم الدراسة إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول خصص كل واحد لدراسة جانب من الظاهرة الخاصة بالموضوع .

تناولت في المقدمة، ما يمكن عدّه إضاءة حول **الظاهرة اللغوية** التي يتناولها الموضوع لتحديد خط سيره السوي .

أما **التمهيد**، فأختص بإنارة وافية، إذ يعد مدخلا مفسرا ل**ظاهرة الغربة**، وعلاقتها بالإغتراب، فكان سعيًا و بحثًا عن معناها، وموضوعها، وأنسرها ودورها في الشعر العربي. ثم تلاه **الفصل الأول**، وخصص لمتابعة **ظاهرة الغربة في الشعر العربي الحديث**، حيث قسمناه إلى جزئين رئيسيين، في **الجزء الأول** : درسنا **ظاهرة الغربة في الشعر الرومانسي** ، **العربي الحديث**، لما لهذا المذهب من آثار على الظاهرة موضوع الدراسة، فأبرزها عند بعض شعراء هذا الإتجاه، في موضوعات كالحب، والغربة، والطبيعة. وجاء **الجزء الثاني** مكرسا ل**ظاهرة الغربة في الشعر الواقعي العربي الحديث**، لما للواقع من انعكاسات شرطية مفرزة للظاهرة المدروسة، وأبرزها من خلال مأساة شعراء هذا الإتجاه وفي اغترابهم المكاني والزمني، ونظرهم الشاملة لقضايا الإنسان، من منظور تاريخي فاحصا بواعث الظاهرة موضوع الدراسة.

أما الفصل الثاني : فقد تضمن ظاهرة الغربة بواعثها وأبعادها في شعر مفدي زكريا، ضمنناه تمهيدا، حوى نظرة عن الوضع التاريخي وإفرازاته، كما أسسنا للظاهرة نظرة عامة عن بواعثها التي نثرت في قصائده، ومواطنها الداخلية، ثم بينا أن الغربة والفاقة وسوء الطالع، والخبية، والتعثر، قد صاحبت الشاعر منذ الصغر. ثم تناولنا بواعث الغربة الاجتماعية، فكان الجهل والفقر، والضياع، صدى شعره، وزادها تأزما وتعقيدا في عوالمه الباطنية، مصاب الظاهرة الاجتماعية المركبة من جهل مدقع، وعدم وعي جماعي، وحالة من التخلف المميت، وضرب من الصراعات الهامشية ...

كما أتينا إلى إبراز ظاهرة الغربة السياسية، والمخططات، والنوايا الإستعمارية الممارسة ضد الشعب الجزائري، فكانت عن بواعث الغربة من زاوية القمع والإبادة الجماعية والتشريد التي وظفها المحتل، وعن السجون والمحتشدات وألوان التعذيب الممارسة ضد الأبرياء من المعتقلين، فجاءت أشعاره ملاحم معبرة عن معاناة شعب بأكمله، وشخصت مأساة فريدة قل نظيرها في تاريخ البشرية...

وكانت أبعاد ظاهرة الغربة من بعد وطني، ومغربي، وإسلامي، وإفريقي، وإنساني، من خواتم بواعث ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا، حيث رصدت أشعاره وضع الإنسان المغربي والإفريقي والإنساني بصفة عامة، من حيث أنه وضع مأساوي لا يبشر إلا بالثورة على الظلم السائد فوق الأرض، وتحسر على فقدان الإنسان لإنسانيته.

أما الفصل الثالث : فقد خص للمعطيات الفنية التي طرحتها ظاهرة الغربة، فتمثلت في كيفية بناء القصيدة، من ناحية اللغة الشعرية، والصورة الشعرية والموسيقى ...

ثم كانت الخاتمة، التي تضمنت أهم نتائج الظاهرة وبواعثها في الدراسة . ولا يمكنني أن أنسى عظيم المعروف، ووافر العناية والرعاية والصبر، التي أحاطني بها أستاذي الفاضل المحترم الدكتور عبد الله حمادي، أشكر شخصه الكريم كل الشكر على تكرمه وتفضله بالإشراف على هذه الدراسة، وعلى المساعدات الجمّة التي قدمها لي ... ، فمن الأعماق له كل الفضل والتقدير والعرفان.

مدخل :

مفهوم الغربة والإغتراب

مفهوم الغربة والإغتراب

أولا : مفهوم الغربة

الغربة ظاهرة اجتماعية قديمة، عرفها الإنسان منذ أن وطئت قدماه أرض الأرض، ومازالت تلازمه وتصاحبه بماسيها إلى يوم الناس هذا : لأنها ضمن طبائعه، بل هي دافع ضروري من دوافعه، وهي ظاهرة غريبة تتشكل وتتميز من إنسان إلى آخر، بأشكال وصفات سلوكية عديدة، وفق مسبقاتها ومصادرها، وكانت ظاهرة الغربة واضحة المفاهيم، واضحة الاستخدامات والمصطلحات، لكن في عصرنا الحديث، نلاحظ أنها أخذت أشكالا وصورا سلوكية وتعبيرية مركبة ومعقدة، إذ أصبحت ظاهرة الغربة، من أبرز الظواهر والمفاهيم إثارة للنقاش والجدل اللغوي، وذلك راجع إلى العديد من التعريفات الحديثة التي رصدت لتحديد أبعاد مفهومها، إضافة إلى أوضاع الإنسان المستحدثة المأساوية جراء نكبات الحروب العالمية والإقليمية التي لم تنقطع، وما يصاحبها من ويلات وخراب وإبادة... وبناء على هذا النحو، فإن الدراسة، تركز على ظاهرة الغربة وكيفية تداخلها اللغوي مع مصطلح الإغتراب الحديث، والمتداول بكثرة في الدراسات الأكاديمية والبحوث اللغوية الغربية الحديثة.

فنحن سنوظف الغربة في هذه الدراسة للدلالة على النفي والتهجير، والإقصاء، والنوى، والإبتعاد عنوة على الوطن والأهل وأيضا عن : الإغتراب أو التغريب، لأن الفعل يغترب هو فعل لازم شأنه في العربية شأن معادليه في العديد من اللغات البشرية الأخرى، وهو يعني حرفيا "يغدو غريبا، أو يجعل شيئا ملكا لآخر"⁽¹⁾ والإسم المشتق منه هو الإغتراب..

أ - الغربة لغوة :

معاني الغربة عديدة، حيث نثر في لسان العرب في مادة (غ ر ب) بمعنى الحركة الدائمة "...والْعَرَبُ : الذَّهَابُ وَالتَّنَجِّيُّ عَنْ النَّاسِ، وَقَدْ غَرَبَ، يَغْرَبُ، غُرْبًا وَأَغْرَبَ، غَرَبُهُ وَأَغْرَبُهُ نَحَاهُ"⁽²⁾

1- ريتشارد شاخنت : الإغتراب. ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1980 ، ص15

2- ابن منظور: لسان العرب. مادة (غ ر ب) المطبعة الأميرية ط1 بولاف 1300هـ - مصر.

كما تعني الغربة، التّواري والإختفاء عن الناظرين " غُرِبَتِ الوحْشُ في مغاربها أي غابت في مكانيسها" (1) أيضا تأتي الغربة في مواطن أخرى بمعنى " الشؤم والشذوذ أو تحمل بعض الصفات النوعية لبعض المخلوقات التي كان يتطير منها الإنسان خاصة في الجاهلية" (2) ومن كثرة " تشاؤمهم بالغراب اشتقوا اسمه الغربة والإغتراب والتغريب والغريب" (3). ولهم أمثال على هذا المنوال مثل قولهم " أَغْرَبُ من غُرَابٍ " ومثله في أشعارهم عن " مضر بن لقيط قوله :

كأني وأصحابي وكري عليهم على كل حال من نشاط ومن تشأم
غراب من الغربان أيام قـررة رأين لجأما بالعراض على وضم

لذا كان الغريب (صغير) الغراب نذير شؤم عند عرب الجاهلية" (4) ويحاول الجاحظ تفسير ظاهرة التشاؤم عند عرب الجاهلية بالغراب، والعلاقة المتداخلة بين لفظي الغربة والتطير بالطير الغراب بقوله " لزمه هذا الاسم (غراب) إذا بان أهل الدار للنجعة، وقع في مرا بيض بيوتهم يتلمس ويتقمم فيتشائمون ويتطيرون منه إذا كان ليعتري منازلهم إلا إذا بانوا فسموه غراب البين" (5). كما تأتي الغربة بمعنى التهجير والتغريب أي الطرد والنفي من الأرض أو الوطن وضمن التغريب : النفي عن البلد... والغربة والغرب : التزوج عن الوطن، والإغتراب... والتغريب كذلك، وغريبٌ : بعيد عن وطنه، والجمع غرباء، والأنثى غريبة" (6).

1- الزمخشري : أساس البلاغة، الجزء 2، دار الكتب المصرية القاهرة، ب ت، ص 159.

2- الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر : كتاب الحيوان - الجزء 1 شرح و تحقيق يحي الشامي، منشورات مكتبة الهلال، بيروت، ط3 سنة 1990 ص516

3- المصدر نفسه : ص 518

4- المصدر نفسه : ص 315

5- المصدر نفسه : ص 315

6- ابن منظور : لسان العرب، مادة (غ ر ب)

وهناك كتاب قيم وضعه أبو فرج الإصفهاني في الأدب، تتبع فيه ظاهرة الغربة من الناحية اللغوية، سماه (أدب الغرباء) يقول عنه " جمعت في هذا الكتاب ما وقع إلي وعرفته وسمعت به وشاهدته من أخبار ما قيل شعرا في غربة ونطق عما به كُربة"⁽¹⁾.

ب - الغربة في الدين الإسلامي :

إن ظاهرة الغربة عند الكائن الحي قديم قدم هذا الكائن الإنساني الذي ارتبطت به، فقد عرفها وعانى من ويلاتها أبو البشرية آدم -عليه السلام- وذاق من ينابيع مرارتها قبل وبعد نزوله الأرض " ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة أسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" (سورة الأعراف 11-12)، كما أمتحن آدم - عليه السلام - في أصله ومركبات معرفه الأصيل" قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصل من حما مسنون (سورة الحجر 32-33)، وتعاضمت بعدها مأساة آدم - عليه السلام - وإزدادت غربته في الجنة، وما كان منه من أكله الشجرة التي نهي عنها " وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين" (سورة البقرة 35-36)، فكانت مأساة وبداية البدايات لغربة الإنسان الأول الذي ظلم نفسه، ونسي نواهي ربه فغوى، فترك الجنة بائسا مغتربا، وهبط الأرض جارا وراءه فراقها، إلى دنيا مليئة بالمتاعب والمآسي والأحزان.

يقول صالح الشرنوبى :

أَفَاحَةَ سُرِّ هَذَا الشَّقَاءِ وَمَنْ أَجْلَهَا كُلُّ هَذَا الْبَلَاءِ⁽²⁾

1- أبو فرج الإصفهاني : أدب الغرباء، تحقيق د/ صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديدة، بيروت 1972، ص 23

2- صالح الشرنوبى : الديوان : جمع وتقديم، علي أحمد باكثير، الدار المصرية للطباعة، ب ت، ص 26

وقد جاء في الأثر أن الرسول (ص) قال: " قد بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء".

أ- " بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، قيل : ومن الغرباء يا رسول الله ؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس ".⁽¹⁾

ب- بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قالوا :يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال :الذين يزيدون خيرا وإيمانا وتقوى إذا نقص الناس من ذلك.

ج- بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء، قالوا :يا رسول الله ومن الغرباء؟ قال : " ناس صالحون قليل في ناس كثير، من يعصيه أكثر ممن يطيعهم"⁽¹⁾.

يتضح لنا أن الغرباء فئة قليلة من أهل الورع والإيمان والإصلاح والتقوى استجابت للرسول (ص)، ونأت بنفسها عن الشبهات والشهوات حين أفتتن المسلمون بهاتين الفتنتين ، قال تعالى " زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب" (سورة آل عمران 14).

كما ورد وصف جميل لأهل الدنيا وأهل الآخرة، أهل الجنة ونعيمها، التي وعد بها الله المتقين الذين زهدوا في الدنيا، وأهل الدنيا الذين رضوا بما مستقروا ومقاما قال تعالى : " يوم يتذكر الإنسان ما سعى، وبرزت الجحيم لمن يرى، فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى" (سورة النازعات 35-41). فالزهد في دنيا المؤمن، والفقر والإملاق، والإنقطاع للعبادة واعتزال الناس في أغلب الأوقات أسلوب حياة المغترب.

وعلى ذلك تكون الغربة بالمعنى الإسلامي غربة وإغتراب عن الحياة ومظاهرها الاجتماعية الزائلة الزائفة، وإغتراب النظام الاجتماعي العادل، فالغرباء هم الذين جاهدوا النفس وتصدوا لمغرياتهما.

1- محمد علي بيوض : الأحاديث القدسية الصحيحة، جمع وإعداد الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ط2، 2002 ، ص 120
ينظر :أيضا ابن القيم الجوزية : مدارج السالكين، ج 4 ، طبعة القاهرة 1292 ، ص 122.

ج - الغربة في المعاجم اللغوية الأجنبية :

إن الغربة في اللغة اللاتينية تستمد "معناها اللفظي من الإسم **Aliénation** وهي مأخوذة من الفعل **Alienato** الذي يعني تحويل شيء ما للملكية شخص آخر أو يتعلق به، وهذا الفعل الأخير مستمد بدوره من صفة نهائية من لفظ **Alius** الذي يعني سواء كإسم أو صفة" (1).

كما نجد معنى الغربة والإغتراب يتداخلان في المعاجم الأجنبية عند الإستخدام "الحركي ألفوني **Phono** في اللغة الإنجليزية والألمانية، حيث المعنى يفيد التغريب أو السطو أو السلب أو عنوة. فاللفظ الألماني **Fremd** يماثل اللفظ اللاتيني **Alienus** واللفظ الإنجليزي **Alien** الذي يعني الانتماء إلى الآخر أو التعلق به" (2).

ومما تقدم نخلص إلى أن معنى الغربة من الناحية اللفظية في المعاجم العربية تعني القهر والنفي والتشريد، وفي المعاجم الأجنبية تفيد التغريب والسطو والسلب، وهذه المعاني قريبة في معناها من بعضها السلوكي من بعض، وقد لازمت الإنسان منذ أول الخلق إلى يوم الناس هذا. كما نجد أن لفظة غربة تنسع لكثير من المعاني الحسية والمعنوية، وإن تعددت استعمالها، فذلك راجع إلى أبعادها اللغوية العديدة والمتنوعة.

فالمعنى اللفظي الدقيق "الألماني **Fremd** يماثل من ناحية المعنى اللفظي اللاتيني **Alienus** ويعطي المعنى اللفظي الإنجليزي **Alien** نفسه، الذي يفيد معنى الانتماء إلى آخر أو التعلق به وقد وظف هذا المعنى اللفظي أصلاً يشير بصورة حرفية إلى ما هو غريب وأجنبي، ويظهر من الكتابات أن استخدام هذا المعنى الحرفي للفظ الألماني **Enfremdung** الذي يفيد معنى الغربة والمعنى اللفظي الإنجليزي **Alienation** الذي يعني الإغتراب وما اشتق منهما من معاني متماثلة للغاية" (3).

1 - ريتشارد شاخت : الإغتراب، ترجمة كامل يوسف حسين، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت 1980 ، ط 1 ، ص. 67.

2 - المرجع نفسه : ص. 67.

3 - المرجع نفسه : ص. 67.

واستعمل إصطلاح الغربة الألمانية شان إصطلاح الإغتراب في الإنجليزية في العصور الوسطى، وفي اللغتين كان يعني الملكية واستخدام مخالف من الناحية اللغوية، فالتغريب المتضمن في هذا الإصطلاح لم يقصد نهائيا به النقل القانوني للملكية وإنما تلك الأنشطة التي أوردتها العالم جريم أي (السطو والسلب والأخذ) وكان المقصود في اللغة الألمانية الوسطية، بذلك يتم تغريبه هو بصفة عامة شيء ينتمي إلى شخص آخر و يتمثل التغريب في عملية أخذه أو سرقة من ذلك الشخص، ومن بين الوصايا والشواهد التي تركها جريم، القول: " بأننا لا ينبغي أن نقوم بتغريب أو إنتزاع ممتلكات جيراننا"⁽¹⁾.

كما استعمل إصطلاح " الغربة " في اللغة الألمانية الوسيطة أيضا بمعنى مماثل لإستعمال إصطلاح الإغتراب في اللغة الإنجليزية فيما يهم اختلال العقل وفيما يتعلق بغياب الوعي و الشلل المؤقت للحواس.

ومما تقدم يمكن القول إن إصطلاح الغربة قد تلاشى، ولم يصبح له وجود منذ القرن التاسع عشر، وقد أمكن استعمال لفظ الغربة في زمن يعود إلى القرن السادس عشر، وفيما يتعلق بالغربة التي تسود العلاقات بين الأشخاص، فقد استخدمه لوثر بهذا المعنى في ترجمته للعهد الجديد، لكن يبدو أنه في القرن التاسع عشر فحسب، بدأ فعلا استخدام هذا الإصطلاح يحرز رواجا ملحوظا، وعلى أية حال فإن " هاييني " يشير في كتاباته لعام 1890 إلى أن هذا الإستهخدام كان مألوفا للغاية منذ بداية القرن وهو ما يؤكد أن هذا الإستهخدام لم يكن مألوفا قبل ذلك⁽²⁾

هذه هي الخلفية اللغوية العامة لهذين المصطلحين في المعاجم الأجنبية التي يتعين في إطارها النظر إلى الاستخدامات الخاصة لهذين المصطلحين في المعاجم الأجنبية.

1- ريتشارد شاخت : الإغتراب، ص 68.

2- المرجع نفسه : ص 68.

ثانيا: مفهوم الإغتراب

لقد أفلحت مشكلة الإغتراب - بإعتبارها حالة مميزة للإنسان في المجتمع الحديث - في أن تفرض نفسها على كثير من مجالات النشاط الثقافي في الوقت الحالي، وأن تظهر كموضوع أساسي في الكتابات الأدبية والأعمال الفنية والبحوث الاجتماعية...

وأصبح المنطوي على نفسه يظهر في هذه الأعمال " مغتربا من الناس، بل ومن نفسه ومشاعره وعواطفه، يعاني عذاب الوحدة والعجز عن الاتصال بالآخرين، وعدم القدرة على التعامل مع غيره"⁽¹⁾.

والواقع أن مصطلح " الإغتراب " يعتبر اليوم من أكثر المصطلحات تداولاً في الكتابات التي تعالج مشكلات المجتمع الحديث، وبسبب تضارب الآراء والاتجاهات، فإن مفهوم الإغتراب لا يزال يعاني الكثير من الغموض، إذ من الصعب تحديد المفهومات الأساسية تحديداً دقيقاً، ومن هنا تضاربت الأقوال والآراء، ولكن على الرغم من هذا التباين والاختلاف في الرأي وأسلوب المعالجة فإن كل المحاولات التي بذلت حتى اليوم تدور حول " أمور معينة بالذات تشير كلها إلى دخول عناصر معينة في مفهوم الإغتراب، مثل الإنسلاخ عن المجتمع والعزلة أو الإنعزال، والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع، واللامبالاة، وعدم الشعور بالانتماء، بل، وأيضاً، انعدام الشعور بمغزى الحياة"⁽²⁾.

أ - الإغتراب لغة :

عند اطلاعنا على البحوث التي تناولت ظاهرة الإغتراب *aliénation* بالدراسة، تبين لنا تنوع استعمال المصطلح وتعدد معانيه وغموضه إلى درجة تكاد تنتفي معها قيمته العلمية، فكثير من الباحثين الميدانيين قد استثمروا هذا المصطلح " بمعنى انعدام السلطة والانخلاع والانفصام عن الذات، و(الأنوميا) *anomie*، والإستياء أو التذمر والعداء، والعزلة وانعدام المغزى في واقع الحياة والإحباط، *frustration*"⁽³⁾.

1- قيس النوري : الإغتراب، (اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً)، مجلة عالم الفكر، مج 10 أبريل - ماي - يونيو 1985، ص 3

2- المرجع نفسه : ص 68 وما بعدها

3- ريتشارد شاختر : الإغتراب، ص 68

والواضح أن المضمون الجوهرى يظهر فيها جميعا بشكل أو بآخر، ومما يسهم في تشتت معاني هذا المصطلح هو استعماله من قبل أناس غير المختصين، فقد تناول عدد من الفلاسفة وبعض المفكرين القدامى " كتوماس هو بز Thomas Hobbes وجان جاك روسو ونييتشه وشيلر وهيغل"⁽¹⁾. وحتى تتضح الصورة وتبلور معاني هذا المصطلح نقف عند مضامينه.

1 - الإغتراب بمعنى الانفصال :

ويعنى بالانفصال " الحتمى المعرفى لكيانات أو عناصر معينة في واقع الحياة "⁽²⁾ الشيء الذي يولد حالة من الإحتكاك والتوتر بين الأجزاء المنفصلة وقد برز هذا " المعنى في كتابات هيغل Hegel باعتبار الكون في نظره مكونا من أجزاء منفصلة ومتناقضة ومتفاعلة ولكنها متكاملة"⁽³⁾.

2 - الإغتراب بمعنى الانتقال :

يكون في أو عند " إرتباطه بعملية التخلي renunciation عن حق من حقوق التعاقدية Contractuel right فإنه يكتسب معنى مختلفا عن معناه السابق"⁽⁴⁾.
فالإغتراب في هذا المعنى، كان يقصد به نبذ أو مصادرة حقوق الملكية المتعلقة بأحد الأفراد، أو نقل هذه الحقوق من ذلك الفرد إلى شخص آخر، الشيء الذي يولد إحساسا بالغضب أو التسليم من جانب الأفراد الذين يواجهون مثل هذا الإعتداء.

3 - الإغتراب الإجتماعي :

يمثل قمة الإضطرابات الإجتماعية من ناحية حركة ظواهرها وما تفرزه من " تجارب مشبعة بالمرارة و الألم، ولدت هذه من رحم ظروف وأحداث لم يكن للإنسان يد فيها"⁽⁵⁾.

1 - ريتشارد شاخنت : الإغتراب، ص 65

2 - المرجع نفسه : ص 65

3 - المرجع نفسه : ص 65

مدخل : _____ مفهوم الغربة والإغتراب

4- المرجع نفسه : ص 63

5- قيس النوري : الإغتراب، (اصطلاحا ومفهوما وواقعي)، ص 14

وإنما اصططلحت مجموعة عوامل على خلقها، وقد تجلت في كثير من الأحيان، في الغربة عن الأهل والنفي عن الوطن وفي الغربة عن المجتمع، ويمكن عد هذه الغربة بغربة القهر.

4- الإغتراب السياسي :

يشمل القضايا الاجتماعية، من الناحية السياسية، (فالفرد عادة ما يهجر بلادا كثر فيها الظلم والإستبداد)⁽¹⁾، فيقرر أن يترك الأهل والوطن عنوة.

ب - الإغتراب إصطلاحا :

إن الأصل اللاتيني لكلمة إغتراب هو alienatio أخذ هذا الإسم معناه اللغوي من فعل lienare. بمعنى تحويل شيء ما للملكية شخص آخر أو الإنتزاع، وهذا الفعل مستمد بدوره من فعل آخر هو alienus أي ينتمي إلى شخص آخر أو يتعلق به، وهذا الفعل الأخير مستمد بصفة نهائية من لفظ alius الذي يعني الآخر سواء كان إسماً أو صفة⁽²⁾.
وهذه بعض معاني الإغتراب الإصطلاحية:

1- الإغتراب بمعنى نقل الملكية :

يرتبط أحد الإستعمالات اللاتينية الأساسية للفظي alienatio و alienare بما يتعلق بالملكية، وفي هذا الصدد فإن فعل alienare يعني نقل ملكية شيء ما إلى شخص آخر، والقيام بذلك يعني حرفيا جعل شيء ما منتميا إلى شخص آخر ومن هنا تأتي ملائمة الإشتقاقات المستمدة من لفظ alienus، وبالمثل فإن بوسع المرء أن يعثر في اللغة الإنجليزية المنتمية إلى العصور الوسطى على فعل يفيد قيام شخص ما بتغريب شيء يمتلكه كالأراضي أو المنازل، وهكذا كان يمكن أن يؤثر شخص ما في القرن الخامس عشر بالأّ يقوم بتغريب قطعة أرض على سبيل المثال.⁽³⁾

1- فتح الله خلف : الإغتراب، مج 16، ع 2، سبتمبر 1985، ص 18

2- ريتشارد شاخ : الإغتراب، ص 63

3- المرجع نفسه : ص 63 وما بعدها.

ونجد في المعاجم الأجنبية لفظ الإغتراب والغربة يحملان هذا المعنى إلى اليوم، وما يزال الإصطلاح يعطي معنى النقل في كل من العمليتين.

2 - الإغتراب بمعنى تلاشي المعايير:

يرجع الفضل لهذا المصطلح إلى " بحوث العالم الفرنسي دوركايم Durkheim عن موضوع (الأنوميا) - التداعي - "anomie" ⁽¹⁾، ويشير بحثه إلى وضعية تنعدم فيها المعايير normes الاجتماعية لضبط سلوك الأفراد، ويمكن اعتبار فكرة الأنوميا التي نحتها المفكر دوركايم هي جزء يتكامل و مفهوم الإغتراب.

ج - الإغتراب عند بعض الفلاسفة والمفكرين:

ورد ذكر مفهوم الإغتراب بشكل أو بآخر في الكتابات الفلسفية واللاهوتية القديمة، وعند كثير من فلاسفة الإغريق منهم سقراط، وتظهر فكرة الإغتراب أيضا في سفر التكوين Genesis في الدراما الإنسانية المتعلقة بخلق و سقوط الإنسان، وإنفصاله المتمثل في قصة الإنسان والثمرة المحرمة والخروج من جنة عدن⁽²⁾. ولضخامة حجم ما كتب عن هذا الموضوع فإن هناك أسماء عديدة لمعت بإعتبارها تمثل الباحثين الذين تميزوا في بلورة هذا المفهوم، وأعطوه ما يتمتع به الآن من أهمية علمية.

1 - الإغتراب عند هيجل :

يعد هيجل رائد من رواد موضوع الإغتراب، و يعتقد " أن العالم الذي يعيش فيه الإنسان هو إلى حد كبير من ابتكار أو إختراع الإنسان نفسه، وأن النظم السياسية والحضارية والاجتماعية تمثل الجوهر الاجتماعي الذي تمخض عنه هذا الدور الإنساني"⁽³⁾.

1 - ريتشار شاخت : الإغتراب، ص 249

2 - المرجع نفسه : ص 79.

3 - المرجع نفسه : ص 120

ويلاحظ أن هيجل يستعمل مصطلح "الإغتراب *entfremdung* بصورة مزدوجة، فهو في بعض معالجاته يستعمله في سياق الانفصال *séparation*، وفي مواقع أخرى من بحثه يعطيه معنى التخلي أو التنازل *relinquishment*"⁽¹⁾.

وفكرة الانفصال تفيد علاقة متحللة بين الفرد وأعضاء مجتمعه، ويؤدي هذا الإستعمال إلى مفهوم الانفصال عن النفس أو الإغتراب الذاتي *self-alienation* الناشء من تفاوت بين ظروف الفرد الحقيقية و طبيعته الجوهرية، الأمر الذي يقود إلى الشعور بالإغتراب الذاتي.

2 - الإغتراب عند كارل ماركس :

يعد كارل ماركس من رواد البحث الهادف لتحليل مفهوم الاغتراب الذي منحه طابعا "سوسيولوجيا، بعد أن كان مفهوما ميتافيزيقيا ولاهوتيا... وقد برز اهتمام ماركس بهذا المفهوم بصورة خاصة و قوية في مؤلفه (مسودات اقتصادية و فلسفية

(Economic and philosophical manuscript) المنشورة في عام 1844"⁽²⁾.

وربط مفهوم (الإغتراب) من زاوية الأشياء التي يتم إنتاجها، ويتساءل : كيف يستطيع العامل أن يقف في علاقة غريبة أو "مغتربة *alienated relationship* إلى الناتج الذي يصنعه إذا لم يكن قد عزل نفسه عن عملية الإنتاج نفسها"⁽³⁾.

ومن هنا توصل ماركس إلى أن كل عمل هو بالضرورة عمل مغترب، لأن الإنسان سيكون محكوما عليه دائما بأن ينفصل عن نتائج عمله.

يتضح مما سبق أن الإغتراب في تفكير ماركس يميز تلك الحالات الخاصة بالفرد والمجتمع التي يرى دوركايم علاجاً للأنوميا، الناجم من الوضعيات التي يوجدها تقسيم العمل، وتعمل على الانسجام والتطابق بين سلوكهم والقواعد الاجتماعية المستقلة عن إرادتهم وتجعلهم يفكرون في حدود أدوار محدودة " فالفرد الذي يعاني من الأنوميا *anomic mon* في إعتقاد دوركايم،

1 - ريتشار شاخت : الإغتراب، ص 68

2 - المرجع نفسه : ص 124 وما بعدها

3 - المرجع نفسه : ص 125

هو الفرد الذي لا يخضع لمعايير من أي نوع، والذي تعوزه قواعد يعيش بها لتنظم رغباته و توجه أعماله، وأفاق محددة يهتدي بها فكريا وسلوكيا " (1).

بينما يرى ماركس " إن الفرد في هذا النظام، والذي لا يستطيع الهروب من مجال الفعاليات المحدودة والمحصورة والتي تفرض عليه، هو إنسان يعاني من الإغتراب " (2).

هكذا فإن الاغتراب عن الآخرين الذي يتحدث ماركس عنه يتعين أن يفهم باعتباره يتضمن غيابا شاملا للاحساس في الصحة وتقويما للآخرين باعتبار أنهم ليست هم أهمية إيجابية، تتجاوز أهميتهم كوسائل للغايات الشخصية وعداء يقوم على الاحساس بالتنافس وتوقع الاستغلال المضاد، وهذا الاغتراب يضرب جدوره في المتمحور حول الذات الذي لا يلتفت فحسب إلا إلى التمييز الخاص وكذلك في مفهوم عن الذات يستبعد أي فكرة للاجتماعية.

وفي هذا الصدد الأخير فإن الإنساني الأناني الذي يغترب عن الآخرين لدى ماركس مماثل للفرد المتمحور حول خصوصيته عند هيجل، والذي تتمثل علاقته بالبنية الاجتماعية في "الاغتراب "

ولعل الاختلاف بينهما يرجع لأسباب أهمها أنهما كتبا عبر مراحل مختلفة للصناعة.

1 - ريتشار شاخ : الإغتراب، ص 146

2 - المرجع نفسه : ص 148

الفصل الأول :
ظاهرة الغربة في الشعر العربي
الحديث

ثار الشعراء على شكل الشعر ومضمونه، فمن جانب المضمون حاولوا أن يجعلوا منه رؤية لواقع الحياة الجديدة، كما يراها الشاعر و يحس بها، فكان الشعر في هذه المرحلة تشخيصاً لهموم وآلام و أوجاع الإنسان العربي بصفة خاصة وصورة صادقة عن معاناة الإنسانية بصفة عامة، إنه انعطاف يعكس مشاكل القرن العشرين، و يبرز أدرانه وأمراضه الاجتماعية، وسلبياته الحضارية، وتحولات واقع الكائن الحي بين الحرب العالمية الأولى والثانية، وما صاحب هذه الأخيرة من ويلات وظروف تمثل أحلك فترة من فترات التاريخ العربي، على المستوى الثقافي، كان صراع الأفكار والآراء، وعلى المستوى السياسي كان تناحر الأحزاب، وعلى المستوى الإقتصادي كان التكتل الإيديولوجي، وعلى المستوى الاجتماعي كان المحتل الإستعماري ومشاكله.

في هذا الزخم وداخل هذه الفضاءات كان الشعر رصدًا للغربة والتمزق والخيبة، وتعبيراً عن وضع الجيل والإنسان كله، فهو فضاء و دنيا من الإضطراب والقلق والاعتراب، إنه معاشة للإنسان الذي فقد الإيمان أمام كل القيم و المبادئ وإن تعددت واختلفت مصادرها.

ومع ذلك كان بصيصاً لتأزر بين النضال الثوري والبراءة، والقوة والضعف، وبين الرجولة والطفولة، يقدمان عالماً ثرياً متنوعاً، يهدف إلى استكشاف حركة الحياة ويتعرف على تناقضاتها، فانصهر الشاعر العربي في حمأة الحياة، يود أن تكون حياته وفنه كما يقول عباس العقاد: " شيئاً واحداً، لا ينفصل فيه الإنسان الحي عن الإنسان الناظم، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره، وموضوع شعره هو موضوع حياته، فديوانه ترجمة باطنية لنفسه... لا تخفي فيها ذكر خالجة أو هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان"⁽¹⁾.

فبقدر ما يعبر الشاعر عن الزفريات المكبوتة، فإنه يعبر كذلك عن إنسانية الإنسان بما تحويه من هموم ومعتقدات وضرورات الحياة.

1 - عباس محمود العقاد : ابن الرومي، حياته وشعره، المكتبة التجارية، القاهرة، 1963، ط 5، ص5

وإذا كان التقدم العلمي قد أنار عقول الإنسانية وجعلها تعرف اليوم أكثر من ذي قبل، فإنه (التقدم العلمي) لم يوفق بعد في تقديم إجابات دقيقة مقنعة لما يمكن أن يكون عليه الكائن الإنسان في ظرف زمني مستقبلي ما، فازداد خوف الإنسان من المستقبل ودفعه هذا الإفراز الاضطرابي المركب إلى التساؤل باستمرار عما يخفيه ويخبئه له المجهول أو القدر، ويولد لديه أنماطا من الغربة وإحساسا عميقا بالحزن والضياع، وهذا ما قصده جون فون زيلسكي **Jean Von Ziliski** بقوله "إننا نبكي بكاء يتعذر ضبطه عند التفكير في الفرق بين الإنسان في تصرفه الشائع و بين ما يمكن أن يكون عليه... وفي وسط الفجوة مباشرة يختفي الكشف الإنفعالي الجوهرى للخلق المأساوي الفني"⁽¹⁾

فالتشبث بالحياة يبقى دائما وأبدا القيمة العليا، فهو الأمل أو القانون العام الذي يتمسك به الإنسان منذ أول خلق و إلى أبد الأبدين فهو " أقدم فضيلة ملازمة للحياة، والفضيلة التي لا غنى عنها أبدا في الوقت ذاته"⁽²⁾.

فجوهر الشعر هو رؤية الحياة فاعلة داخل أعماق الشاعر، ومنفعلة تجاه مراكز المد والجذب المحيطة به، إن الشعر هو " الصورة النفسية أو الكونية التي يصورها الشاعر حين يفكر في أمر من الأمور تفكيراً ينم عن عميق شعوره وإحساسه... ليغذى شاعريته بجميع الأفكار النبيلة، ودواعي الإيثار التي تنبعث من الدوافع المقدسة، وأصول المروءة النبيلة، وتشف عن جمال الطبيعة والنفس"⁽³⁾.

ومع الإيمان باختلاف الأجناس الأدبية، كل حسب طبيعته الفنية التي تتطلبها الرؤية والصياغة، فإنها — الأجناس الأدبية - كما يرى عز الدين إسماعيل " تصبو إلى التعبير الدرامي...أعلى صورة من صور التعبير الأدبي"⁽⁴⁾.

1- جون فون زيلسكي : (المأساة والخوف) ، ترجمة عارف الحديفة، وزارة الثقافة، دمشق، 1982، ص ص 35-36.

2- المرجع نفسه : ص 39.

3- غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، دار النهضة مصر، 1979، ص 263.

4- عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة بيروت، ط4، 1981، ص 278.

فالشعر يكتب ويولد كل يوم منذ هوميروس ومع ذلك لم يتغير كثيرا، بل إن جوهره صراع الكائن الإنساني، وسعيه نحو ميادين الخير، والعدل والحق والجمال، فهو كما يقول علي محمود طه رسالة كالرسالات الدينية تحفظ القيم الإنسانية النبيلة وتدافع عنها.

هبط الأرض كالشجاع السني	بعصا ساحر وقلب نبي
لمحة من أشعة الروح حلت	في تجاليد هيكلي بشري
ألمت اصغريه في عالم الحكـ	مة و النور كل معنى سري
وحبته البيان ريا من السحر	به للعقول أعذب رُي ⁽¹⁾ .

ومعظم الرومانسيين يرون تحديد مهمة الشعر بقيم الحق والعدل و الخير والجمال وذلك لارتباطها مع بعضها، يقول عباس محمود العقاد " إن استمتاعك بالحق لا ينفي استمتاعك بالجمال وكلاهما يسعيان في طريق واحد ويلطفان النفس بلذة متشابهة، فإذا بلغ الجمال أقصى أثره في النفس لم يصرفها عن الحق، وإذا بلغ أقصى أثره في النفس لم يصرفها عن الجمال، ولا موجب لترك أحديهما من أجل صاحبه أو التفريق بينهما في ذوق الفنان القدير والقارئ الخبير"⁽²⁾

فالظاهرة الشعرية والحالة هذه، حالة نفسية تتولد من إحساس الشاعر بعد أن تعيش في عوالمه الباطنية، وكيانه الداخلي وتنمو كاليخضور اليانع فيه، حتى تؤدي معناها ومغزاها في صنع نسيج الحياة من حوله، لقد تطور الشعر واتجه بصورة لافتة إلى المنهج الدرامي الإغترابي المأساوي، أي إلى كتابة النماذج الشعرية الفكرية الحزينة، مستأنسا ومستنجدا بعناصر التجربة الشعرية ذاتها، كالموضوع والصورة واللغة والوزن، ومستنجدا بالعلوم الحديثة في ميدان العلوم الإنسانية أيضا.

فقد استطاعت الدراسات الجمالية والنفسية والاجتماعية المتعلقة بالفن، أن تضيق الهوة بين الفنون، وأن تجعل الأجناس الأدبية تستفيد من بعضها البعض، وذلك باعتبارها أبنية تدور في فلك

1- علي محمود طه : الديوان، الأعمال الكاملة، مج1، دار العودة، بيروت 182، ص 9

2- عباس محمود العقاد : ساعات بين الكتب، دار نهضة مصر، ط3، 1950، ص 44.

واحدة، فقد يستفيد الشعر من استخدامه القصة في تعميق البعد الدرامي لما لها من طاقة وحيز في هذا الميدان، بيد أن استفادة الشاعر بتقنيات الأجناس الأخرى، طريق وعرة ومحفوفة بالمخاطر، لأن الصعوبة تكمن كما يقول محسن أطميش " في القدرة على الإمساك الواعي لمتطلبات الفنون فلكي يكون الشاعر قاصا أو مسرحيا في الوقت ذاته، فإن عليه أن لا يجعل أيا منهما على حساب الآخر"⁽¹⁾.

وهذا ما وقع فيه مفدي زكريا في قصيدته الحزينة التي مطلعها :

هو الدهر ما أبقي بمقلته دمعا	وتلك الليالي السود جرّ عنه التزعا
فأصبح يبكي صامتا بقريحة	تجمعت البلوى على وأدها جمعا
كئيب يناغي كل تضو معذب	بمهجته الحرّى على وطن يُنعى
وينظر مكلوما إلى حظ أمه	ويصفعها، ويلاه، قادتها صفعا ⁽²⁾

فقد اجتهد الشاعر أن يكون في هذه القصيدة شاعرا وقاصا في الوقت نفسه، ولكن عند قراءة القصيدة ندرك مقدار افتقارها، عناصر الفن القصصي، وإلى دخولها في جزئيات مملة تبعد كثيرا عن الشعر.

إن استفادة الأجناس الأدبية من بعضها البعض لا يعني انصهار أحدها في الآخر بل يعني وحدة النظام الفني وحقيقته الالدة، فأرسطو مثلا عندما تحدث عن المأساة كأنه يشير إلى الخصائص الجوهرية للعمل الفني بصفة عامة، وهذا ما نتفهمه ونستشفه من قوله عن المسرحية " يجب أن تؤلف على نحو يجعل من يسمع وقائعها يفزع منها وتأخذه الرحمة بصراعتها"⁽³⁾.

فلا بد من أن يثير أي عمل فني عاطفة الرحمة والخوف، وأن يحرك العواطف الإنسانية وأحزائها، ومع ميل التعبير الدرامي إلى التفاصيل، فإن الشعر لا يعتني بها إلا من حيث هي تعميق

1- محسن أطميش : دير الملاك ، "دراسة نقدية "، منشورات وزارة الثقافة ، بغداد، 1982، ص 38.

2- مفدي زكريا : أمجادنا تتكلم "جزائر ما أشقاك بالجهل " ، مؤسسة مفدي زكريا، الجزائر 2003، ص 82-83

3- أرسطو طاليس : فن الشعر، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973، ص 38.

للجوهر الشعري، لأن الحس الدرامي في الشعر يتفوق" على قدرة الشاعر على اختيار ما هو جوهري - على الأقل من منظوره الخاص -، والإستغناء عن التفصيلات غير الجوهرية"⁽¹⁾.

إن ظاهرة الغربة في الشعر لا تتولد من الجزئيات و التفاصيل، وإن كانت تسهم في بلورتها بل تتولد من علاقة التأزم القائمة بين الشاعر والكون المحيط به، فهي ترتبط دوماً بالغربة وبالحنن، وتبعث في بعض الأحيان، إلى التذمر والإحباط، لأنها تجسد الإختيار الذي يعجز الشاعر عن التحكم فيه أو ترميمه، وفي هذا ما يعطي لها قيمة ودلالة ومغزى لدرجة الإحتذاء بها كغيرها من تجارب الأنبياء والرسل، الذين عانوا في سبيل تبليغ الدعوة أو الرسالة المنوطة بكل واحد منهم. إن ما يهم في ظاهرة الغربة هو حالة الإنسان والموقف الذي يتخذه إزاء الأحداث والخطوب التي تعترض سبيله، إنطلاقاً من صورة القدر أو المجهول - الذي لا راد له - التي لا تفجع الإنسان بمظاهرها المختلفة وتجعله يتساءل في كثير من الحيرة عن مصدر غربته وبواعث فواجعه.

والنظرة التاريخية تجعلنا ننطلق من الفلسفة اليونانية التي نظرت إلى الخطيئة، واعتبرتها بداية البدايات لنظام الكون، ومنها جاءت كل الأهوال والمتاعب والفجوات التي تضعف من الإنسان، وهذا ما ذهب إليه سقراط بقوله " إن مقامنا نحن بني الإنسان عبارة عن سجن و واجب الإنسان ألا يحرر نفسه أو يهرب منه "⁽²⁾.

وداخل هذا الحيز كانت تدور أغلب الماسي والفواجع اليونانية، فأبطال سوفوكليس مثلاً يتلقون العذاب حيث لا تتوفر الحرية يقول أحد أبطاله " لا تحاول أن تبدي لي أي كنت أستطيع أن أفعل خيراً مما فعلت "⁽³⁾.

ولكن مع بداية العصر المسيحي توسع أفق المأساة، وارتبط بالخلاص الذي جاء به السيد المسيح - عليه السلام - في رسالته " الذي يؤمن به لا يدان، والذي لا يؤمن به قد دين "⁽⁴⁾.

1 - عز الدين اسماعيل : الشعر العربي المعاصر و ظواهره المعنوية و الفنية، ص283.

2 - أفلاطون : كتاب الفيدون، ترجمة و تحقيق على سامي النشار و عباس الشربيني، دار المعارف، ط4، 1965، ص29.

3 - سوفوكليس : أوديب ملكا، ترجمة محمد صقر خفاجه، الهيئة العامة ، 1984، ص88.

4 - الكتاب المقدس : انجيل يوحنا ، الإصحاح 3 (18) .

فما على الإنسان إلا أن يؤمن به ويحمل صليبه وإلا وقع في برائن الغربة والمأساة وأهوالهما ففي هذه النظرة ومثيلاتها ما يكشف عن القلق المظلم، وانطواء النفس وتساؤلها عن مصيرها واغترابها أمام تمزق الواقع، فالحياة البعيدة عن الإيمان باهتة لا طعم لها، فهي عقيمة، لذا وجب علينا - كما يرى سورين كيركغارد Soren kierkegard - "أنقفز بين يدي الله إن كان علينا أن نهزم خوفاً الميتافيزيقي"⁽¹⁾.

وقد حاول سورين - الذي يعد أبا الفلسفة الوجودية المسيحية، أن يحدد القنوات الأصلية التي "تمد الإنسان بأسباب لحزن، فوجدها في ثلاثة عناصر هي المفارقة. اليأس والقلق"⁽²⁾.

نظراً إلى المفارقة من خلال نظرة الإنسان العقلية لمشكلة الوجود فهي الطرف المضاد لكل ما هو عقلي... لا يسيطر عليها الفكر لأن الإيمان القائم على المفارقة يبدأ من حيث ينتهي الفكر"⁽³⁾. وقد دلل على هذا القول بصورة السيد المسيح - عليه السلام- الذي يكشف في إنسانيته ورسالته "عن اللا تشابه المطلق في التشابه المطلق، كما أنه يكشف لنا عن طبيعتنا الحاصلة على الخطيئة وطبيعتنا الجديدة في نفس الوقت"⁽⁴⁾. فالعلاقة بين الفرد وخالفه تبدأ بالقفز بين يدي الله، لأن العقل عاجز عن التفكير في ذات الله أو الوصول إليه.

وبهذا تكون مخاطرة الإنسان نحو الإيمان هي الخطوة الأولى للقضاء على الغربة والإحساس باليأس والذعر المصاحب لهما اليأس والغربة منبعيهما الذات الإنسانية⁽⁵⁾

نظراً لاحتوائها على عناصر متضادة مثل الضرورة والحرية، والمتناهي واللاتناهي، وعندما يحاول المرء تحقيق ذاته بمعزل عن الله يقع في غربة دامية على صورتين :

1- علي عبد المعطي أحمد : سورين كيركغارد، مؤسس الوجودية المسيحية، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية 1985، ص 244.

2- المرجع نفسه : ص 237، و ص 280.

3- المرجع نفسه : ص 238

4- المرجع نفسه : ص ص 238 - 239.

5- المرجع نفسه : ص 366 وما بعدها

الأولى : عندما لا يرغب المرء في تحقيق ذاته.

الثانية : عندما يرغب المرء في تحقيق ذاته بمعزل عن الله.

ولعل أعظم صور الغربة هي الغربة المدركة الواعية، حيث الحوار التام، وإلقاء المسؤولية على الظروف الخارجية، في الوقت الذي تكون فيه الذات المسؤولة الأولى عن هذه الغربة، وهذا مصداقا لقوله تعالى " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" (سورة الرعد الآية 249).

فتناسي دور العناصر الباطنية، وتأثيرها في تغيير شخصية الإنسان، يولد لديه مركبا للنقص، ويدفعه بالتالي إلى الغربة والانعزال والإغتراب، وهذا ما سنجدده عند معظم الكتاب والشعراء الرومانسيين ، أما القلق فيربطه سورين كيركغارد بالخطيئة والاختيار والحرية، ويعرفه بقوله " خوف وانجذاب في وقت واحد نحو بريق الإمكان.... فهو اشتهاه لما نخافه وخوف لما نشتهيه "(1).

فهو يبرز في صور شتى، وله علاقة وطيدة بالحرية التي هي فعل الممكن، والاختيار، وهنا تكون المخاطرة المثيرة المؤدية للقلق ذلك أن اتخاذ قرار الاختيار وبالتالي الفعل من أصعب الأمور، مهما كانت طبيعة هذا القرار وحجمه، غير أن سورين يركز على ثلاث قضايا هي :

1- الزواج باعتباره علاقة أبدية عند المسيحية.

2- الصداقة و كيفية المحافظة عليها، ووفق أي المعايير.

3- المهنة باعتبارها مستقبل الإنسان، وطريق استمراره في الحياة.

هذه هي منابع الغربة وبذور الحزن كما تراءت وحددها سورين كيرك غارد، وهي في مجملها تكشف القناع عن نسيج التوتر وخلايا الإنفعال ومواطن الصراع في حياة الإنسان : فالقلق والتوتر والخوف لا بد أن يعتري الإنسان لأهما جزء من إشعاره بوجوده، فالقلق هو " الطابع

1- علي عبد المعطى : سورين كيركغارد ، ص 374.

الأصلي في الوجود حتى في أشد الناس طمأنينة بل و في السعادة نفسها، و إن اختلف مقدار الشعور به فيما بين الناس"(1).

لقد عرضنا لهذه الأفكار باعتبارها منبع الفلسفة الوجودية التي أثرت إلى حد كبير في الفكر والأدب الحديث والمعاصر، لكونها تنصب أساسا على الإنسان، وتميط النقاب عما يختلج النفس من مشاعر مبهمه، ويباغت الإنسان من مواقف لا يجد لها تبريرا منطقيا أو سببا ظاهريا، فالشعور بالغربة والحزن أصبح أحد مقومات الحياة اليومية ولصيقا بطبيعة الذات، يقول أندريه مالرو **andre Malrau** في رواية قدر الإنسان : " الجميع يتعذبون، وكل منا يتعذب لأنه يفكر... والوعي بالحياة لا يمكن أن يكون قلقا"(2).

ولا يفوتنا أن نشير إلى اهتمام الإنسان بقضية الزمن، ذلك أن أهم الحركات العلمية والأدبية والفلسفية جعلت منها محورا، وقاسما مشتركا، فالزمان " هو نسيج حياتنا الداخلية التي تنساب المياه في مجرى النهر سريعة عندما تكون زاهرة... وبطيئة عندما تكون ضحلة هكذا إيقاع واقعنا النفسي، يركض عندما يكون غنيا حافلا فيكر معه الزمان ويخبو عندما يكون فقيرا مجدبا، فيزحف معه الزمان الذي هو حبل يتجاذب به الحزن والفرح القلب البشري"(3).

ففي هذا المفهوم نشأ التفكير الحر عند الإنسان الحديث، ففتح أمامه طريقا صعبة نحو سلسلة عنيفة من التفاعلات النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية تجمعها خاصية واحدة هي الإحساس بالغربة في الحياة، وتمثل هذا الإحساس معناه الالتزام بالقضية الإنسانية المتجسدة فيما يؤول إلى السقوط، فاحتقار المجرم - مثلا - لا يعني - بالضرورة - الجريمة في حد ذاتها وحسب بل الوعي بها الذي هو وعي بسقوط القيم والمفاهيم الخلقية، وبالتالي انهيار قواعد ودعائم المجتمع جملة، فالشاعر يتلمس في ظاهرة الغربة الخطر الذي يتعرض له المجتمع ويهدد كيانه، وإن كان منطلقه ذاتيا،

1

- عبد الرحمن بدوي : الزمان الوجودي ، دار النهضة، مصر 1945، ص 153.

2- أندريه مالرو : قدر الإنسان (رواية) ، ترجمة فؤاد كامل - الدار المصرية - 1965، ص 322.

3- سمير الحاج شاهين : اللحظة الأبدية ،دراسة الزمان في أدب القرن العشرين، المؤسسة العربية، بيروت، ط1، 1980، ص 15.

فإنه يذكر الإنسان بضعفه وبالحلقة المتبورة في حياته، فالقيم الأخلاقية الكبرى التي تشبث بها هي - في الحقيقة - ترميمات نسد بها الفتحات والفجوات التي لا نستطيع السيطرة أو التحكم فيها، لقد كانت مشكلة الأخلاق قائمة منذ القدم وستستمر ما دام في الوجود كائن اسمه الإنسان، إنها تبقى الينبوع الذي يعطي للحياة معناها، وفي زوالها واندثارها ما يولد جروحا غائرة و أحزانا عميقة وغربة أكيدة.

إن الفن الشعري يجب ألا ينصرف إلى الجمال فحسب، بل إلى الأسرار التي تختزنها النفس الإنسانية، والطبيعة والظواهر الاجتماعية، وينبغي أن يكون في الظاهرة الحركية الإبداعية النموذج الإنساني، فالشعر كما يراه كولوردج " إدراك عاطفي للحقيقة، وغايته أن يعرض التجربة الإنسانية... أن يعطينا قيما و يبصرنا بحقائق الطبيعة والنفس البشرية، وذلك ليس كما هي في خضم الحياة، وإنما بعد أن يحيلها الشاعر إلى شكل موحد ذي مغزى أو معنى للشاعر والقارئ على السواء"⁽¹⁾.

وهناك علاقة تربط بين الحس الإغترابي ونشوء الحضارة " تبدأ الحضارة منذ أن يعي الإنسان مكانته في العالم فيتبين الفجوات الفاجعة في وجوده، كالموت والألم والخطيئة، ويدرك في الوقت نفسه أنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتمرد على الواقع ويتدخل في صنع مصيره"⁽²⁾. في هذا المعنى يمكننا تفسير فكرة الرفض والإحتجاج التي تسبق كل بعث حضاري، ويمكننا أيضا الإقترب من فكرة ابن خلدون في أصل نشأة الحضارة، فأوضاع البداوة هي التي تفرز الرفض وتدفع المرء إلى البحث عن حياة أفضل على الرغم من كون العصبية عنده أقوى الحوافز، فهي تتجاوز طبيعتها بالرفض استنادا إلى قول ابن خلدون "الملك إنما يحصل بالتغلب، والتغلب إنما يكون بالعصبية"⁽³⁾.

وقد ربط عبد الرحمان بدوي بين الإحساس بالغربة المأسوية، ودرجة التطور الحضاري

- 1- محمد مصطفى بدوي : كولردج ، "نوابع الفكر العربي "، دار المعارف، مصر، 1957، ص. 75
- 2- صدقي اسماعيل : المؤلفات الكاملة ، المجلد1، مطابع وزارة الثقافة ، دمشق 1977، ص. 196
- 3- ابن خلدون عبد الرحمن : المقدمة ، دار الكتاب، بيروت، ط 2، 1979، الجزء 1، ص 277.

عندما قال : " فمن الملاحظ أن الشعوب البدائية قليلة الشعور بالألم ... تراهم محتفظين دائما تقريبا بنوع من المرح الهادئ حتى إن موقفهم من الموت... موقف مليء بالإبتسام وعدم الإكتراث، والحال على عكس من هذا بالنسبة للمتحضر، فهو سريع التأثر بالتألم، مع أنه أقل تعرضا للأخطار الخارجية من البدائي... هذه الظاهرة تحتاج إلى تفسير... هو إن تحقيق الامكانات ضئيل لدى المتحضر، لذا كان الأول أقل تعرضا للمقاومة، وكان الثاني أكثر، فالألم يزداد بازدياد التحضر"⁽¹⁾.

فكلما ارتقى الإنسان في السلم الحضاري إزدادت مطالبه، وتجاوزت طاقته، فأزداد تألمه وظهرت غربته واشتد اغترابه، والشاعر بإعتباره الأندر والشاردة الذي يعاني هذه الظاهرة بحساسية متفاوتة، يكون إدراكه لها أعمق وأدق نفوذا من الإنسان العادي، لأنه على دراية بالصورة الكلية لدهره، وفي هذا المعنى يقول محمد العيد مخاطبا جبل (بومنقوش) ببسكرة:

رماي حول سفحك موج دهري	أسيـرا بعد أحداث طـوال
فعشت به كيونس في سقام	لدى قومي و لكن في انعزال
أخال إقامتي جبرا كـقبر	حملت إليه كالجثث البـوال ⁽²⁾

وهذه النظرة القائمة التي فرضتها ظروف الأدهر ونوائبه، لم تكن وليدة ظروف حياة الشعراء فحسب، وإنما كانت ظاهرة العصر وسمته المطلقة، وتعبيرا صادقا من الأعماق، عما كان يعانيه الإنسان من غربة وتمزق واضطراب، فكان الشعر، مرآة عاكسة، معبرة عن فواجع الحياة، وتعبيرا عما يقاسيه الوجدان الأخرص من بؤس وقهر وحرمان، لذلك تحولت نغمات الشعر إلى ألحان لمواكب جنائزية مفعمة بالغربة والحصر والإنصهار والضياع.

فلو عدنا إلى شعر العرب، حتى يوم الناس هذا، لتكشف لنا انكسار الإنسان أمام عوادي الدهر وخطوبه، فمثلا يكون الإندثار واضحا على الجسمات المادية بما في ذلك جسم الإنسان، يكون أيضا إندثار الأفكار التي لا تخدم الإرادة الإنسانية فالبقاء يكون لما يقوّي

1 - عبد الرحمن بدوي : الزمان الوجودي، ص 140.

2 - محمد العيد آل خليفة : الديوان، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر 1965، ص 422.

أمل الإنسان إزاء الخطوب وأيضا لما يجعل الإنسان يستقبل المتاعب بالحبور والترحاب يقول يحيى بن زياد :

ولما رأيت الشيب لاح بياضه بمفرق رأسي قلت للشيب مرحبا⁽¹⁾

في هذا المعنى ما يفسر مواضع الزهو والفخر التي تطالعنا كثيرا في المراثي العربية بالرغم من أن الموقف يستدعي للحزن العميق أمام الفاجعة، ففي قصيد أبي ذؤيب الهذلي التي مطلعها :

أمن المنون و ربيها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
والدهر لا يبقى على حدثانه مستشعر حلق الحديد*مقنع⁽²⁾

صور عديدة لما يستهدف الإنسان، وتجسيد حي لعبثية إنتصار الإنسان في هذه الدار الأولى، فقد أكد العبثية من خلال مواطن القوة والفتوة، ثم ما تلاهما من وقع الفاجعة أمام الزمن الذي هو كفيل بتغيير موازين الحياة مهما تراءت أنها في صالح الإنسان.

إن موقف الإنسان العربي من القدر، كما تجسد في الشعر، موقف مجالدة واحتمال، فالإنسان وجد و عليه أن يحمي قداسة هذا الوجود، وأن يتجلد ويعتصم بالصبر على ما ينتابه من مصائب، وأيام العرب ما هي إلا نوع من هذا المطلب، إذ الحرب غدت عندهم من أساسيات الوجود ومقوماته، لا نرى فيها غاية حاسمة للصراع إلا الحرب في حد ذاتها، فالانتصار لا قيمة له أمام استمرار الحرب، و بمجيء الإسلام تغيرت الموازين والمفاهيم وحلت نظرة جديدة للإنسان ومكانته في العالم. قال تعالى : " ولقد كرمنا بني آدم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلا " (سورة الإسراء الآية 70). ومع ذلك بقي الإنسان مثقلا بالفجوات الحزينة، وعلى رأسها (مقدمتها) الموت، ثم التساؤل الإنساني - الذي لا ينقطع - عن الكيفية التي يراه الله عليها، وما هي، أو ما هو المصير الذي ينتظره؟

1- أبو تمام : ديوان الحماسة، مراجعة، محمد عبد المنعم خفاجي، مطبعة صبيح، ج2، 1955، ص 7

*- لباس المقاتل مدحج بالحديد لحماية الجسم في ساحات الوغى.

2- حسين عطوان : الشعراء الصعاليك، في العصر العباسي الأول، دار الطليعة ، بيروت، ط2، ص 102.

من هنا كان منبع الغربة في الحياة الإسلامية فهي كما يقول إسماعيل صدقي " تجربة انتظار تزدحم بأعنف ألوان الشعور بالمسؤولية تجاه القيم الروحية التي تمثل المصير الخلقي للإنسان"⁽¹⁾.

لقد إرتبط الشعر منذ البداية بالدعوة و ركز على التقوى، والجهاد في سبيل الله، ولكن بعد انتشار الإسلام وتوسع أطراف الدولة الإسلامية، بدأت الفواجع تطل على الحياة العربية والإسلامية، ابتداء من موقعة صفين إلى مقتل الحسين بن علي - رضي الله عنهما - . تقول زوجة الوليد⁽²⁾ ترثي أخاها عمرو بن سعيد بجرقة، بعد أن قتله عبد الملك بن مروان وهي بذلك تعلي غربتها التي سببتها الفواجع السياسية.

أيا عين جودي بالدموع على عمرو	عشية أوتينا الخلافة بالقهر
غدرتم بعمر ويا بني خيط باطل*	وكلكم بين البيوت على الغدر
كان بني مروان إذ يقتلونهم	خشاش من الطير اجتمعن على صقر
لحا الله دنيا تعقب الذل أهلها	وتهتك ما بين القرابة من ستر.

وفي العصر العباسي، أسهم الشعر في تعميق تصدع الإنسان العربي أمام الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية، وإن بدت الظواهر الإغترابية في الشعر أكثر وقوعا على الأفراد منها على المجتمع. فإبن الرومي⁽³⁾ عمق فكرة الموت عندما فجع في إبنه الأوسط محمد، يقول :

توخى حمام الموت أوسط صبيتي فالله كيف إختار واسطة العقد
ألح عليه النزف حتى أحاله إلى صفرة الجادي عن حمرة الورد
وظل على الأيدي تساقط نفسه تساقط ذر من نظام بلا عقد

1- إسماعيل صدقي : المؤلفات الكاملة، مج1، ص 230 .

2- عبد البديع صقر : شاعرات العرب (تحقيق) ، منشورات الكتاب الإسلامي، ط 1، 1967، ص 482.

*- بنو خيط باطل : كنية تطلق على الخليفة الأموي مروان بن الحكم، لطوله و إضطرابه...

3- حسين نصار : ابن الرومي (تحقيق) ، الهيئة العامة بمصر ، الجزء 2، 1973، ص 624 وما بعدها

فالموت هو صاحب الكلمة، متى شاء جاء، وهي غربة العُرب، والشعر يسمو لإدراك معناه وما يماثله من قضايا، فقد استطاع أبو العلاء المعري كما يرى صالح حسن البطي أن يتجاوز التخوم التقليدية للشعر العربي إلى التأمل المتأصل في مصير الكون و في هموم الإنسان الفكرية والروحية وعلاقته الملغزة بذاته وبالآخرين و بالحياة والموت وما بعد الموت⁽¹⁾.

وإذا عرف أبو العلاء المعري⁽²⁾ بالتشاؤم والغربة، ومقته الدنيا، فليس معنى ذلك نفوره من الحياة، بل التشبث بها فهو القائل :

تخالفنا الدنيا على السخط و الرضا	فإن أوشك الإنسان قالت له مهلا
هي السماء أنى بعلمي وردته	لقلت لنفسي كان مورده جـهلا
فما رثمت* طفلا و لا أكرمت فتى	ولا رحمت شيخا ولا وقرت كـهلا

ومع أن الظروف النفسية والاجتماعية التي عاشها أبو العلاء لها دخل كبير في إفراز فكره وفنه بهذه الصورة، فإن آراءه كانت أعمق و أصدق تعبيراً عن الحياة العربية في عصره.

وبعد هذه الفترة كان عصر الانحطاط الذي اتسم بروح القدرية والإستسلام للمعجزة، والخرافة، وبالتالي القلق على الحياة، والسلطة، والمستقبل، وبقي الوضع على حاله حتى جاء عصر النهضة الذي أيقظ الإنسان العربي من سباته على مصيره الجهول وأوضاعه المأساوية، فكان ارتباط ظاهرة الغربة أو الإغتراب بالمذهب الأدبي الرومانسي، ثم المذهب الأدبي الواقعي.

إن محاولة إعطاء تعريف شاف محدد لظاهرة الغربة في الشعر، أمر لا يخلو من صعوبة فالتعريف في هذا المجال يبقى ناقصا، واجتهادا نسبيا، ومع ذلك يبدو من استقصاء النصوص الشعرية والنثرية في هذا الميدان، والإقتراب من مفهومها واعتباره وعي الشاعر في صراعه مع الحياة و عجزه عن امتلاك مصيره كلما اهتزت القيم أمامه، مع التعبير عن هذا الوعي بلغة شاعرية، في صورها وموسيقاها.

1 - صالح حسن البطي : الفكر والفن في شعر أبي العلاء، دار المعارف، مصر، 1981، ص 57 .

2 - عبد العزيز الخانجي : أبو العلاء المعري (تحقيق) ، القاهرة، الجزء 2، ب ت ، ص 199

* - رثمت : من الرأم، يعني الحنان والعطف..

فما أن ينتصر الحزن على السرور، ويتحول الهناء إلى كدر - في دنيا الشعر - حتى تبدأ خيوط الغربة في نسج عباؤها، وغالبا ما تكون هذه الخيوط نابعة من علاقة الشاعر بعوالمه الباطنية، وبالظواهر الاجتماعية، والحياة، فظاهرة الغربة تنشأ عند التأزم النفسي، وفي الإحساس والشعور بالألم والاضطراب، وعدم التوافق مع محيط الحياة بصفة عامة. وهذا ما يعرفه بالخواء الصهري Phobie والغربة aliénation ومع أن هذه المواضيع " ليست بريئة " على حد قول رولان بارت⁽¹⁾ Roland Barthes أيتحمل الكثير من ذاتية الشاعر ، فإن الشاعر يعطيها أبعادا اجتماعية ، ووطنية، وقومية، وإنسانية، ولا يمكن أن تكون ظاهرة إلا في هذه العمومية والشمولية.

فظاهرة الغربة في الشعر تكون بمضمونها بكاء على الإنسان وقيمه، وتكون بشكلها تعبيراً عن السقوط بالصورة وباللغة وبالموسيقى، فبنيتها العامة تحددها الأسرة اللغوية التي تبدو في كثرة الترادف، والقراءة المعنوية، والاشتقاق، فيها يتحدد إطارها العام الذي تتفاعل فيه موضوعاتها الجزئية.

فالموضوع الرئيسي يستمد قوته أساسا من الموضوعات الجزئية وتكاتفها مع بعضها البعض، فإذا وجد - مثلا - الألم في ظاهرة الحب، وكذلك في الطبيعة، وفي ظاهرة الغربة، وفي قضايا المجتمع والإنسان لدى شاعر معين، فإن دراسة هذا الموضوع - الذي هو الألم - تتحدد من شبكة العلاقات بين موضوعاته التي تجمعها خاصية الألم، فالأعمال الشعرية أبنية متفاعلة يتحقق فيها ربط الموضوعات، والمراحل الإبداعية، وذلك قصد الوصول إلى الجذر العميق لعمل الشعر ككل.

وأحسب أن هذا الجذر في شعر مفدي زكريا هو شعور الغربة الذي بدت صورته في علاقة الشاعر بالوطن والغربة، وفي أبعاد هذه الموضوعات الاجتماعية، والقومية والإنسانية، فالشعر مظهر رمزي يطرح قضايا الإنسان في كل أبعادها، وكلما غاص في مكنونها كلما زادت قوته وفهمه وأكد صدق نيته ووضوح رؤيته للمجتمع والكون .

ROLAND BARTHES (LE DEGRE ZERO DE L'ECRITURE); COLL POINT; -1
PARIS; -1970; P 16

تمهيد:

ولدت الرومانسية العربية بين أحضان إبداعات جبران خليل جبران، وتداعيات خليل مطران و جماعة المهجر، وأصحاب الديوان، وقد أسهم في ظهور الرومانسية ونشأتها الأولى بواعث عديدة، في مقدمتها، الإحتكاك بالتراث والثقافة الغربية والاطلاع على كنوز آدابها، عن طريق البعثات العلمية، والترجمة والصحافة، بالإضافة إلى الوضع العربي آنذاك، الباعث على الخيبة ولتحرر. لقد وجد الشاعر العربي نفسه غريباً على عصره وتراثه، كغريبته عن الثقافة الأوروبية، فحاول اللحاق بركب عصره، والعمل للاستفادة من التراث الإقليمي، غير أن مسعاه، واجهته رياح العصر الهوجاء التي كانت أقوى منه، ذلك أن روح العصر كما ترى اليزابيث درو " تؤثر فينا لاشعوريا مهما نتشدد باستقلالنا، أو نحاول جاهدين أن نحقق ذلك الإستقلال لأن لون الثقافة، ومبلغ وعينا، يدفعاننا دائما إلى اتخاذ بعض المقاييس الفنية، وطرح بعضها... وفي كل عصر، كل إنسان يحب أشياء و يكره أشياء".⁽¹⁾

وكان الشيء المرغوب فيه، لدى الجيل الرومانسي وهو الغربة والكآبة والتمرد، والحياة عندهم نغمة للبؤس والشقاء والقسوة والصهر **obsession**، والحصر **frustration**، (الإحباط)، فهم يستعذبون الألم ويتغنون به، و يلزم ذواقم التي يعتبرونها مصدر كل شئ حتى المعرفة عندهم "صدور من الذات النشطة الفعالة نحو الموضوع..الموضوع يغير الذات لا شيء ووجوده يتوقف على إدراكه، و كما أن الخروج من النفس لرؤية ما يقع في الخارج محال".⁽²⁾

وفق هذا النهج ما يقودنا إلى فهم الأدب الرومانسي كما أراده فيكتور هيجو **Victor hugo** باعتباره دعوة الى إلهة الشعر التي "تستولى علينا وتقودنا باكية على ما في لإنسانية من بؤس وشقاء، منطلقة كإعصار من الشرر، وبما لها من آلاف العيون..تأخذ

1- اليزابيث درو: الشعر، (كيف نفهمه وتذوقه)، ترجمة محمد إبراهيم الشوش، مطبعة عيناوي الجديدة، بيروت 1961، ص.10

2- نعيم اليافي: الشعر العربي الحديث، وزارة الثقافة، دمشق، 1981، ص.136.

الحرية..فتجعلها تنفذ في كل انسان من جميع مسامه".⁽¹⁾

إن تيار الرومانسية، يمثل عالماً من المعاناة الحادة، شديدة الإحساس بالأنماط المساوية الإنسانية، فيها تتجسد معالم تكاتف الثورة والحرية والبراءة من أجل التعبير عن كينونة الحي ووجود الإنسان فوق البسيط برمته، إنها تدفع الإنسان للبحث عن أسرار وخبايا الحياة كما تشكل لديه رؤية للعالم لها قواعدها وخصوصياتها و تفردتها، "إنها صور وإيقاعات ومفردات شاعر ما تستمد دلالاتها من كلية معينة هي رؤيته".⁽²⁾ في هذه الدائرة كانت ترتع رؤية الشاعر العربي الحديث حيث وجد في الرومانسية التعبير الأمثل عن صراع الإنسان وهو محاط بقوى تفوق طاقته وتوقع به في محالب الإحساس والعجز والغربة والضياع. فالذات الرومانسية لصيقة بالحس الإغترابي المساوي، تطغى عليها الفردية فتحول بينها وبين المجتمع، وهذا ما أفرز ظاهرة الإنطواء والغربة والشعور بالإحباط وخيبة الأمل على الرغم من مساندتها وتعاطفها في أفكارها وخواطرها مع ضحايا المجتمع، فالذات عندهم "لا تعني دائماً الانسحاب من التجربة الخارجية إلى التجربة الداخلية وحدها. ولكنها تعني في أحيان كثيرة وصف الإنطباعات والمشاهد التي تنعكس عما تراه في المجتمع"⁽³⁾

ومن هنا كان ارتباطهم بالمشاكل الاجتماعية وبكل ما يعجز في مجتمعهم، فالجتماع هو المسؤول بدرجة متفاوتة عن ظهور هذا الاتجاه، وهذا ما ذهب إليه أحمد هيكل عندما قال: "وكانت الملكية الباغية والإستعمار الطاغوي، والإقطاع المستغل، أهم أطراف هذا التآمر الذي وصل ذروته في عهد إسماعيل صدقي باشا سنة 1930. وإلى هذا العامل يرد ما كان من ضيق طائفة الشباب الشاعر الحساس، بالحياة وتبرمه بالعيش، وشعوره بخيبة الأمل، فقد دفعته تلك الظروف الأخيرة إلى أن ينطوي ويهرب ويبحث عن العزاء في الحب حيناً وفي رحاب الطبيعة حيناً آخر، كما أغرته بأن يتشبث بالأحلام، ويتقلب بالخيالات ويهيم بالرؤى ليلوذ بعالم أكثر شفافية وأعظم رحابة وأفسح صدرًا".⁽⁴⁾

1- محمد غنيم هلال : الرومانتيكية، دار العودة، بيروت، 1986، ص 26

2- محمد الأسعد : إشكاليات التجربة الشعرية، مجلة الفكر المعاصر، بيروت، عدد أوت، 1981، ص 33

3- نفيسة داخلي عبد الرزاق : الحزن في الشعر السوداني، جامعة الإسكندرية، مصر، 1989، ص 69..

4- أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، مصر، 1968، ص337.

وإلى جانب هذه الإنفعالات والدوافع كانت الثقافة الأوروبية المترجمة متسمة بعلاقة معقدة متأزمة بين الإنسان وعصره مما زاد الطين بلة والموقف عمقا وإحساسا، لقد كان الحس الإغترابي في حالاته الفردية شاردا قلما يظهر في المجتمع، أما هذا العصر، فهو يعج شظايا متناثرة بالصراعات، والتناقض والقلق والفوضى، وسكنه الخوف من الحاضر، وأصابه الحصر الحاد والمركب من المستقبل، إنه عصر يوحى - من خلال ظواهره العجيبة - للشعراء - خاصة - بغربتهم في هذا العالم، فثمة "هوة سحيقة تفصل بين ما يحياه الناس في الواقع من تجارب الغربة والتمزق والفواجع، وبين ما يترأى للفكر من تصورات شتى في قضايا هذا الواقع ..وهي المعضلة الأساسية التي تجثم دائما وراء جميع المشاكل في جميع الميادين"⁽¹⁾ لقد أصبح الانسان العربي يسلك سبيلا قائما دون تطور أو حرية تبيح له حق الإختيار، فهو من الغرب إلى بلاد الرافدين يتلذذ مرارة الغربة ويستعذ بها، ويحاول من خلا لها أن يكتشف الدلالات والعلاقات التي تحدده وتحرره. وفي انتظار حرياته وغده يبقى النحيب بالدم القاني، والانطواء المستيري، والحسرة المقيتة، موضوعات تتجسد في الثورة والغربة والحب والحياة كما يدركها أبو القاسم الشابي* في مقدمة قصيدته إلى الله مشخصاً جزءاً من هذه المعاناة المشحونة بغربة الغرب " تعرض لقلب الإنسان الذي لا تنتهي أطواره أزومات نفسية تائرة يعصف بها الألم والقنوط.. فيشعر المرء كأنما انبت ما بينه و بين الكائنات من وشائج الرحم والقربة فاصبح غريبا في هذه الدنيا الغريبة في نفسه "⁽²⁾

ولو اطلعنا على عناوين دواوين بعض شعراء هذه الفترة، لوجدنا في عناوينها ما ينبؤنا للوهلة الأولى عن هذه المأساة الإغترابية. فلأحمد زكي أبي شادي فوق العباب، والشعلة، ولعلي محمود طه، الملاح التائه، ولحمد الأخضر عبد القادر السائحى " بكاء بلا دموع " ولحسن كامل الصيرفي، " الألحان الضائعة "، و " دموع وأزهار "، ولحمد أبو القاسم خمّار، " ربيعي الجريح "،

1- صديقي إسماعيل : المولفات الكاملة، المجلد 1، ص261.

* أبو القاسم الشابي : من الجنوب التونسي (1909 - 1934) حفظ القرآن الكريم وهو صغير لم يتجاوز التاسعة من عمره، من أب كان قاضيا شرعيا، إلتحق بالجامع الزيتونة وهو في الثانية عشر من عمره، ونال منه الشهاد النهائية في سنة 1928، وفي تلك الفترة قرأ كثيرا لشعراء المهجر وأدباء مصر الجدد، كما إطلع على كنوز الأدب العربي القديم.

2- أبو القاسم الشابي : المقدمة، الأعمال الكاملة، الدار التونسية للنشر، 1975، ص 261

أولاً : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الرومانسي العربي الحديث

" ظلال وأصداء "، ولإبراهيم ناجي، " وراء الغمام "، ولحمود أبي الوفاء، " الأنفاس المحترقة.. "، وعلى هذا الزفير الحارق، كانت معظم الدواوين إستجابة للعواطف والنفوس المتهبة يقول أحمد سحنون متسائلاً عن ظهور المتناقضات في دهره.

يسر و يوم بالشقاوة يقدم	يقولون إن الدهر يومان واحد
سرورا ولكن عشته أتم	وقد عشت دهري كله لم أذق به
وكل ثواني العمر صاب وعلقم. (1)	ومن أين لي يوم أرى فيه راحتي

فالرومانسية في الشعر العربي لا تتجاوز في أغلب الأحيان بكاء الذات وصدى الأعماق وشكواها، وثورتها البركانية الصاخطة لهدم ودك أسس العادات والتقاليد، ولإعلاء متع الشهوات والأهواء، وفي كثير من الأحيان تتجاوزها إلى العمل على التغير الواقع والثورة عليه، فاهتمامهم بالمشكلات الاجتماعية والسياسية كما يقول محمود الربيعي " لم يكن مسألة ثانوية، كما أنه لم يكن مسألة صدفة، ولكن كان جزءاً أساسياً من التجربة الشعورية لديهم، تلك التجربة التي صنعت شعرهم ووحدت خصائصه، والروح العامة التي تسري فيه، فظهر هذا الشعر في صورة احتجاج عاطفي على فساد الحياة من حولهم، ودعوة مريحة إيجابية إلى قيم اجتماعية وسياسية بديلة لقيم العصر الاجتماعية والسياسية وذلك في أشد الحالات دلالة على إعتزال الحياة " (2) إذن، مجال الأدب الرومانسي، وبخاصة الشعر، هو الذاتية في علاقتها بالفرد والمجتمع و الوجود، وتتحدد هذه العلاقة بموضوعات رئيسية تستقطب، اهتمام الشعراء، ويكون لها أكبر الأثر والإستجابة في حياتهم وفي تلوين وتشكيل تجاربهم ومعاناتهم الإغترابية، مع إعطائها أبعاداً إنسانية و فنية. هذه الموضوعات هي الحب - الطبيعة - الغربة. وسنلقى الضوء على هذه الموضوعات بالقدر الذي يخدم ظاهرة الغربة في الشعر الرومانسي و يرصد، ويوضح مداها وأبعادها.

أولاً : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الرومانسي العربي الحديث

1- أحمد سحنون : ديوان أحمد سحنون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1977، ص 194

2- محمود الربيعي : في نقد الشعر، دار المعارف، مصر، طبعة 2، 1975، ص 99.

أ - ظاهرة الحب:

إرتبط موضوع الحب كظاهرة عند الإنسان، بالآداب منذ ظهور نشأتها الأولى، وتعددت صوره وأشكاله ومضامينه، بحسب الظروف والسمات الخاصة بكل إقليم اجتماعي، وكانت أكبر قفزة حققها حينما إعتبره الرومانسيون فضيلة من الفضائل، على العكس وخلافاً للكلاسيكيين الذين إعتبروه هوى من الأهواء الزائفة الحصرية، ففي ظاهرة الحب "يجسد الشاعر هويته الذاتية في التنوع، ويجد الإنفعال في الإتصال والمتعة في الألم، والموت في الحياة.. كما يجد.. جدلية الواقع الراهن المستحيل.. وجدلية المستقبل الممكنة.. التي يقابل فيها الإنسان و الزمان". (1)

فهو من الوسائل الأنجع في تصفية وتطهير النفوس من الأدران الخبيثة، وهدايتها إلى أداء مهامها النبيلة وإظهار واجباتها، ومن الطبيعي السوى، والبديهي المنطقي أن يكون للشعراء العرب قصص في الحب و تجارب عديدة. بيد أن هؤلاء الشعراء الرومانسيون اتسمت تجاربهم بالإخفاق والخيبة والحيرة، وتحولت معظمها إلى صورة واحدة تختلف في شكلها وتتحد في معناها، إنها كما يقول أبو القاسم الشابي : عبارة عن، "عناق الذات والألم. وصلوات في هيكل الحب، و كما يقول أبو شبكة: الموت في الحب على الهوى وتلاق. وكما يقول أيضا إبراهيم الناجي عبادة وأسى وأطلال وذكرى محرقة، وحنين إلى المرأة لا إمراة بعينها". (2)

والذي يهمننا في هذه الظواهر والتجارب هو صور الإحباط والاختفاق التي تناولها وعبر عنها الشعراء الرومانسيون، فحددت أطر ومناخ وملامح تجاربهم الإغترابية. لقد عرف خليل مطران (1872-1939)، وهو من أعمدة رواد الرومانسية العربية الأوائل، ظاهرة الحب، وأنشد في ديوانه قصائد الحب والعشق و الهيام. ورقصت جوارحه إنسجاما مع الكون الذي نفت فيه السعادة، غير أن هذه الفرحة اللحظية في عمر الزمان، سرعان ما أصابها الداء، إذ حام حول حِمَاهَا، حمام الفناء والموت، فأجثت المحبوبة من حيزها، فتحول البلبل الصداح المغرد النشوان،

أولاً : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الرومانسي العربي الحديث

- 1- ميشال سليمان : السمو في الشعر بوصفه مقولة جمالية، مجلة الفكر المعاصر، عدد أوت، 1981، ص26.
 - 2- ناجي نجيب : كتاب الأحران، دار التنوير، بيروت، طبعة 1، 1983، ص 143.
- إلى يوم أبتري يكي المدارس ويحث الطلول، وكذلك تحول الشعر إلى لون ثوب جنائزي، وأصيب الجسم بالسقم والضمور، فتمنى الزوال كالضرب الأصيل – ومرافقة الحبيب إلى عالمه العجيب.

من بالمنون لواله صب	ذاكي الأضالع مغلق الجنب
ليت الرزينة فيك أودت بي	فنجوت من ألي و كري. (1)

ووقع في نفس غياهب الشراك أبو قاسم الشابي (1909-1936)، فقد تزوج وفقاً للأعراف وتقاليد الأسر التونسية المتواضعة الفقيرة، وأنجب أولاداً، لكنه كان على علاقة عاطفية بفتاة أخرى - كما يقال - : العين ما تنظر والقلب ما يهوى - فظل دهره القليل يتغنى بها، وينشد فيها القصيد تلو القصيد، وعندما إختطفها من ناظريه المنون، ذوت محاجره، وجفت شفاهه، وتحولت رياض ربيع الزاهي، وتحولت معها الحياة لديه إلى ضرب من الغمام والقمامة، والغربة يقول:

بالمنايا تغتال اشهى أمانينا و تذوي محجري و شفاهي
فاذا من أحب حفنة ترب تافه من ترائب و جباه
واذا فتنة الحياة و سحر الكون ضرب من الغمام الزاهي. (2)

أما: أبو شبكة (1904 - 1948) فلم تسعفه حبال شباكه، أمام هول الحب وجحافله، فقد عاش العمر كله في عذاب نفسي متواصل، يندب غلواءه، و يسقي شعره بالدم القاني يقول:

إجرح القلب واسق شعرك منه فدم القلب حمرة الأقلام
مصدر الصدق في الشعور هو القلب بـ وفي القلب مهبط الإلهام. (3)

وقد رأى له صور في لهيب الشمعة التي كانت تقاسمه السهر، لهيب الحب المشتعل في قلبه

حزنا على حبيبته غلواء.

- 1- خليل مطران : ديوان (حكاية عاشقين)، الجزء 1، دار الطليعة، بيروت، ب ت، ص 182.
- 2- أبو القاسم الشابي : الديوان، الأعمال الشعرية، ص 242.
- 3- إلياس أبو شبكة : المجموعة الكاملة في الشعر، دار الطليعة، بيروت، 1979، ص 383.

في دمعك الشاحب نور يذوب
ماذا تقولين به للقلوب؟
لم يغمر الشعلة هذا الشحوب
أينتهى الحب كما تنتهين
يا شمعي، يا مثل عاشقين
لذاته تاتي وتمضي سراع
شم تلاشي نفس الشمعة
مثل تلاشي الروح في الميت. (1)

وبرزت ظاهرة الحب الجياشة بشدة، عند إبراهيم ناجي (1898-1953)، فجاءت من أقوى الظواهر حدة، وأعمقها تجربة وغربة، إنه ضاع في دهاليز الحب وعوالمه وهام في أحلام الوجد ينشد السعادة مع محبوبته الشاردة التي لم تنصفه، ولم تعطه القدر الكافي الذي أعطاه أياها

يقول : هل رأى الحب سكارى مثلنا كم بنينا من خيال حولنا
و مشينا في طريق مقمر تثب الفرحة فيه قبلنا
و تطلعننا إلى أنجمه فتهاوين و اصبحن لنا
و ضحكنا ضحك طفلين معا و عدونا فسبقنا ظلنا. (2)

ظاهرة الحب شبعة ناطقة على الزمان، هــ شبعة مسطحة على الجد، ان الـ جد، هـ فصلاً
أولاً : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الرومانسي العربي الحديث

من السعداء. لقد أبرز الحب في أبيات إبراهيم ناجي، ظاهرة الصورة المثلى التي يجب أن يكون عليها، وهذا هو المرمى الأساسي عند الشعراء، أن يتحول الحب إلى "اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة. في هذه الخليقة في أصل عنصرها الرفيع". (3)

- 1- إلياس أبو شبكة : المجموعة الكاملة في الشعر، دار الطليعة، بيروت، 1979، ص ص 41-42.
- 2- إبراهيم ناجي : ديوان، الأعمال الكاملة "وراء الغمام"، صيدا، بيروت، 1979، ص 181.
- 3- ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة، تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1985، ص 21.

وهو إتحاد الأرواح وتعانقها، عناق الحب لمن ينتظر، وأيضا اتحاد المحبوبة والحبيب، بيد أن هذه الصور لم تتحقق لابراهيم ناجي فغدت حياته سرايا، والكون في نظره أطلالا، يحب أن يبيد كل ما يذكره بهذه الحبيبة، حتى الرسائل التي أصبحت منبهات مؤلمة، يحب أن تحرق قلبه و ما حواه في ضرامها.

عادت إليّ الذكريات	بحشدها و زحامها
في ليلة ليلاء أّرّ	قني عصيب ظلامها
أشعلت فيها النار تر	عى في عزيز حطامها
تغتنال قصة حبنا	من بدئها لختامها
أحرقتها و رميت قلـ	بي في صميم ضرامها
و بكى الرماد الآدمي	على رماد غرامها. (1)

ومن هذه الزفرات والأنغام المحرقة الحزينة، غنت بحدة ظاهرة الحب في الشعر الرومانسي، وكانت العناصر الأساسية في إبراز وظهور الصورة الإغترابية، لما صاحبها من إخفاق وفتور وإنكسار.

ب - الظاهرة الطبيعية :

كانت الظاهرة الطبيعية ولا تزال الوحي الدائم، ومنبعا من منابع الإلهام الأبدي لدى الشعراء في كل الأزمنة وكل العصور، وقد تأكدت مكانتها العظيمة عند الرومانسيين، عندما لونوها بعوالمهم الباطنية النفسية، وما حوته هذه من أمزجتهم المتباينة، فأضحت مرتعا خصبا للعزاء والسلوى من الصدمات الفجائية والإحباطات المتكررة، التي تلازمهم ويصادفونها دوما في واقعهم الاجتماعي، إنهم ييثونها يقول أحدهم مخاطبا إياها : " أيتها العناصر الكونية يا من في صوتها القدسي وبين أحضانها أشعر بنشوة الإلهام، أستطيعين أن تهبيني.. في الغابة العذراء متعة، وفي الضفاف

1- ابراهيم ناجي : الأعمال الكاملة، "وراء الغمام"، ص 326.

أولاً : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الرومانسي العربي الحديث

المنعزلة جذبة سحر، فهنا أنس حيث لا دخيل من الناس بجانب البحار العميقة، وموسيقى أمواجه، ليس حي للإنسان قليلاً، ولكن حي للطبيعة أكثر".⁽¹⁾ ومن هنا كانت دعوتهم إلى الطبيعة وإحترار الذكريات و إبرازها، و معانقة الأحلام.

ظمأت إليك يا وطني لأني	غريب في جبالك و الروابي
غريب في بحارك و الفيافي	غريب في سهولك والهضاب
وأرضك جنة حبلى بدنيا	من الكرم العزيز المستطاب
وبالأشجار و الشم الرواسي	و بالنخل المغيب في السراب
فتهوي بالسيول على الفيافي	و تسكرها بألحان عذاب. ⁽²⁾

وكان في غربة الشابي وفراره إلى الطبيعة، أن يسكن إلى الذكريات ويعيد إلى عوالمه الخزينة الأيام الخوالي، حيث الطفولة المرحية النشوانة، ومراتع ومرايع الصبي والحياة البريئة.

أيام كانت للحياة	حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل	وسحر شاطئه المنير
ووداعة العصفور	بين جدول الماء النмир
أيام لم نعرف من الدنيا	سوى مرح السرور. ⁽³⁾

فما رآه وأحس به الرومانسيون في ظاهرة الطبيعة، هو الوجه الآخر الذي افتقدوه في حياتهم، ومن هنا كان تصويرهم للحقائق الطبيعية وللمناظر الفطرية فيها التي تتفق، واضطراباتهم وحالاتهم النفسية التي يغلب التوتر والعصاب والإحساس الحاد بالغربة والفناء عليها، فهم يأخذون من الفصول الأربعة مثلاً، فصل الخريف يشي بذبول الحياة، وفصل الشتاء يرمي أو يرمز إلى الفناء

1

- محمد غنيمي هلال : الرومانتيكية، ص 171.

2- عبد الله شريط : ديوان الرماد ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1969، ص ص 53-54.

3- أبو القاسم الشابي : الأعمال الشعرية، ص 249 .

والزوال، كما أنهم يتغنون في وصف الغروب الذي يأذن بإقتراب الفناء، وكذلك حلول الليل حيث السكون و الخلوة، وصعود الذكريات و تدفقها على الأنا في حيرة وحزن. وقف خليل مطران وقت الغروب، وكأنه يودع أشعة النهار الذائبة في أعمدة المساء القادحة، وكله حسرة وألم على فراق حبيبته، فالغروب جزء من لحظات الوداع المميت.

والقلب بين مهابة و رجاء	ولقد ذكرتك والنهار مودع
كلمى كدامية السحاب إزائى	وخواطري تبدو تجاه نواظري
بسنى الشعاع الغارب المترائي	والدمع من جفني يسيل مشعشعا
فوق العقيق على ذرى سوداء. ⁽¹⁾	والشمس في شفق يسيل نضارة

أما أحمد زكي أبي شادي، فقد تشخص له الغروب، و برز باكيا، وتمثلت الأرض ملتاعة من شدة الفراق، فأنسابت نفسه الثكلى دموعا مع تباريح الغربة وآثار الحرمان يقول:

هذا هو الشفق الباكي بحرقتة	و هذه السحب فيها الدمع نيران
بانت عن الشمس فارتاعت لفرقتها	كما يراع لدفن الحسن هيمان
الأرض تشجي التياعا للفرق	و إن كان الصباح بوصل منه تزدان
فكيف لي و أنا المحروم من زمنى	و كل عمري تباريح و حدثان. ⁽²⁾

وقد رأى محمد الأخضر السائحي، عندما أرجع النظر إلى نفسه يتفحصها، و يبحث عن ماهيتها، داخل هذه الظواهر الطبيعية، فإذا هو لاشيء بل هو حائر وحياته التي مضت ما هي إلاّ قشور، وإخفاقات متتالية، وأحلام تلاشت ذراتها خيوط الظلام.

أنا لا شيء...وجود فارغ كالليل مظلم

1- خليل مطران : الديوان، "قصيدة المساء"، ص 12.

2- أحمد زكي أبي شادي : الديوان، (الشفق الباكي) المطبعة السلفية، مصر، 1926، ص ص 642-644.

أنا لفظ دون معنى	نشيد لم ينظم
.... أنا لاشيء نسي الحا	سبب في التقسيم نصفه
فهو في الأرض غريب	ضائع يرقب حتفه
أنا شيء حائر كالوهم	لا أعرف وصفه
فحياتي التي مضت لم تكن	إلا قشورا رميتها في الظلام
... أنا أحببت و لكن لم	أنل في الحب "حبه"
وعرفت الصدق لكن	قد وجدت الصدق كذبه
كنت إنسانا و لكن	ضاع مني منذ حقبة. (1)

فلم يكن حظ الشاعر أحسن و أفضل من غيره، من الرومانسيين، فما نال من حياته إلا الغربة و العذاب و اليأس، لذلك فهو وهمٌ يطلب الموت لكي يستريح.

جلست على الصخر الوحيد وحيدا	و أرسلت طرفي في الفضاء شريدا
وكفكت دمعاً لا يكفكف غربة	و واسيت قلباً في الضلوع عميدا
أرى صفحة الآمال قد ضاقت أفقها	ولاح لي اليأس البعيد مديدا
لقد عشت في دنيا الخيال معذباً	فياليت شعري هل أموت سعيداً (2)

إن ما اشتقه الرومانسيون من الظاهرة الطبيعية، هو ما يناسب حالات الإضطراب النفسي من غربة و حزن و شقاء، وإحساس عميق بمصير الإنسان المترامي وهذا ما عمق ظاهرة الغربة عندهم، و جعلها منشورة في معظم أشعارهم.

1- محمد الأخضر السانحي: الديوان، "همسات ومصرحات"، المطبوعات الوطنية، الجزائر، 1965، ص. 47.

2- المصدر نفسه: ص 118-119.

ج- ظاهرة الغربة:

دنيا الغربة من الموضوعات التي تغدي الشعر الرومانسي، وتؤكد طابعه المميز، وتزيده عمقا وتأكيذا في ميادين الغربة، من خلاله ندرك عمق الظروف، ودرجة الإحساس الشفّي عند الشاعر، فهوالبوابة الحقيقية التي تفتح واسعة على عالم المغترين والمنبوذين، والمتشردين. ففي اضطراب وحكم الذات الشاعرة وانكسارها وانطوائها وعزلتها، تكمن قضايا الواقع المخطم وأزماته، ومن خلال مرآة الشعر العاكسة، ندرك حياة الطبقات العريضة، كما نقف عند القيم الإنسانية المتكسرة والمبعثرة على جنبات الأرصفة المهمشة، غداء هذا الشعر المفصل، الذي هو التسلط والقمع والظلم، وسكون وصمت الحياة المتعفنة، وهذا ما يفضى إلى الوحدة والضياح والتعب الروحي والإنهاك الجسدي. ومع الإيمان بأن أول غربة إغتربها الإنسان هي وجوده المرغم على هذه الأرض، فإن الشاعر استفسر دوما عن سر الجفاء الذي يلاقيه والبلاء المصاحب له باستمرار. أكلاهما تكفير عن الخطيئة التي تسببت فيها الثمرة الملعونة - حسب التفكير المسيحي - أم إمتحان الله للإنسان؟ كما يرى صالح الشرنوبي :

أفاحة سرّ هذا الشقاء و من أجلها كل هذا البلاء.⁽¹⁾

فالشاعر يعيش في اضطراب وأزمة، وعليه أن يجد طريقه جادته، ويكتشف السبيل الموصل إلى بر الأمان ذلك أن عمره " إبتعاد وإغتراب متواصل، لكنه مسافر ينأى دائما على الهضبة الأخيرة المطلة على وادي قريته، حيث يستدير، يلتفت إلى الوراء بحنين، ويتوقف قليلا يشبع نظره في مسقط رأسه، قبل أن تحمله رياح السفر و يقلع مركبه إلى ما وراء الأفق"⁽²⁾

ولا تقتصر هذه النظرة على إرتباط الإنسان بمكان ما، بل تتجاوز ذلك إلى الأفكار، والمعتقدات والثقافات التي يتزود بها الانسان، أي كل ما يشبع الظمأ المعرفي، كما يرى عبد الوهاب البياتي " لم أتوقف عند كتاب معين أو نوع من الثقافة كان كل كتاب هو بعينه المدينة التي لا

1- صالح الشرنوبي : الديوان، جمع وتقديم علي أحمد باكثير، ص.26

2- سمير الحاج شاهين : اللحظة الأدبية، مجلة المعرفة، 1981، ص ص 234-235.

أقصدها، كانت هناك محطات صغيرة، اعتقدت أن وراءها بارقا من الأمل، ثم اكتشفتها سراباً لا يروي الظمأ، وهكذا كنت ولا أزال مسافراً بلا عودة تتجدد أفكاري على الدوام".⁽¹⁾

لقد أصبح الشعور بالغربة، وبالتالي الانفصال عن الخالق، والطبيعة، والمجتمع الحاد، شعوراً بالعجز في تحقيق الأمان، والطمأنينة للذات الإنسانية، وبالأخص الشعراء، وهذا ما دعا بعض الباحثين من فلاسفة ومفكرين إلى إضافة "مصطلح الإغتراب إلى غيره من المصطلحات الحديثة باعتباره من السمات التي تميز العصر الحاضر".⁽²⁾

وقد كان الشعر ولا يزال يصور ظاهرة الغربة بأبعادها الزمانية والمكانية، فيها بحث مستمر عن رغبات الإنسان عبر قنوات معبدة بأشواك الحيرة والقلق والضيق والخوف، وفي شعرنا العربي كان شعراء المهجر أكثر إهتماماً بظاهرة الغربة، وتكاد السمة البارزة والخيط الشمو لي الذي يسري في أشعارهم ويربط موضوعاتهم، فشاعر المهجر يبحث عن "أمنه الذاتي في الطبيعة، في الحب، في الإقبال على الحياة، في النكوص عنها، في البكاء على غربته، في إكتشاف ذاته وطاقته النفسية، في الثورة على المستعمر... في خدمة المجتمع والتعاون مع الناس.. في كل جوانب شعر المهجر كان الشاعر دائماً يبحث عن مرفأ أمين بعد أن انتزعت أمواج البحر من موطنه الصغير الذي كان يجد فيه القيم المتوارثة".⁽³⁾ ولا يعني هذا تفرد شعراء المهجر بهذه الخاصية ذلك أن التعبير عن المعاناة مهما كانت طبيعتها تحتاج أولاً إلى إحساس الشاعر بالموقف وإلى إمتلاك ناصية التعبير، فقد عبر صالح الشرنوبلي عن غربته الذاتية وحقق الكثير من خصائص التجربة الشعرية، ولو طال به الزمن لكان له باع في هذا الاتجاه لنستمع لما يقول:

فوق هذى الربا تتخذت مقامي ومعي حانتي وخمري وجامي*
حانتي عالم الخواطر في نفوس ي ودنيا الأمل والآلام

- 1- عبد الوهاب البياتي : السديوان، المجلد 1، دار العودة، بيروت، 1972، ص 13.
 - 2- محمود رجب : الإغتراب، منشأة المعارف، اسكندرية، 1978، الجزء 1، ص 8
 - 3- أنيس داود : التجديد في أدب المهجر، دار الكتاب العربي، مصر 1967، ص 184.
- * - الحجام : إناء فضة، يقصد به الكأس.

حانتي عالم الخواطر في نفسـ	ي ودنيا الآمال والآلام
خمرتي ما يراق من ذوب وجددا	ن وكأسي مواكب الأيام
قذفتني الغيوب بالرغم مني	في عياب من الحوادث طام
هو بحر الحياة..سطح وأعما	ق وغرقي آمالهم في حطام ⁽¹⁾

ويعلن أبو قاسم الشابي شكواه، و تبرمه ممن لا يفهمون صدى نفسه، ولا يقدرّون معاني
بؤسه و شدة غربته، فهو كالتائه في ظلام العدم :

يا صميم الحياة كم أنا في الحياة غريب	أشقى بغربة نفسي
بين قوم لا يفهمون أناشيد فؤا	دي ولا معاني بؤسي
في وجود مكبل بقيود	تائه في ظلام شكّ ونحس
فاحتضني و ضمنى لك كالمـ	ضي فهذا الوجود علة يأسـ
لم أجد في الوجود إلا شقاء	سرمديا ولذة مضمحلّة ⁽²⁾

وقد عاش مفدي زكريا لوعة الغربة بعيدا عن وطنه وأحبابه، ولو شئنا أن نتلمس حنينه
إلى وطنه لوجدنا في قصيدته (فلا عز حتى تستقل الجزائر) فيها تظل العلاقة بالوطن واضحة ملتصقة
مند بداية القصيد حتى منتهاه، و يحاول من خلال هذه الغربة أن يجسد حالته المأساوية وهو بعيد عن
الوطن:

جزائر مهما باعد الخطب بيننا	تباكرني النجوى، وتهفوي الذكرى
حنيني إلى القصباء هج مدامعي	وشوقي إلى بلكور أفقدني الصبرا
وفي حي باب الواد ماضي صبابتي	تركت بيات الواد من كبدي شطرا
ويا فتنة الأبيار والسعد باسم	ألم تنسك الأبعاد أيامنا العطرا

1- صالح الشربوني : الديوان، ص 22.

2- أبو القاسم الشابي : الديوان، ص 22.

وفي القبة الفيحاء عشّ خواطري تركت بها لما أحاطوا بنا وكُرا
وفي حرم الصحراء، أهلي، وجيرتي وربعي، وخلائي، وأكبادي الحرّي (1)

وشاركت المرأة الشاعرة أخاها الشاعر العربي المعاناة، وعبرت عن ظاهرة الغربة وعن مأساة الحياة العربية كقدوى طوقان التي ضمنّت شعرها بمظاهر الوحدة والضياح بعدما فقد منها انتماءها ووجودها، إنه وطنها المسلوب فلسطين، الجريح النازف فجاء شعرها بحثاً مستمرا عن الحياة وهروبا إلى عالم الخيال عسى أن تجد معنى لحيرتها وسببا كاشفا لغربتها تقول مخاطبة :

ألا كم تهيمين في عالم تنأى بعيدا بعيدا مداه
وفي عمق روحك شوق ملح جموح لظاه عنيف ظمائه
تُراك هنالك تستطليعن خفايا الوجود وكنهه الإله. (2)

فما يشعرها بالغربة ويجعلها تطرح هذا التساؤل، هو الإحساس بظلم القضاء، وسفك الدماء وصراع البشر.

أنكرت في الأرض هول الفناء وظلم القضاء وجور الليالي
تراك إفتقدت جمال العدالة فيها فهمت بأفق الخيال
محرة ولهاء تنشدين الـ حقيقة في غامضات المجالي
أراعك فيها شقاء الحياة ؟ أراعك فيها صراع البشر؟
أمن صرخات القلوب الدوامي تغض عليها ينوب القدر
تلوذين في لهف صارع بكون تسامي نقي الصور (3)

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (فلا عزّ حتى تستقل الجزائر!) ، ص ص 314-316.

2- قدوى طوقان : الأعمال الشعرية، "وحدى مع الأيام" ، دار الآداب، بيروت، ط4، 1973، ص.36.

3- المصدر نفسه : (وحدى مع الأيام) ص ص 36-37.

وما ضاعف غربتها وزادها إشتعالا، فقدانها لوالدها، و أخوها حيث أورثها الزمن اللوعة والأرق والوحدة

و في ليل سهدي	يـحـركـ وجدي
أخ كان نبع	حنان وحب
وكان الضياء	لـعـيـنـي وقلبي
وهبت رياح	الـرـدي العاتية
وأطفأت الشعـ	لة الغالية
وأصبحت وحدي	ولا نور يهدي. (1)

إن شعراء الرومانسية، أصبحوا يشعرون بغربة نفسية حادة، تلقي بهم في غياهب لا يعرفون لها قرارا، فهم في حالة ذهول وانفصام تام بين الواقع الذي يعيشون فيه، وبين تجسيد ذواتهم كما يريدون، وأن كانت فدوى طوقان تفسر هذا التناقض ببنية الإنسان الأساسية، القائمة على الروح والجسد، فإن ظروف العالم العربي، وأوضاعه الإستعمارية لها دخل كبير في بلورة هذه الصورة، التي قام بها الإستعمار وأعوانه كفيل بأن يخلق عند كل شاعر حسا بالغربة وشعورا بالإغتراب، وإلا كيف تفسر هروب فدوى طوقان إلى عوالم الذات الباطنية وإلى ينابيع الخيال السامية، منسلخة عن دنيا الناس تاركة وراءها المآسي الواقعية:

روحي يلوب بدار غربته	عطشا إلى ينبوعه السامي
فهناك أصداء يسلسلها	صوت السماء بروحي الظامي
وهنا، هنا في الأرض يهتف بي	صوت يقيد خطو أقدامي
صوتان كم لجلجت بينهما	يتنازعان شراع أيامي
وأنا كيان تائه قلق	يطوي الوجود حنانه الظامي. (2)

1 - فدوى طوقان : "وحدى مع الأيام" ، ص 39.

2 - المصدر نفسه : ص 40

أولاً : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الرومانسي العربي الحديث

فظاهرة الغربة تستأصل الإنسان من كل ما يربطه بالحياة والحيز الإنساني، وتحرك في عوالمه الباطنية أنغام الحزن و الشقاوة، ولكنها تتحول في الأعمال الشعرية إلى زفرات حزن، وصرخة في وجه الحياة الجائرة البائسة، وانتظار للفرج والخلاص، تكون ظاهرة الغربة الرومانسية، قد عمت حياة هؤلاء الشعراء، ونسجت آخر خيط في جلبابها الأسود، ذلك أن الشاعر يواجه مصيره في وحدة قائمة لاحبيب يواسيه، ولا فكر مسعف ينير طريقه، ولا عافية تعينه على مواجهة الصعاب، ذلكم هو الشاعر في روح الظاهرة الاغترابية الرومانسية.

لقد كان الشعر العربي ولا يزال المورد الثقافي والإيقاع الأول لحركة الثقافة العربية، فقد إرتبط منذ الحرب العالمية الثانية، بحركة الحياة العربية وعبر عنها بالقدر الذي يتلاءم وأوضاعها التاريخية وملاحمها السياسية والاجتماعية.

فما أحدثته الحرب العالمية الثانية من أزمات وانتكاسات وصدمات في أعماق الوجدان الفردي والإجتماعي، كان كفيلا بخلق شروط جديدة، لحركة الواقع، ومع أن بارقا كان يلوح في الأفق الشرقي، بما يحمله من فكر وفلسفة واقعية اشتراكية تخدم الطبقات العريضة في كل مجتمع. وتارة أخرى في الأفق الغربي، بما يحمله من فكر وفلسفة رأسمالية تحريرية، فالإنسان العربي وجد هده وصادف ضالته المنشودة في الفكر الواقعي الاشتراكي، الذي بدأ في صورته الأولى كدعوة لتحرير الإنسان والمجتمع من قيود الإستعمار وبالتالي العمل على تغيير مجرى الحياة الإجتماعية والثقافية للإنسان العربي وإذا كانت الواقعية الغربية مرت بمرحلتين، واقعية إنتقادية وواقعية جديدة، فإنها في العالم العربي قد بدأت مسيرتها بواقعية ثورية، أقرب ما تكون الى الواقعية الإنتقادية من حيث هي تشريح للواقع، وإبراز لمساوئه، وكشف عيوبه، وتحديد عناصر الشر العالقة فيه، وتهدف من وراء ذلك إلى تغيير الأوضاع أو التنبيه والحث على تغييرها، فهي في روحها تفاعلية، تؤمن بحرية الإنسان، وبضرورة تغيير الأوضاع إذا ما سعى بإرادة فلاذية الى تغييرها، ثم أعقبت هذه الفترة الواقعية الاشتراكية التي رافقت نشوء المجتمعات العربية الجديدة بعد أن تحررت وأرست مفاهيم ودعائم الحياة الجديدة، في داخل هذا المناخ السوي، تحول الشعر من الرومانسية، وما تحمله من ألم وترقب وحصر وانطواء إلى ثورة عارمة وسلام وهّاج في مواجهة أعباء الحياة بكفاح ونضال وثورية، حتى النغم الغنائي الطافح في الرومانسية أخذ داخل هذه الأجواء الجديدة، صوتا جديدا وأبعادا جديدة كما تؤكد ذلك رشيدة مهران " اتخذت هذه المعاني - الحب، والكره والبكاء - أبعادا أعمق، فالحب شمل حب الإنسان، والكره أصبح كرها لأعداء الحياة والإنسان.. والشكوى أصبحت من قصور الإنسان عن إدراك الحقيقة، والبكاء أصبح على آلام الإنسان بعامة، وهذا هو الوجدان الجماعي الذي ينطق به الشعر" (1)

1 - رشيدة مهران : الواقعية واتجاهاتها في الشعر المعاصر، الهيئة العامة، اسكندرية، ط1، 1979، ص99.

فالشاعر أدرك ضرورة وأهمية المشاركة في تحمل أعباء الوطن، التي تعني بالدرجة الأولى تحرير الطبقة الكادحة من بني الإنسان، من أغلال الإستعمار ونفايات الأمراض المصاحبة له، ثم دفعها من سباتها والنهوض بها، وفقا لما يخدم أمانيتها ومصالح وأهداف المجتمع ككل، فكان على الشاعر " أن يتسلح بإيدولوجية يتبناها ويبرزها في فنه بصورة ناضجة، فهذا التبنى يعني بلا شك في استنباط الحلول التي يرتضيها للمشكلات المختلفة..فضلا عن هذا التبنى يعمق رؤيته للواقع ".⁽¹⁾

وقد مهد لهذا الإتجاه في أدبنا العربي مجموعة من الأعلام الكبار نذكر منهم سلامة موسى (1887-1957)، وأحمد أمين(1887-1955)، ومحمد مندور(1907-1965)، ومحمود أمين العالم، وعبد العظيم أنيس... وغيرهم كثير. وكان ما اتفق عليه هؤلاء، ومن حذى وسار في اتجاههم هو الربط بين الأدب والحياة واعتبار الشاعر مسئولا يحمل رسالة أمام مجتمعه، فيجب عليه أن يضمن و ينثر من شعره ما يستشرف أمته، ويسير بها قدما إلى شاطئ الأمان، حتى وإن كانت مميزات الحياة حالكة، مظلمة، عليه أن يستشعر من خلال الآلام والغربة والمآسي الراكدة، صورة الغد السعيد والمشرق.

إن ظهور الواقعية، جاء في مرحلة تاريخية حاول فيها الإنسان العربي فهم الظاهرة الطبيعية والحياة الاجتماعية، على أساس من الوعي بالظروف الموضوعية، التي يتدخل فيها عامل التأثير والتأثير، فهي محاولة لإيجاد صيغة التوافق بين رؤية الشاعر والإتجاه الذي يتحرك فيه المجتمع، في فترة زمنية تاريخية محددة، و ظاهرة الغربة التي وجدناها منثورة في الإتجاه الرومانسي، أخذت في هذه المرحلة الجديدة، طابعا اجتماعيا عاما تتبلور فيها قيم الحياة المنحطة بأشكالها المختلفة، فهي رصد لعلاقة متفاعلة ومتنامية، بين أفراد المجتمع، وذلك من خلال آلامهم وهمومهم المشتركة، إن جوهر العلاقة بين ظاهرة الغربة و الشعر الواقعي تركز وتكمن في الأساس الذي يقوم عليه الصراع الإغترابي، المأساوي الذي يعني شلل وانهمار المثل العليا التي تمثل قوانين صارمة اجتماعية أو قومية أو انسانية.

1- نايف بلوز : عالم الجمال، المطبعة التعاونية، دمشق، 1981، ص 95.

والواقعية الثورية هي تصوير —رير لهذا السقوط الذي يحيا فيه الإنسان العربي، من أجل تغيير واقعه، والشعر باعتباره" أكثر الأنواع الأدبية قدرة على إمتصاص رحيق الكارثة و مقوماتها في حينها"(1)

فقد انعطف على قضايا ومشاكل الحياة العربية واعتبرها أزمة فترة وظروف تاريخية وإجتماعية قابلة للتغيير، فروح الغربة وأبرزها في هذا الشعر جد إيجابية لأنها تقابل فيها بين الحلم والواقع، كما هي الحال في الرومانسية، وإنما هي " دافع قوي لتأكيد الإنسان في الوجود ولقدرته على ترويض الطبيعة و لموقفه الحازم من التناقضات الإجتماعية الكبرى".(2)

ولا يعني هذا انحسار ظاهرة الغربة عن المشكلات الفردية بل يعني بث القضايا الإجتماعية والإنسانية في الأعمال الفردية، يقول إحسان عباس "فقد يصف الشاعر البحر لأنه أحب منظره..ولكنك تحس وهو يتحدث عنه أنه يعبر بذلك عن حرية الإنسان أو عن عمق الوجود الإنساني أو سعة التجارب الإنسانية"،(3) فالواقعية إذ تضع لفنها إطارا فكريا ومفهوما جماليا، إنها توسع الطريق أما الشاعر عبر أشكال الصور التي تخدم قضايا الإنسان، وهذا ما حاول الشاعر العربي الوصول إليه في هذه المرحلة.

فقد وجد نفسه يخدم قضايا الإنسان لإن الفكر والجمال هنا يتوافقان في كونهما يستشعران القارئ بخير و سعادة على أرض الواقع المر، إزاء تناقضات عديدة و تشنجات مضطربة، فهنا موطن الوجدع النابع من عنف المشاكل، وهناك يترامى الماضي وما يمثله من بقايا وتراكمات متنوعة، ومن بعيد حلم المستقبل المتأرجح بين أعمدة تفاؤلية و تشاؤمية.

1- غالي شكري : أدب المقاومة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط 2، 1979 ، ص. 318.

2- مجلة الفكر المعاصر : عدد1981/08/10، ص. 23.

3- إحسان عباس : إتجاهات الشعر العربي المعاصر، مجلة المعرفة الكويتية، 1979، ص 203

أمام كل هذا كان الشعر الواقعي الإغترابي الحزين يجد تعبيره ويعمق أبعاده، لأن الشاعر الذي انبثقت أعماله الإبداعية من أشكال القيم المنحطة ومرارة العيش، لزاما وأن تولد لديه إرادة التغيير، وأن تنعكس هذه الإرادة في بنيتها الداخلية، الموضوعية وبنيتها الخارجية الشكلية ومن أهم الموضوعات التي جسدت ظاهرة الغربة في الشعر الواقعي.

أ - ظاهرة الإستغلال والظلم الإجتماعي :

إن أهم ما تميز به الشعر الواقعي اهتمامه بالإنسان المغترب وبالمشكلات الإجتماعية، وكشف النقاب عن الأوضاع البشعة التي يعاني منها الإنسان، بدأ من أهون ظروف الحياة اليومية، إلى علاقته بالنظام والحيز الإجتماعي. وقد اهتمت الواقعية في هذه الفترة على تسريح مظاهر الظلم والبؤس والشقاء، التي تتخبط فيها طبقات الفقراء والكادحين من عمال وفلاحين وتجار باعة، ومظلومين مهمشين يعيشون على تماس الوجود " وأكثر فقرائهم فئة العمال والفلاحين الذين يؤلفون السواد الأعظم... ووضع بمنزلة الجوع، فحياتهم سوداء وخبزهم أسود" (1)

ومن الصورة الفاترة التي تصور وضع الفقير، ومحيطه الذي ضاق قول مهدي الجواهري :

لو اطلعت عينك أبصرت مأثما	أقيم على الأحياء قبل المآثم
والأفما هذا الشقاء مسيطرا	له في حياة القوم مثل المياسم (2)

فهذه أبرز صورة لغبن الحياة و نكوصها داخل المجتمع كله.

بلاد تردت في مها وسحيفة	وناءت بأحمال ثقال قواصم
تبيت على وعد قريب بفتنة	وتضحى على فرن من الشر ناجم (3)

1 - نور سلمان : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1981، ص.439

2 - محمد مهدي الجواهري : الديوان، الجزء 1، مطبعة بغداد، 1949، ص.18

3 - المصدر نفسه : ص 20

ثانيا : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الواقعي العربي الحديث

وإذا كان مهدي الجواهري يعبر بهذه الصورة عن الحياة الاجتماعية العامة، فإن نازك الملائكة تقتطع صورة جزئية من صور اغترابها الاجتماعي، لتحكي صورة فتاة لم تتعد الحادية عشر من عمرها، مشردة في شوارع بغداد تتقاذفها الأرصفة، فتلسعها الريح الشتوية الحارة تارة، ورخام الأرصفة الثلجية تارة أخرى تقول :

في منعطف الشارع في ركن مقرر
حرس ظلمته شرفة بيت مهجور
كان البرق يمر و يكشف جسم صبية
رقدت يلسعها سوط الريح الشتوية
الإحدى عشرة ناطقة في خديها
في رقة هيكلها، و براءة عينيها
رقدت فوق رخام الأرصفة الثلجية
تعول حول كراها ريح تشرينية⁽¹⁾

لقد تغنى شعراء هذا الجيل بكثير من القضايا الاجتماعية، وبالأخص بما يتعلق بأوضاع الطبقة الفقيرة المحرومة والكادحة، فالشاعر حسن كيلاّن، عرض العديد من هذه الظواهر الإغترابية في شعره و بالأخص في ديوانه " قبل ما تسقط الأمطار" الذي يوحى عنوانه بالغضب الشديد وبالثورة المرتقبة، فقد شخص فيه العديد من ألوان البؤس و أشكال الفقر وأنواع سلوكيات الجهل، ويذكر في قصيدة " بائع الإبر" التي تبرز وضعية عائلة مشردة، يعولها طفل يبيع الإبر في الوقت الذي يجب أن يكون في المدرسة وياليته من وخز الإبر استطاع أن يدفع الفاقة عن ذويه.

تقول ألم تبع أي شيء
أجل! ؟ إئني لم أبع أي شيء
و طاردني الف طفل صغير

1- نازك الملائكة : الأعمال الكاملة، " قراراة الموجة " دار العودة، بيروت، ط1، 1982، ص270.

و كم صفعتني عيون الكبار
وكم كدت أسقط تحت الترام
فتبتلع الأم حزنا عميق
و تمسح عن عينيها دمع
و تنتظر شاخصة في الطريق
وتصرخ ها نحن فوق التراب
وندعوك
يا رب، يا رب. (1)

فالشاعر آلمه الوضع وأدماه المشهد فتحول الى راع لحقوق هذه الطبقة، فلم يعد لديه وقت
للتبرم الرومانسي ولأحلامها الوردية الزاهية، وإنما يحاول جادا مشاركة أبناء مجتمعه شقاوتهم
حتى يصلوا الى شاطئ الأمان و النجاة.

ما عاد لدينا من وقت كي نشكو للناس أسانا
فلدينا أعمال أخرى، أعمال تمص قوانا
أدناها أن نصعد يوما للشمس لتتخذها مكانا (2)

فطرح هذا الوعي وزرعه في الأوساط الإجتماعية، هو الخطوة الأولى نحو إزالة المآسي
والقضاء على مسببات أمراضها لأنها تعكس بدقة الأوضاع القائمة المزرية التي ينبغي أن يثور ويناضل
الإنسان من أجلها كي يسعد أبناء المجتمع كله. فأساس ظاهرة الغربة في الشعر الواقعي،
هو واقع الإنسان الأرعن وإدراك الحياة، حيث يطفح الجهل، والظلم والفقر، إنه مملكة موتى وما
بعث ظاهرة الغربة هو إجهاض الرغبات الطموحة نحو حياة أفضل ووقوف الأنظمة المستبدة سورا
منيعا أمام تحقيقها، ومثل الإنسان العربي كمثّل الممالك الذين اقتيدوا إلى القلعة في أحسن الثياب

1 - كيلاني حسن سند : الديوان، " قبل ما تسقط الأمطار "، دار الكتاب العربي، مصر، 1982، ص 19.

2 - المصدر نفسه : ص 75.

وأطيب الأمان، هكذا عبر عبد المعطى حجازي عن حالة الحياة العربية التي يسترخي فيها
الجوع والكلاب الضالة في الحوار الساكنة.

وبيوت، وصخور، وتراب
نام فيها الجوع، واسترخى الذباب
و صلاة خافتة
و كلاب وفراخ ميتة
و الحوار الساكنة (1)

فلم يظهر ويبقى إلا وجه الفاقة الأعمى كوجه الميتين يمص ما تبقى من عصب الحياة،
وفي شعر عبد الرحمن الشوقوي، تشخيص فريد لأحوال المجتمع العربي، إنطلاقاً من أوضاعه
الصعبة في مصر، وهي أوضاع الخراب والضياع والموت.

الضياع الرهيب والخربات	النواح المشوم واللغات
البحيم الذي يدمدم والأشباح	والجوع والضيء والموت
الضيء الذي يسيل في العين	دموعاً تزفها ضحكات
و السهام التي تمزق الصدر	فتشدد جراحه الداميات (2)

فالإنسان في غربة، عالمه السجن، يلفه الصمت القاتل، و تغيب فيه الأسرار الفانية.
نحن في عالم سجن غائم الصمت غائب الأسرار
عربد البؤس في نواحيه نشوان وغنى أنشودة الجبار (3)
ففي كل ركن يقبع الفقر و البؤس و الهلاك تنشرها يد ظالم أو طاغية
هنا أو هناك، وفي حيث تمضي نفوس معذبة غالية

1 - عبد المعطى حجازي : الديوان (أوراس) ، دار العودة، بيروت، ب ت، ص 135.

2 - عبد الرحمن الشوقوي : " من أب مصري " دار الكتاب العربي، ب ت، ص 42.

3 - المرجع نفسه : ص 129.

رمتهم على عتبات الشقاء لغول الشقاء يد الطاغية

مخضبة بدماء الشعوب

يد نبضت بعرام الحياة لكثرة ما اعتصرت من قلوب (1)

إن هذا التشخيص الشعري لأوجاع الحياة العربية و همومها هو المقدمة الأولى لمعركة الشاعر وأبناء مجتمعه ضد النظام الإقطاعي والتسلط الإستعماري، من أجل بناء مجتمع سوي عالم للناس تتكافأ فيه الحقوق و الواجبات.

و ما معركتي إلا أن أبني عالما حرا

تعيش فيه المودات فلا مينا و لا ضغنا

ولا ظلما و لا غينا

و لا حقدا و لا فقرا

و لا جوعا و لا شرا

و هذا حلم الشعب (2)

وإذ يعلن عن معركته، فإنه يقاوم أشكال التعسف والغبن في كل شبر من الوطن العربي، فهو يسعى إلى ضرب الإستعمار المحتل وفصم ظهره وقطع أذنا به، لأنهما داء الطبقات الكادحة الذين يموتون جوعا وتزهق أرواحهم ظلما على الرغم من طيبة الأرض ووفرة خيراتها، يقول:

و نعرى على أرضنا الطيبة؟

هنالك مصفرة شاحبة؟

ظهورا من البؤس محدودة؟

من الظلم و العري و المسغبة؟ (3)

أخي لا تسلى لماذا نجوع

و لا كيف تبدو وجوه الشباب

و لا كيف تلمح عبر الطريق

و لا كيف تصرخ أمي غدا

1- عبد الرحمن الشرقاوي : " من أب مصري " ، ص 42.

2- المرجع نفسه : ص ص 72-73.

3- محمد سيد شريف : الديوان " يقظة عملاق " ، دار الفكر العربي، القاهرة، ب ت ص 12.

ثانيا : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الواقعي العربي الحديث

هذا هو الوضع في (أم الدنيا) مصر التي تمثل القدوة للعالم العربي والإسلامي في الصمود،
إنها ميدان لانعدام روح الإنسان، ومرتع لأشباح عديدة مختلفة الألوان، فلاح وعامل ومظلوم، وكل
ما لا يرضاه إنجيل أو قرآن. يقول كمال عبد الحليم في وعمق معاناة:

أخي يا أيها الإنسان هل في مصر إنسان ؟
أراها مسرح الأشباح قد وارثها ألوان
هي الفلاح، والفلاح أسمال وأكفان
وهي العمال والعمال إجهاد وحرمان
هي المظلوم والمظلوم لا يجديه غفران
أرانا نجمة الأشواك أما للشوك ريحان
دمانا فوق هذي الكف برهان ونيران
وهذا الظلم لا يرضاه إنجيل وقرآن.⁽¹⁾

ولا يقل حال بغداد وأي مدينة عربية أخرى عن حال هذه الصورة المأساوية، فمظاهر
الغربة والحزن، والآسى تقبع في كل ركن وزاوية، وتعاقد ما تبقى في وجوه الكادحين والمظلومين
من شحوب و تبرم

فوجه الفاقة العظمى كوجه الميتين
أعمى بمص الدود والزهرى مبوح الأنين
أبصر
لتصيح بين الناس من أجل الذين يعذبون ويدفنون
في الصمت من أجل الذين يجزرون
أقدامهم في بول مرضاهم، ورغم القيق والماء المسمم يزرعون⁽²⁾

1 - كمال عبد الحليم : الديوان " اصرار " دار الفن الحديث، القاهرة، ب ت، ص.60

2 - سعدي يوسف : ديوان الأعمال الشعرية الكاملة، المطبعة العصرية ،دار العودة، بيروت، 1972، ص.424.

ثانيا : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الواقعي العربي الحديث

إنهم يزرعون بذور الحياة التي تتفجر من هذه المآسى والفواجع، لأن وراء صمتهم الرهيب تتقد المراحل لتحطم الوضع المأساوي الغريب، وتتيح إمكانية ممارسة الحرية والإبداع والعمل، وهذا يتطلب ويستلزم الوعي بأصول المأساة، لأنه نهج الثورة السوي والحق وطاقاتها المحركة التي تبصر الإنسان بقضايا الوطن والقومية والإنسانية، كما تجعله يؤمن بالفكر الاجتماعي الذي يساعده في تكاتفه مع سائر الطبقات الاجتماعية العريضة التي تنشأ دوما الحرية والعدالة.

دولة الظلم ستنهار وتذروها الرياح
فنباح الظلم المسعور أصداء النواح
ولنا النصر وللنصر مساء أو صباح
حينما نقذف للسجن بأعداء الكفاح.⁽¹⁾

فمع هذا الوعي الثوري، تتخصب نفحة الإيمان بالمصير المشترك، ويتحول الألم والأسى والقلق والغربة، إلى ثورة عارمة منظمة تبعث روح الحياة الحققة الأصيلة بإرادة فاعلة، تزيح من دنيا الناس أشكال الظلم، أمام إرادة الجماهير.

ب - ظاهرة الثورة على الإستعمار:

إن ظاهرة الغربة في الشعر العربي الحديث الواقعي الذي صاحب النضال والثورات العربية، تكشف إلى حد كبير العلاقة الوطيدة التي نشأت بين الشعر والواقعي الثوري، وما يمثل فيه من آلام وفواجع تاريخية، فهي نار تشتعل على قوائم المستعمر، وإقبال عفوي على التضحية والفداء بكل غال، في سبيل استمرار الثورة و بلوغ غايتها.

1 - نكبة فلسطين :

ولعل نكبة فلسطين كارثة العرب والمسلمين في هذا الشعر تكون أفضل وخير أنموذج لعالم الموت من أجل الحياة، فيها يتجسد الضياع، والغربة والتشرد فقد مارس الصهاينة أشكالا وألوانا

1- كمال عبد الحليم : الديوان " اصرار "، ص51.

ثانيا : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الواقعي العربي الحديث

من الإضطهاد والإرهاب بغية استئصال الجنس العربي من على أرض فلسطين، وإنشاء وتأسيس وطن اليهود المزعوم.

أمام هذه الحنة العظيمة، كان الشاعر العربي عند الموعد يعانق الألم والغربة ويلهث عن مخرج يوصله ومجتمعه إلى ميادين العدالة وساحات الحرية، وكان مما أثار سخط الشعراء هو انشغال زعماء الأمة العربية بقضايا هامشية، مما حال دون تلبية نداء الحق، هكذا ترى فدوى طوقان:

يا وطني ما لك يئني على	روحك معنى الموت، معنى العدم
أمضك الجرح الذي خانته	إنسانه في المأزق المحتدم
جرحك ما أعماق أغواره	كم يتنزي تحت ناب الألم
أين الأولى إستصرختهم ضارعا	تحسبهم ذراك المعتصم
ما بالهم قد حال من دونهم	ودون مأساتك حس أصم
هم الأنانيون قد أغرقوا	قلوبهم دون البلاء الملم
لا روح يستنهض من عزمهم	لا نخوة تحفزهم لاهم
أحنو رقاب الذل يا ضعفهم	واستسلموا للقادر المحتكم ⁽¹⁾

وتتفاقم النكبة بالأعمال الوحشية التي قام بها الإسرائيليون في الأيام الأولى من الاحتلال، وهي نفس المعابر والجسور التي تربط بين الضفة الغربية بالشرقية، وهذا ما يعنى فصم وتقطيع أبناء الوطن الواحد والعائلة الواحدة، وقد اقتطعت فدوى طوقان هذه الواقعة المرة، فلا أحد يحاول العبور إلا وكان حظه ونصيبه الموت ينتظره على الجانب الثاني من الضفة النهر.

الموت رابض على النهر
الموت رابض لكل من عبر
يا كرم يا غزالي

1- فدوى طوقان : ديوان الأعمال الكاملة "وحدى مع الأيام"، ص137.

العسل الصافي المضئ في العيون
يوحشني كثير
و الخصل الشقراء مثل القمح مثل
موسم الحصاد في حقولنا
توحشني توحشني كثير
أود لو أطيّر يا غزالي
عبر المدى، أود لو أطيّر (1)

فبقطع الجسور، تقطع الوصال، وحلت الوحشة والغربة، بعد أن استولوا على الوطن واستحوذوا على كنوزه المقدسة ومعالمه النيرة وخيراته المنتشرة في كل شبر من أرض فلسطين، ولم يعد لإبنائها الذين شردوا وأصبحوا لاجئين، إلا الغربة والمهانة والشوك والصبار. وينقل إلينا صلاح عبد الصبور ثلاث صور مأساوية دامية من حال غزة تشكل فيما بينها حقيقة الغربة في هذه البقاع، فالصورة الأولى تحدث حال الإنسان الفلسطيني الذي يعيش الهلع والخوف.

لم يك في عيونه و صوته ألم
لأنه أحسه سنه
ولاكه... إستنشقه سنه
وشاله من قلبه سنه
وطالت السنون أزمته
فأصبحت آلامه في صدره حقدا
بل أملا ينتظر الغدا (2)

وأما الصورة الثانية فهي الطفولة المشردة، تبحث مع الصغار عن غدها المنتظر.

1- فدوى طوقان : الأعمال الكاملة "، وحدي مع الأيام " ، ص.137.

2- صلاح عبد الصبور : ديوان الأعمال الكاملة، " أقول لكم " ، ص.138.

يا أيها الصغار
عيونكم تحرقني بنار
تسألني عن مطلع النهار
عن عودة إلى الديار
أقول.. يا صغار
لو ضاع منا الغد يا صغار
ضاع عمرنا سُدًى (1)

أما الصورة الثالثة فهي استرجاع واستحضار من الشاعر لماض تليد، للوضع التاريخي قبل الإحتلال و أثناءه، وذلك ليؤكد أحقية الأجيال في هذه الأرض و ضرورة العودة إليها.

كانت له أرض وزيتونة
وكرمة، وساحة، ودار
وعندما أوفت به سفائن العمر إلى شواطئ السكينة
إنطلقت كتائب التتار (2)

فهذه الجحافل من المرتزقة، هي التي زحفت بعمرمرمها الممجي، وحولت الحياة في فلسطين إلى مقبرة تعج بالأشلاء، فلا تسمع إلا الإستشهاد ولا تبصر فيها غير عيون شاحبة ووجوه غزاها الذل، أو خيام انتشرت كالقفايع ، تظلل الشريد والمهجر الطريد.

عيون مفقاة بعثرت
على الأرض حباؤها السائله
وأيد مقطعة ووجوه
غزا التراب ألوانها الحائله
وكان هناك وراء الدخان
قطيع تشتت في كل بيد
قطيع وديع.. .. بقية قومي
فهذا شريد و هذا طريد

1- صلاح عبد الصبور : ديوان الأعمال الكاملة، " أقول لكم"، ص.139

2- المصدر نفسه : ص139.

تظللهم في العراء الخيام وقد أخلدوا في هدوء بليد⁽¹⁾

إن الحياة في ظل الغربة والنكبة أفرزت صيغة للتطابق بين دنيا الشعر، وعالم الحياة الواقعية، فارتبط الشاعر بقضايا وطنه وشعبه وأمته، يدعوها بشدة وغضب حاد في كثير من الأحيان إلى ربوع الحرية وميادين العزة والعدالة، ويسعى بها للقضاء على جذور الاستعمار والاستغلال و أنظمتها وأوضاعه الفاسدة، ومن هنا كان الشعر الرافد الأول، يحمل في طياته صنوف الغربة والإضطهاد، نجد ألوانا شتى، وشتى ألوان القهر الجسدي والروحي، فلا غرابة أن نجد أنواعا من القنوط في هذه الأشعار لأنها صورة لواقع تاريخي مهما غاص الشاعر في عوالمه الباطنية والخيالية.

2- مأساة الجزائر:

ولإحتلال الجزائر أشكال عديدة من هذا القنوط، فما من شاعر عربي تقريبا، إلا وتناول ليل الإستعمار في الجزائر، فقد مهد عبد المعطي حجازي في قصائده "أوراس" و "ليل وهران" و "القديسة" للحديث عن الثورة التي تفجرت من الأوراس، وقد رسم صورا مأساوية تجسد أعمال وهمجية الإحتلال الفرنسي، فمع بداية قصيد "أوراس" تبدأ ملامح المعاناة ودرجة المأساة في التشكل.

مدن المغرب

ترتج على قمم الأوراس

و تهب الريح الشرقية

و تفور خيول

كسيول فاضت فوق تلال

قطاع طريق من أحراش الغال

يلوون الألسن باللغة الإفريقية

ما زالوا يلتحفون فراء الدب

1- صلاح عبد الصبور : ديوان الأعمال الكاملة، " أقول لكم"، ص139.

يمشون جحافل فوق بكاء القلب
مازالوا روماناً
مازالوا كفاراً
يرمون على بلدي ناراً⁽¹⁾

إن هذه الظروف العصبية جملة، كقيلة بتفجير الغيظ - و تفيض مرارة وألم - والآلم، والإقتلاع في حياة الإنسان الجزائري. لكن الاستعمار الفرنسي لم يكتف بذلك بل عمد إلى حرق الأرض، وما عليها من أشجار مثمرة، ومساكن، كما سجن واستباح العذارى، وشنق الشباب.

لا زرع، و نار في الزيتون
والقرية تحت الصليب خراب
والأفق تراب
وعذارى في السجن الثلجي
و شباب تحت مقاصل "ميرابو"
يسقون العين بكل النور قبل الذبح.⁽²⁾

وهكذا تزهق الأرواح فوق أرض الجزائر، وتصلب الحياة وتستأصل من الأنفس البريئة، لا يعود مع شروق الشمس إلا صمت القلوب الساكنة المصلوبة ودمائها الهائلة الدافئة.

القرية تحت الصليب خراب
والأفق تراب
وتسيل دماء دافئة فوق الثلج
وتميل رقاب
وتعود الشمس ككل غروب

1 - عبد المعطي حجازي أحمد : " أوراس"، ص.412

2 - المصدر نفسه : ص 416 - 417.

ثانيا : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الواقعي العربي الحديث

ويؤوب الصمت يؤوب
وتنير الشمس قلوب مصلوبة (1)

وقصيد " القديسة" يقدم صورة المرأة الجزائرية العربية المجاهدة، فجميلة بوحيرد رمز
الشجاعة والأقدام، بطلة حقيقية، لم تذق معنى الحب، ولم تكلم إنسانا من حبها إلا في عشق الوطن
والتضحية في سبيله.

فقد قضت عمرها
حاملة رسالة من التلال
إلى مخايء الرجال في المدينة. (2)

وعندما اكتشف الإستعمار الفرنسي سر مفعولها، حاولت أن تداري، و أن تكمل رسالتها
المقدسة لكن.

رصاصه ثانية تمددت في عظامها
وثالثة
قديستي تغسلت في دمسها
قديستي! صلت لأجلها مدائن
و كبرت مآذن
طارت طيور في النواحي باسمها
جميلة الجميلة
تعلم أن حولها ألف رسول
سيحملون بعدها الرسالة. (3)

1 - عبد المعطي حجازي أحمد : " أوراس " ، ص.428

2 - المصدر نفسه : ص416.

3 - المصدر نفسه : ص416.

ثانيا : _____ ظاهرة الغربة في الشعر الواقعي العربي الحديث

وإذا كان الإستعمار الفرنسي لا يفتأ يصب حمم غضبه على الشعب الجزائري الأعزل، فإن
في ليالى مدينة وهران عيوننا لا تنام، أملها الوحيد الإنتصار، على الرغم من تواجد الموت
القابع عند كل جدار.

ما أجمد اللحظة في شرفة
من ليل وهران المهيب المنيع
و الحارس المرهف إنسانها
الأمر الناهي، البصير، السميع
القمر الآهب، في كفه
يا قوّة مسقية بالنجيع
و الواقع بين أقدامه غنوة
أوتارها كل الروابي و النجوع.⁽¹⁾

ولم يكن المجاهد الجزائري في غربته الطويلة في ليل الإستعمار الفرنسي الدامس وحيدا، بل
كان يقف ويشد عضده ويأخذ بيده إخوانه العرب من المحيط إلى الخليج وفي كل مكان داخل
المعمورة، ويحثه محمد السيد شريف، ويدفعه إلى الوغي :

إضرب فإن يدي معك	تحمي يديك ومدفعك
واحرص على الوطن الأبي	من الشوائب منبعك
الفجر قبل أفقك الـ	دامى وحياء مربعك
والنصر صلى للألوف	العائدين هنا معك
والشمس توج تبرها	عبر المعارك موقعك. ⁽²⁾

1 - عبد المعطي حجازي أحمد: "أوراس"، ص 380

2 - محمد السيد شريف: الديوان " يقظة عملاق"، ص100.

إن ظاهرة الغربة ينمو تعبيرها ويتضاعف في زحام الصراع، وما يتخلله من إخفاقات وخيبات تحول الفرد إلى قوة مقابلة للإحتلال بعد أن يتحد مع الجماعة فهو المقاتل الذي يدافع عن كرامته وكرامة وطنه وشعبه وأمتة، وكرامة الإنسان كله، فما يؤذى الإنسان، يقوده إلى الغربة ويشعر بـ"ضياع العدالة، و عدم الوعي على التمييز العنصري، أو اللوني، وتمجيد القوة لمجرد أنها قوة يسحق فيها الضعيف والفقير ويضيع الحق الانساني" (1)

والشعر في هذا الإطار مطالب بتشريح الأوضاع الإجتماعية والوثائق التاريخية بغية تخلص المجتمع منها، وبناء عالم جديد، لذلك صرف الشعراء أqlامهم إلى " قضايا الوطن العامة إقليمية أو قومية أو عربية أو إنسانية عامة، وإلي قضايا الشعب وضرورة النهوض به ورفع مستوى حياته، ومعالجة مشاكله، وإبراز آلامه، وتعزيد مطالب حياته العادلة" (2)

3 - قضايا الإنسانية :

وقد انفتح الشعر الواقعي على قضايا الإنسان، فوجد في غربة العبد الأسود الرازح تحت أقدام الرجل الأبيض في إفريقيا غربة الغرب، وما يعمق أبعاده الدرامية، ويثري تجاربه الاغترابية، فشعر محمد الفيتوري " أغاني إفريقيا " يحمل في مضامينه وشكله وروحه غربة إفريقيا ومأساتها الكبرى، إنه يعرض قضية التمييز العنصري العرقي، لا كظاهرة استيطانية بين الأبيض كجنس والأسود كلون، فحسب بل كقضية إنسانية قوامها الصراع بين الخير والشر، بين شعوب مغلوبة على أمرها، وشعوب زاحفة واستعمار متجبر يستعبد لها، فهو إفريقي سوداني ينتمي إلى تلك الشعوب ويحمل في لونه بذور الغربة وفي دمه روحها، وفي حياته واقعيتها.

جبهه العبد .. و نعل السيد

وأنين الأسود المضطهد

تلك مأساة قرون غبرت

1 - إحسان عباس : إتجاهات الشعر العربي المعاصر، ص 202.

2 - محمد مندور : الشعر المصري، (بعد شوقي)، الحلقة الثالثة، مكتبة تحفة مصر، ط3، ب ت ، ص95.

لم أعد أقبلها... لم أعد
كيف يستعبد أرضي أبيض ؟
كيف يستعبد أمسي وغدي ؟
كيف يخبو عمري في سجنه ؟
و جدار السجن من صنع يدي
أنا زنجي
وأفريقيتي لي لا للأجنبي المعتدي (1)

ومع محاولات العبد الأسود في استرجاع كرامته وأرضه، وإنسانيته، كانت آلامه وغربته
تزداد والحياة أمامه تخبو، وتقع فيها الدموع والخطايا.
و الدرب منطفئ اللون
في شحوب البغايا
فقيم خطوك فوق العظام
فوق البرايا
وأنت عريان إلا من هموم العرايا
وغيمة من دموع
وخيمة من خطايا. (2)

فالحياة ماضيها وحاضرها تفيض بالمشانق وتعج بالمعتقلات والسجون، ولا يبقى
في الشارع إلا وجوه العجائز يتضرعن ويطلبن الرحمة والخلاص قبل الفناء.
- مات .. و ملء روحه المسودة المحترقة
- ماضي يغطيه دم المشانق المعلقة

1 - محمد الفيتوري : ديوان "أغاني إفريقيا"، مكتبة المعارف، مصر، 1956، ص.35

2 - المصدر نفسه : ص94.

وصرخات التأثيرين في السجون المطبقة
وأوجه العجائز الأليمة.. المشفقة
وهن يرفعن إلى السماء
في أسى ذليل
أذرعةً معوجة مثل مناجل الحقول
وأعيننا يغوص فيها ظل مشنقة⁽¹⁾

وفي خضم هذه الغربة الحادة، لا يسع الشاعر إلا أن يطلب مع الملايين المقهورين سقوط
الغيث النافع الذي يعيد للحياة نضارتها وللإنسان حريته.

و انزل يا مطر
أغرق حقول الأرز والقمح، وأغرق النهر
وأمسح بكفك الرمادية أحزان الشجر
لا بد أن تصبح يوما غلة الحصاد لي
وتصبح السماء والأرض، وبحرى الجدول
وتنتهي مجاعة التراب
والبشر.⁽²⁾

ومع إخضرار الأرض وانتعاش جداول الحياة وانسيابها، تبدأ آمنيات الشاعر ومعه ملايين
الزواج و كل من يحب و يناصر الإنسان في طريقها إلى التحقق، وسيعرف الأحرار أين يوارون
نعوش الطغاة الظالمين والمستبدين، فالثورة هي التي تحول مجرى الرياح.
وقمت كما ردة تتلقى الضحى
وتحول مجرى الرياح

1 - محمد الفيتوري : ديوان " أغاني إفريقيا"، مكتبة المعارف، مصر، 1956، ص 57

2 - المصدر نفسه : ص ص 59 - 60.

وتخفر تاريخها من جديد
على جبهة الشمس حمر الجراح
فهل تسمعن أغاني الزنوج
تدوى مثقلة بالحياة
وهل تبصرين وجوه العبيد
تقهقه حول نعوش الطغاة. (1)

ومع كثرة الضحايا تتحول قبور الأحرار إلى منارات ورموز لاستمرار النضال، فمن قممها
وأعلامها الشاهقات ينبثق شعاع النور ليحرق أعداد الإنسانية، ويملئ ضياء الحياة السوية.

فسيغدو القبر هو الكعبة
يحج إليها الأحرار
و من دمه تنبثق النار
لتحرق أعداء البشرية
و تضيئ طريق الحرية
أمامك يا أفريقيّة. (2)

بهذا اهتم الشعر الواقعي داخل المجتمع العربي والإنساني، ومع ما فيه من روح خطابية،
وسياسية إلا أن ظاهرة الغربة كانت التعبير اللازم لتلك المرحلة وما افتقدتها ظروف التاريخية، فليس
محظور على الشعر كما يرى محمود الربيعي " أن تكون له فائدة، ولكن المحذور أن يكون مفهومنا
للشعر نابعا من تفكيرنا في فوائده" (3) وهذا ما يبدو من خلال استقراء النماذج التي قدمت، فقد
كانت ظواهر أفرزتها ظروف مرحلة تاريخية مأساوية، من حياة الأمة العربية والإنسانية.

1- محمد الفيتوري : ديوان "أغاني إفريقيا"، ص 48 - 49.

2- عبد الرحمن الشرقاوي : ديوان " من أب مصري "، ص 162.

3- محمود الربيعي : في نقد الشعر، دار المعارف، ط3، 1975، ص 157.

الفصل الثاني :

ظاهرة الغربة بواعثها وأبعادها، في شعر

مفدي زكريا

تمهيد : نظرة في الوضع التاريخي وإفرازاته

التأمل للوضع التاريخي للإستعمار الفرنسي الدخيل في الجزائر* خاصة والعالم العربي عامة وما صاحبه من أعمال ومحاولات مخططة للمسح والتغريب، والقهر والنهب** والتشويه للشخصية الجزائرية العربية الإسلامية.

لو تأملنا ما نجم عن ذلك من أعباء ومشاكل وغربة وهموم وأوجاع وآمال تتجاوز قدرة الكائن الحي، بل تتعداه إلى الجماعة، وتفحصنا ذلك جيدا، لأدركنا أبعاد الغربة وحقيقة أسبابها المزرية. ولما كان الشعر انعكاسا صافيا لحاجات الواقع ومرآة لأحداث التاريخ وكان " الشاعر - في كثير من الأحيان - مرآة عصره يتأثر به و يؤثر فيه، ويعمل على تحقيق مبادئه ومثله على قدر ما يتيح له عبقريته و نبوغه"⁽¹⁾. فقد وعى تلك الظروف والمتناقضات التي تطيح بمصائر الأفراد و الجماعات، وعبر عنها في صور تجسد ألوان الصراع الذي يحول دون توافق الإنسان مع محيط الحياة الاجتماعية والنفسية التي يعيشها، لذلك كان القلق النفسي المتزايد والنكوص الدائم نحو الماضي، والخوف من المستقبل، والتفكير في المصير المجهول، من مظاهر الغربة وأشكال الإغتراب التي يعيشها الإنسان الحديث.

وظاهرة الغربة تعد منطلقا من بذور الفهم السوي، لأنها...تمثل وضعاً يكاد يكون طبيعياً عند كل شاعر، وقد عانى مفدي زكريا هذه التجارب لأنه تأثر و " لأن الثوري الذي يشعر بالغربة، يتجاوز الواقع ويعود إلى ما وراء هذا الواقع ليكتشف الظلم المتفشي فيه فيقوم بمعارضته انطلاقاً من مبدأ العدل الذي يشعر به في داخله"⁽²⁾.

* احتلت الجزائر : من طرف الفينيقيين القرطاجيين (880 - 146 ق م) ثم الرومان (146 - 421 م) فالونداليين (431 - 534م) والبيزطيين

(534م-647م) والعرب ابتداءً من 643م وفرنسا (1830)...

- محمد فارس تاريخ الجزائر الحديث (مطبعة ألقاء الأديب) دمشق 1969، ص 145

** النهب : قد سرق الفرنسيون في جويلية 1830 خزانة الدولة الجزائرية والتي كان بها 40 مليوناً من الفرنكات الذهبية، حسين تريكي : "هذه

هي الجزائر" دار القاهرة للطباعة 1981، ص 16.

1 - سامي الدهان : الأمير شكيب أرسلان، حياته و آثاره، دار المعارف، مصر 1980، ص 15 .

2 - أحمد النكلاوي : الإغتراب في المجتمع المصري المعاصر، ط2، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1989 ، ص 76

ولأن هذه الأحداث تمثل في مجملها خواء الحياة وسقمها، معاناة مركبة مضاعفة، فهي من ناحية تعبر عن غربته ومعاناته الذاتية في أعماقها وأبعادها النفسية، ومن ناحية أخرى تبرز معاناة الشعب الجزائري في أزمتته التاريخية المعقدة و أعبائه وظروفه الحياتية الصعبة القاسية و" كان مفدي يتغنى بجراحه و جراحات شعبه، و يتغزل بآلام أمتة"⁽¹⁾.

إن ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا*، تمثل شعر الوجدان الجريح الدامي الملون بالمآسي المخضب بالدماء والأحزان، والذي يتدفق مشحونا بنماذج غنائية حزينة ثائرة، يسيطر عليها الطابع الثوري مغلفا بأبعادها المأساوية، تنساب داخل وعاء لغوي حاد مملوء بالتحدي والكبرياء، و تتصف هذه الحمم المتدفقة من أعماق النفس المتألمة، بالصدق في معظم أشعاره، وقد استطاع أن يتخطى بذلك وفي وحدته الطويلة شعر المناسبات، والتعبير عن وضع الإنسان الجزائري المأساوي في الإستعمار والإستغلال، إن الغربة في معناها اللغوي هي الإبتعاد والمفارقة وفي معناها

1- محمد ناصر: مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة ، نشر " جمعية التراث " - العطف - غرداية، الجزائر، 1987، ص 169 .

* مفدي زكريا : ولد عام 1908 ببني يزقن إحدى قرى بني ميزاب في الجنوب الجزائري

اسمه: الكامل مفدي زكريا بن سليمان الشيخ صالح

المحدر الأسري: ينحدر من أسرة آل الشيخ الامازيغية الأصل التي تعود جذورها إلى بني رستم مؤسسي الدولة الرسمية بتيهت في القرن الثاني للهجرة.

دراسته: التحق مفدي زكريا طفلا بالكتاب لحفظ القرآن الكريم، و تعلم مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، و لما بلغ السابعة من عمره انتقل إلى مدينة عنابة للالتحاق بابيه الذي كان يمارس التجارة هناك، فدخل المدرسة الابتدائية و في عام 1924م انتقل إلى تونس مع البعثة العلمية الميزابية لتلقي العلوم الدينية و الدنيوية هناك، فدرس بمدرسة السلام القرآنية لمدة سنتين فأتقن جسدا اللغتين العربية والفرنسية كما اطلع على العلوم الحديثة، و بعد حصوله على الشهادة الابتدائية انتقل إلى مدرسة الخلدونية الحديثة فدرس الحساب والهندسة و الجبر و الجغرافية و التاريخ ليلتحق بعدها بجامعة الزيتون العظيم أين تعمق في علوم الدين.

تأثره المبكر بالزعماء الثوريين المغاربة : كان في تونس مقيما في بيت عمه صالح بن يحي أحد كبار المناظرين ضد الإستعمار الفرنسي في المغرب العربي و يعد أحد مؤسسي الحزب الدستوري التونسي الذي قاد الجهاد ضد المحتل.

وبحكم إقامة مفدي في بيت عمه تعرف على زعماء كبار و على رأسهم الشيخ عبد العزيز الثعالبي، و كان مفدي الشاب يتابع ويعيش أحداث هزلة الزعماء حول هموم العالم الإسلامي و الأخطار المحدقة به، و منذ تلك الفترة عقد مفدي العزم على الجهاد (السير على درب هؤلاء العظماء) ضد المحتل الفرنسي و الجهل و التخلف و أسباب الظلم و الغربة، فاكسب عزيمة فولاذية و روحا وطنية و إقليمية و عربية عميقة إلى جانب أخلاق عالية مثالية منابها، تدبته الشديدي وسلوكات مبادئ الدين الإسلامي الحنيف. ينظر : يحي الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي -

الإجتماعي تعني " الإنسلاخ عن الواقع الفاسد والإستياء منه والعداء والتصدي له، بحيث يبدو هذا الواقع وكأنه كائن ثابت متجمد يتخبط في الأحوال تلتصق بها الأقدام" (1)، فلا تستطيع هذه تجاوزها والفكاك منها، برغم كل المحاولات والجهود التي تبذل، والتي يرى البازل أكثرها جهودا ضائعة لا جدوى منها " فينطوي على نفسه، ويعاني عذاب الوحدة والعجز من تغيير الواقع، ويقطع صلته بالآخرين الذين لم يستطيعوا أن يستوعبوا تطلعاته التي يحاول بها أن يضيء خطوط المستقبل ويرسم طريق الأمة في مدارج الرقي والتقدم" (2).

وليست الغربة بهذا المفهوم الإجتماعي إنفصاما عن عالم الواقع وهروباً بينا إلى مدارج الرؤى وعوالم التخيلات الوهمية المتبورة الأسباب والجذور، لأن الغربة بهذا المعنى الأخير " تؤدي وظيفة سلبية تبعد صاحبها عن المشاركة في تحمل المسؤولية وأعباء الحياة كما تجعله عديم التأثير في الغير، هذا التأثير الذي يفرضه التطلع الواعي نحو المستقبل ونحو مجابهة العوائق من أي مصدر أتت" (3).

وفي حياة كل أمة - منذ فجر تاريخ الإنسانية الأول - رجال ونساء، صنعوا تاريخها، وقادوا مسيرتها الظافرة نحو ميادين الحرية والاعتناق، وتحملوا ألوان البطش والتنكيل والغربة من أجل بقائها واستمرار وجودها فوق الأرض وكان الشعر مرآة عاكسة، يصور كل ذلك " ويقف طويلاً أمام هذه المواقف والظواهر والشخصيات، فهو يسجل المفاخر والمزايا ليكون مدد قوة

زكريا، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1987، ص ص 38-48

حبه للعلم : كان مفدي زكريا كثير المطالعة في كل المجالات، إلا أنه شديد الولع بدراسة حياة الأبطال و عظماء الأمم، لذا نجده قد تأثر كثيراً بسيرة الزعيم الوطني المصري مصطفى كامل الذي قاد حرباً ضد الاستعمار البريطاني، وهو شاب لا يتجاوز العشرين من عمره و الذي مات في ريعان عطائه عند الرابعة و الثلاثين من عمره ، و قد نهل مراراً وتكراراً من كتاب أعجب به أبما إعجاب بعنوان "مصطفى كامل في 34 ربيعاً" فاختذ عنه لحمه الوطن و الدين و عدم الفصم بينهما. ينظر : بولحيا الطاهر : تأملات في الإلياذة الجزائر لمفدي زكريا، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989، ص ص 37-49

1- هاري ليفن : انكسارات، " مقالات في الأدب المقارن "، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980، ص.18

2- عبده بدوي : الغربة المكانية في الشعر العربي، مجلة عالم الفكر ، مج 15 ، عدد1، ص.18

3- المرجع نفسه : ص18.

وفخار للأجيال القادمين، كما سجل المآسي والمهاوي والخطوب لينفث في الأمة روح اليقظة، ويستنهض فيها خامدا لهمم و يحيي فيها موات العزائم"⁽¹⁾.

فالأدب بصفة عامة، والشعر بصفة خاصة يعد- بصورة غير مباشرة- مصدرا حيا يتدفق عطاء، ومن أهم مصادر تاريخ الأمم العظيمة الخالدة، وخاصة إذا قلت أو ضاعت أو إنعدمت المصادر الأخرى، و الشعر" لا يسلك سبيل الرصد والإحصاء للوقائع والأحداث، فهذه السبل ليست سبله ومهمته، ولو فعل ذلك ما كان شعرا، و لكن أعنى بذلك أنه كل أولئك أو بعضه 'تسجيله لوجداني' بما يحمله من نبض الشاعر وأحاسيسه "⁽²⁾ . لهذا كان بين التاريخ والشعر منذ قديم الزمان، وظهور الفنون المشكلة لمعاناة الإنسان في هذا الكون " وشيعة قوية وثيقة، فقد كان التاريخ- ولا يزال - منهلا عذبا يمنح الشعر منحها، وهو معين فريد لا ينضب أبدا، لأنه ترجمان الحياة الإنسانية، وسجل الأمة في منشطها ومكرها.. في سرائها وضرائها، وفي حياة كل أمة مواقف تنطق بالروعة والعظمة والجلال، وفي حياتها كذلك نكبات وأزمات تتوقف فيها مسيرته أو تتعطل فيها طاقاتها وإمكاناتها"⁽³⁾.

لذا جاءت رسالة الشعر ملونة بالأفراح والأحزان، رسالة مقدسة كما يقول مفدي

زكريا :

رِسَالَةُ الشَّعْرِ فِي الدُّنْيَا مُقَدَّسَةٌ لَوْلَا التُّبُوعَةُ..كَانَ الشَّعْرُ قُرْآنًا⁽⁴⁾
فالشعر سجل للأيام و الأحداث:
سجل على الشعر للآتين مفخرةً، يتلُو بها ذكْرنا شيب وولْدان⁽⁵⁾

1- محمد ناصر: مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة، ص11

2- المرجع نفسه : ص219.

3- المرجع نفسه: ص.219

4- مفدي زكريا : اللهب المقدس " رسالة الشعر في الدنيا مقدسة "، ص 290 .

5- مفدي زكريا : أمجادنا تتكلم"، قف للعروبة حيَّها ببسكرة ، ص 98.

يحمل أعباء البشرية، من معاناة و مآسي، ويصور أغوار الذات الحزينة المنكسرة التي لا يستطيع أحد النفاذ لمعرفة إلا هو، فيستجلي عباراته وأنغامه المرسله أهات تلك النفوس الجريحة المغترية، البعيدة الأغوار.

فكم هتكنا بها الأستار مغلقةً	وكم غرونا بها، في الغيب أكوأناً
وكم جلونا بها، الأسرار مُبهمّةً	وكم أقمنا بها، للعدل ميزاناً
وكم صرعنا بها، في الأرض طاغيةً	وكم رجمنا بها، في الإنس شيطاناً
وكم حصدنا بها الأصنام، شاخصةً	وكم بعثنا من الأصنام، إنساناً!
وكم رفعنا بها، أعلام نهضتنا	فخلد الشعر في الدنيا، مزاياناً ⁽¹⁾

هكذا كانت رسالة الشاعر والشعر لحمة واحدة، منصهرة في كشف الحقائق، ساجدة في عوالم الخلق والإبتكار، والهروب والتخلي عن التصدي للآفات والظواهر الاجتماعية السلبية، يعد وقوفا واضحا معتمدا على هامش الأحداث والحياة، ونزوعا مقصودا إلى عدم الإكتراث واللامبالاة، وتنصلا من واقع يفرض على الشاعر التزيه الموهوب الحق، موقفا إيجابيا مؤثرا وفاعلا من كل ما يتعلق بأمور حياته، ومن كل ما يمت بصلة إلى وجوده ككائن إنساني من قريب أو بعيد. ففي ظاهرة الغربة عند مفدي زكريا، نتتبع أسباب غربته، وأسباب معاناته داخل غياهب السجون، وأسباب ضياعه في متاهات هذا العالم المملوء والزاهر بشتى المتناقضات التي كثيرا ما صدمت وجدانه وتركته يعيش لحظات مليئة بالحزن والألم والضياع. وقبل أن نتحدث عن ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا، يجب أن نعيد إلى الأذهان، وأن نذكر إلى أن غربة الشاعر لم تكن غربة ميتافيزيقية إلى حد ما، بل كانت في أثرها غربة مواقف الرجل السياسية، فرضتها ظروف الإحتلال الفرنسي لأرض الجزائر، فرفض مفدي زكريا أن يقف من هذا الإحتلال وما زرعه من بؤس وشقاء وتشريد و إبادة، موقف المتفرج وموقف اللامبالاة، وحاول بكل ما أوتي من قوة وجهد أن يؤثر في محيطه، وفي مجرى أحداثها المختلفة، لأن ذلك يعد بالنسبة لمفدي زكريا من صلب إنشغالاته ومهماته ومن صلب وجوده الذي يفرض عليه أن يكون في موقع الريادة والمسئولية والتحدي والمجاهمة.

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، "رسالة الشعر في الدنيا مقدسة"، جويلية 1961 في مهرجان الشعر بدمشق 23 سبتمبر، ص 290.

لقد أدرك مفدي زكريا صعوبة وأهمية وخطورة المسؤولية التي تقع على عاتقه كشاعر* في هذا الإطار، شعورا منه بخطورة المرحلة والظروف الصعبة والمعقدة التي يمر بها الوطن الجزائري، التي لا تختلف عن غيرها عند أكثر الشعوب التي تعاني الظلم والغربة والإبادة، ووطأة الاستعمار وتعاني التخلف في شتى ميادين الحياة.

فالجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، استفاقت على دوي واقع العالم المهيمن الذي أنهكته الأحداث السياسية والخلافات المحلية والمعارك الجانبية، " فضلا عن ظهور الفكر الكولونيالي** أو الفلسفة الكولونيالية وهي نظرية تؤكد على التمايز بين البشر وتجعل وجود الآخر - العربي - في مرتبة دنيا لأنها تعتقد أن هذا الوجود يعمل على تهدم تطور الإنسانية والرجوع بها إلى الخلف، ومن ثمة فإن هذه الفلسفة تؤكد على وجودين : وجود الإنسان الأعلى بالتعبير النيتشوي وهو وجود أصيل و مشروع authentique. ووجود لا مشروع، زائف هو وجود الآخر الذي يستمد وجوده من الوجود الأول، و يعيش عالة على ما أنتجه هذا الوجود في شتى مجالات الثقافة والحضارة

* نظم مفدي زكريا الشعر منذ الصغر وكلما تناول أساتذته موضوعا في مقاعد الدرس طلبوا منه أن ينشدهم شعرا فيه فيرتجل بيتين أو أكثر من نظمه حول الموضوع المناسب.

جهاد : في نهاية العشرينات عاد مفدي زكريا إلى أرض الوطن، فانظم إلى حزب شمال إفريقيا الذي كان هدفه استقلال المغرب العربي بكامله ثم السعي إلى توحده ليصبح قوة في الشمال الإفريقي، ثم اخذ هذا الحزب - بعد حله من المحتل الفرنسي - اسم حزب الشمال الجزائري إذ تولى مفدي زكريا منصب الأمين العام للحزب أي أصبح الرجل الثاني فيه بعد رئيسها المباشر مصالي الحاج وكان أيضا رئيسا لهيئة تحرير صحيفة الشعب لسان حال الحزب بالعربية فنشر في صفحاتها المملوءة مقالات ملتهبة نارية لتوعية الأمة وإظهار همجية المحتل الفرنسي و كشف نواياه الخبيثة وفضح مخططاته البعيدة المدى، والعمل لاسترجاع البلاد و تحريره من الدخيل، و لم يكن في صرخاته التي لا تعرف السكون ثابتا في مكان معين، بل يجوب الوطن شرقا و غربا لنشر الوعي و إدخال الفكرة الوطنية العوالم النائمة في صفوف الشعب، إذ ظل يحاضر و يكتب و ينظم الأشعار الحماسية المملوءة بالغضب و الألم التي تلهب المسامع وتستثير النخوة و تدفع الحماس فكان نشيد الأمة فداء الجزائر سنة 1936. ينظر يحي الشيخ صالح، شعر الثورة عند مفدي زكريا ، ص ص 49-52

البركان الذي لا ينام: هزّبت الثورة مفدي زكريا بعد خروجه من السجن سنة 1959 إلى المغرب الأقصى للعلاج، ولم يسكن ولم يهدأ وواصل الجهاد في غربته بين أشقائه بعيدا عن أهله و وطنه بالكلمة الصداحة فتحول إلى سفير للجزائر في العواصم العربية والأجنبية يسمع صوحا عاليا، ويعرف بقضية أبناء الجزائر في أعماق العواصم و يلبسها جحافل المد و الدعم المادي و المعنوي. ينظر: بولحيا الطاهر : تأملات في إلياذة الجزائر لمفدي زكريا، ص ص 37-39

منهج مفدي زكريا في الحياة : وجه مفدي زكريا جل جهوده على مكافحة المحتل الفرنسي الدخيل لإصلاح الأمة بتغيير الفرد طبقا للمبادئ الإسلامية، ولتحقيق هذا المبتغى والنهج أسس جريدة الحياة عام 1933 و خط في مقدمتها نهج حياته و رؤيته. -
** " إن استقلال هذا البلد (الجزائر) الجديد بالنسبة لفرنسا وأوروبا يقودنا حتما إلى إكتشاف الثورة التي بقيت حتى الآن مجهولة من البرابرة...." Le Courrier D'Afrique ، عدد 261 جوان 1845، صدرت بالجزائر، وكانت أسبوعية شعارها الجزائر فرنسية.

وكل ما يتعلق بهذه النظرة التي توسعت دائرتها في هذه الظروف وهذا العصر، تعتبر " إن وجود الآخر الذي يمثل الإنسان العربي المسلم هو وجود عبثي، ضائع فهو -حسب هذه النظرية- يعاني من التفهقر والإفتقار إلى قيادة الذات، فهو وسط القطيع بالتعبير الهيدجيري أو مغترب عن ذاته ومرتبطة بما هو سواه بالتعبير الهيجلي"⁽¹⁾.

وتقوم الفلسفة الكولونيلية التي مثلها مجموعة من الإستشراقين ومن أشهرهم "Sylvain Charles Vallée*" وغيرهم، على نزعة الشعور اللاأوروبي ووضعه في مكانه اللاإنساني، بمعنى محاولة موضعيته بالتعبير الوجودي أي جعله موضوع تأمل ومن ثم إمكانية التحكم في وجوده"⁽²⁾ فضلا عن كثير من المعوقات المؤثرة التي حاولت أن تقهر فيه عزيمة التطلع

- شعارها الإخلاص في العمل الديني و السعي لصالح الوطن رائدها الصدق ومبدئها الصرامة، و كانت هذه الانهج هي مبادئ عمله طيلة حياته.
- حربه. كانت ضد الجهل بكل أشكاله و أنواعه و مسبباته، داعيا إلى ثورة علمية تمفهومها البعيد الواسع، لأنه الوحيد الذي يحرر العقول قبل الأوطان.

.كانت بالرصد للمتمزتين أصحاب المصالح و الأهواء مكبلي عقول الشعوب النائمة في الأباطيل الناعمة بالخمول و الكسل. .كانت ضد الجامدين الذين يتسترون بغطاء الدين، و يقفون بالرصد لكل جديد لا يفقهونه ويعتبرونه إلحادا ومجاراته بدعة، فيجهلهم و تزمهم و جهودهم يعرفون عقول الإنسان، و ياحرون الأمة عن ركب قوافل التقدم و العلم و الحضارة عقودا من الزمن لان بلاهتهم أو صلتهم إلى اعتبار الجرائد حرام و علامات انحراف المجتمع عن مبادئه و عاداته، فهي حسب رأيهم الأبله بدعة افزها و اخترعها الكفار، فغضب مفدي من هذا البهتان البين و رد عام 1927 على هؤلاء.

.كانت ضد المختل الدخيل، إذ فضح بالدليل القاطع نوايا المختل الدخيل الدينية و كشف أبعاد مخططاته الرامية إلى فصم عرى الوحدة، و بث التفرقة عملا بسياسة فرق تسد، واعتبر كل من يساهم و يسعى في تفرقة الشعب و لو بكلمة واحدة عدو للأمة الجزائرية، و هذا الموقف و المبدأ هو الذي التزمه أيام الشقاق الذي حدث عام 1953 داخل البيت الواحد.

.هكذا كان مفدي زكريا عدوا للاستعمار المختل الدخيل و كان عدوا للجهل و عدوا للمتمزتين الجامدين مكبلي عقول الأمة و كان عدوا لكل من تراوده نفسه بث التفرقة و الشقاق بين أبناء الوطن على أساس عرقي أو طائفي أو جهوي أو ديني.

- محمد ناصر : مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة ص11 و ما بعدها أيضا يحيى الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا التعريف بالشاعر ص8 و ما بعدها"⁽¹⁾.

1- عبد العزيز شرف : المقاومة في الأدب الجزائري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1981، ص 76

* سلفان شارل فاللي (1773 - 1846) : ضابط خدم أيام نابوليون في اسبانية، عرف حرب العصابات التي شنها الإسبان على الجيش الفرنسي، فقدم الجزائر وعزل سنة 1940 وحل محله الجنرال بوجو TOMAS Robert Bugeaud هو ممثل السلطة الفرنسية في الجزائر، جوان فيليبسي، الجزائر الشائرة، تعريب خيرى حماد، دار الطبعة بروت 1961، ص 26

2- Nietzsche: ainsi parlait zaramoustra trad. ; George Arthur; ED librairgénérale française -2
1972 pp 420-421

والتغير نحو الأفضل، وحاول أن يشد من أزره ويخلص من سيطرة المستعمر واحتكاراته ويفرض إرادته الخاصة به على أرضه، فأستطاع بفضل الكفاح المرير وبفضل الوعي الوطني والقوي الإنساني المحب للسلام، أن يتخلص من الواقع الإستعماري المفروض عليه، وأن يلتفت بعد ذلك نحو الواقع الإجتماعي من أجل أن يستكمل عملية التضيحية والتغيير وعملية المساهمة في البناء.⁽¹⁾

وستتناول بعض القضايا التي عانى منها الشاعر وشعبه، في شتى الميادين، وصولا إلى تحديد أطرها وجذورها الإجتماعية والسياسية، التي أدمت الفرد الجزائري، وجعلت منه مغتربا أسيرا لشتى إنعكاساتها المأساوية. وسوف نبدأ بأهم القضايا الإجتماعية التي أفرزت ظاهرة الغربة و التي أثرت بشكل أو بآخر في مختلف القضايا الإجتماعية الأخرى، ألا وهي :

1- ظاهرة الرفض والتدريد :

تفطن مفدي زكريا إلى المخططات التي رسمها العدو الدخيل، واطلع عن مناهجها الجهنمية المبيدة، وتعرف عن قرب على ألوان أساليبه اللإنسانية البشعة، الهادفة إلى إزالة كل مفهوم يدعو إلى التمسك بالمبادئ الإقليمية، والوطنية، وحب البقاء والانتماء إلى أرض الأجداد، والتصدي لكل ظواهر الرفض والصمود والمقاومة، عن طريق التجهيل والتفكير والنفي والتشريد والإبادة.. وبتكرل بقايا اليقظة ونبضات الحياة، وشل إرادة الاستمرار فوق أرض الجزائر⁽²⁾.

وأما هذه الظروف المأساوية العويصة، وهذه المناهج القاتلة المبيدة لكل حركة حياة، التي انتهجها العدو الدخيل، قصد تجريد الإنسان الجزائري من إنسانيته، واستعباده على أرضه، وفصم عرى تبقى من هويته⁽³⁾.

1- عفاف سيد صبري : المستشرق ومشكلات الحضارة، ط1، دار الفكر العرب، القاهرة، ب ت ، ص48

2- هكذا صرح جاك شوفلي : 20 أوت 1947 نائب الوحدة الجزائرية"الجزائر هي نحن أما الأهالي (المسلمون) فليس لهم أي حق، لأن الجزائر ليست بلادهم بسبب أنه منذ وصولهم و إذا ما صدقنا المؤرخ البربري الكبير ابن خلدون فإنهم (الأهالي) قد دمروا و هدموا كل شيء وجدوه (...). فالقول أن الجزائر أرض الإسلام مقولة لا معنى لها و هي أكذوبة رهيبة، إذ أن قبل أن تكون أرض الإسلام فإن الجزائر كانت مسيحية" انكسارات "عبد العزيز شرف : المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر ، ص 49

3- شارل روبري أجرون : الجزائر ، " آخر خط للنفوذ الفرنسي"، منشورات جامعة قسنطينة، 2004، ص6

أولاً : _____ بواعث الغربة الاجتماعية، في شعر مفدي زكريا

رفض مفدي زكريا هذه المخططات البائدة الاستبدادية، وندد بأصولها ومبعثها الخطيرة على الإنسان الجزائري، وما تحمله من أفكار بائدة عنصرية عرقية صليبية، ثم عمد سلوكيا إلى إفشال هذه المخططات الجهنمية، وتصدى لنواياها الخبيثة التي لا تنطلي على واع ومدرك لأصولها ومنبتها.

فشرع يعدد مناهج العدو الدخيل، وطرق أساليبه الإستبدادية العديدة، إذ فضح شعارات العدو الدخيل التي كان دائما يتباهى بها أمام الإنسانية وأمام المحافل الدولية، من عدالة وحرية وأخوة بشرية، وأظهر للعيان " بأن الدولة التي كانت تزعم أنها مهد للحرية وقبلة للمضطهدين، أصبحت لا تمارس سوى قانون الغاب، قانون العنف والإرهاب، وبهذا التناقض بين وضعية الفرنسيين الذين يتمتعون بكامل الحقوق والحريات في بلدهم وفي المستعمرات التي يتواجدون بها، وبين الحرمان الكامل لغيرهم منها هنا وهناك، تتجلى الحقيقة القائمة على التضليل والتكرار لمبدأ الحرية، مما يجعل الشعوب الواقعة تحت قبضة فرنسا كالجائر - مثلا - تقاوم سياستها بكل ما تملك من قوة"⁽¹⁾.

فهو يوضح بدقة سياسة التضليل المعتمدة من طرف العدو الدخيل، وكيف يقدم الحقائق الكاذبة، المملوءة بالمتناقضات المكشوفة لشعوبهم البليدة :

وتعلم المستعمرون شعوبها	أن التحكم في الشعوب حرام!
هم حرروا الميثاق، هلا حرروا	أمما، تسام حقارة و تضام ⁽²⁾

لقد وقف مفدي زكريا عند هذه الأباطيل المحررة من موثيق غير مطبقة، وعمد إلى تسفيهاها عن طريق لحيه الذي كان يرسله السنة، تحرق كل ما تصادفه من أوراق الدجل والتضليل الإستعماري، ويفند أكاذيبه ومراوغاته البائسة المدحورة، إذ فضح بالصور والبراهين الواقعية الملموسة، نوايا القادة الفرنسيين الذين زعموا نية مشاركة بعض الشوائب والشوارد من الجزائريين

1 - عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة الجزائرية في الأدب المعاصر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1987، ص 248

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس (وتعطلت لغة الكلام)، نظمت بسجن بربروس، عندما حذلت المنظمة الدولية القضية الجزائرية في دورتها الثالثة عشر ، ص 43

في الإنتخابات التي "عزم (غني مولي) رئيس حكومة فرنسا آنذاك تنظيمها بالجزائر في شتاء 1958" (1) ، فيتصدى مفدي زكريا لهذه الخديعة التي تخول للعدو عن طريق بعض الجزائريين المنتخبين، تمرير العديد من مخططات وتحقيق مراميه وأهدافه فوق أرض الجزائر، فوصف بحرقه وألم وحسرة وغربة قاتلة، ألوان الأضاليل الكاذبة التي أقدم عليها العدو الدخيل، وكيف بدل وحرف المطالب الشعبية، وحقوق الإنسان الجزائري إلى غير مقاصدها، فيقول :

لَاذَ بِالْإِنْتِخَابَاتِ (مُولِي) * سَفَاهًا	فِي بِلَادِ تَسِيلِ فِيهَا الدِّمَاءُ !
أَيُّ مَعْنَى لِمَجْلِسٍ دُونَ حَكَمٍ	وَطَنِي، عَلَى يَدَيْهِ الْقَضَاءُ ؟
نَحْنُ نَبْغِي اسْتِقْلَالَنَا... حَرْفُوهُ..	مَا اسْتَطَعْتُمْ... إِنْ صَدَّ عَنْهُ الْحَيَاءُ..
إِنْ جَهَلْتُمْ طَرِيقَهُ... فَعَلَيْهَا	(لَا فِتْنَات) ... حُرُوفُهَا حَمَاءُ! (2)

إن المتتبع لهذه الأبيات، يدرك إحساس الشاعر الحزين وآلامه التي مزقت أحشائه، كما مزقت الأبيات حسرة وغضبا، وأثبتت بالمحسوس المطلق "نوايا الأعداء المبيتة، ويبطل خططهم المدبرة، ويكشف سياستهم الدنيئة، ويبين أن كل محاولة تهدف إلى الحيلولة دون تحقيق الإستقلال الوطني لن تجد سوى الرفض القاطع، والمقاومة العنيفة من لدن الجماهير الثائرة، ولن تزيد الثورة إلا إذكاءً و تصعيداً" (3).

ويهدد بقاءه ووجوده فوق البسيطة، عزيمة فولاذية، وتصميم فريد من نوعه، فهو يتتبع حركات العدو الدخيل، ويستقصي أفكاره وينفذ إلى نواياه ومخططاته، وهو في غياهب السجون من وراء القضبان، غريبا وحيدا، فيذكر العدو قاتلا :

1- عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة الجزائرية في الأدب المعاصر، ص 249.

* غني مولي : رئيس الحكومة الفرنسية أيامها (ص 53 اللهب)

غني مولي : زعيم فرنسي إشترافي تولى رئاسة الوزارة، زار الجزائر في 6 فيفري 1956

ينظر : HASSAN CHEBLI : pour une terre de soleil, Armond colins, du Paris 1967 p13

2- مفدي زكريا : اللهب المقدس (حروفها حمراء) وكانت جوابا (لغني مولي) الذي دعا للإنتخابات 1958، ص ص 53-54

3- عبد الرحمان حوطش: شعر الثورة الجزائرية في الأدب المعاصر ، ص 249 .

هَيَّهَاتَ، في استقلالنا، أن نُخَدَعَا	خَيْرَ فرنسا، يا زمان بَأْنَسَا
حكم الزمان، فما عسى أن تصنعا؟	وَاسْتَفْتِ يا دِيغُول* شعبك، إِنَّهُ
لَا!! لَنْ أُبَيِّحَ من الجزائرِ إصْبَعًا..	شعبُ الجزائر، قال في اسْتِفْتَائِهِ
فَمَضَى و صَمَّمْ أن يثُورَ، وَيَقْرَعَا ⁽¹⁾ .	واختار يوم (الاقتراع) نفمبراً

وبهذه الوقفة المقدمة، المشحونة بالغضب، والحزن والحسرة على الأوضاع المزرية والظروف القاسية التي يعيشها الإنسان الجزائري، حدد مفدي زكريا موقفه، وتموضعه من العدو الدخيل، وذكره أن مخططاته الإجرامية، وبرامجه الإستتصالية غير مجدية تحت سماء هذه الأرض الغالية على أصحابها، وأن وعوده الكاذبة وأباطيله المحسدة في الواقع بالجرائم والتهجير والإبادة، أصبحت معلومة لدى العام والخاص، لن ينخدع بها فاقد الوعي، جاهلاً للحقائق عديمها. وأن فرنسا مهما قدمت من إدعاءات وإفتراءات لتضليل مواطنيها الماديين، وتوجيه أنظار الأمم وجهة غير سوية، فإن الحقيقة الميدانية للظاهرة العدوانية بينة، لا يمكن أن تحجبها أقاويل ويسيرها بهتان، وأن الشعب الجزائري لن ينسى ما حدث له من أهوال ومآسي، وفوق أرضه وقعت جرائم وفظائع بشرية، وفي كل شبر من أرضه الجزائر صورة أليمة وذكرى حزينة و ألم وغربة ومظاهر بؤس وشقاء يقول مفدي داميا متأسيا.

أو تنسها أَلَمَ المصاب الأعصرُ	إن الجزائر لم تنم عن ثأرها
عهدي بنا، طول المدى تَنَذَّرُ!	هل جئت يا "يوليو" تذكركنا الأسى؟
وبكل شبرٍ في الجزائر، منظرُ	في كل حيٍّ بالجزائر، صورة
للعالمين، عن (التمدن) مظهر ⁽²⁾	هي وصمة التاريخ! في أطوائِها

* - ديغول : رئيس الحكومة الفرنسية يومها، هكذا ورد الاسم في الديوان.

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (إقرأ كتابك) بمناسبة الذكرى الرابعة لإندلاع الثورة التحريرية، يوم 1 نوفمبر 1958 في سجن (البرواقية الزنزانة رقم 375) ، ص 67

2 - المصدر نفسه : اللهب المقدس (وتكلم الرشاش جلا جلاله!!)، ذكرى احتلال الجزائر، جويلية 1830، ص 137

أولا : _____ بواعث الغربة الإجتماعية، في شعر مفدي زكريا

كما يوضح أن الإنسان الجزائري واع بخيوط المؤامرة، ذكي جدا، ليس ذلك الإنسان الذي نسجته خيوط العنصرية في العوالم الباطنية للعدو الدخيل، على أن الإنسان " الجزائري في رأي المستعمر الطمع، متخلف و خامل و هو لا يعرف إلا السيف، و لا ينحني إلا أمامه وأدرك أننا أذكى منه، فلنظهر له أننا الأقوى فيطيعنا"(1).

وقد حفظ الجزائري دروس هذه المواقف، وتمرس على مثل هذه الأفكار اللاسوية، وذاق من نتائجها الواقعية الجهنمية وهو اليوم قد عقد العزم أن يزيل من ممراته أسباب الغربة والتشرد والظلم، وأن يستعيد بدمه وروحه، حقه المسلوب وأرضه المغتصبة عنوة، بأسلوب جديد فيه كلام غير مجدي وغير مباح، لأنه إهتدى إلى أفضل لغة تفهم بدقة ووضوح فوق الأرض، ويستمتع لها الجميع بخشوع وترو، هي لغة الرصاص جل جلاله، الذي يخرس لغة الأطماع ويوقف همجية الجبابة الطغاة، يقول مفدي :

وتكلم الرشاش، جل جلاله...!!	فاهتزت الدنيا، و ضَجَّ النَّيِّرُ
وتزلت آياته، لها بـــــــة	لَوْاحَةٌ، أَصْغَى لها المِسْتَهْتَرُ
والنَّارُ، لِلألم المبرح، بلسَمَمُ	يُكْوِي بها العَظْمُ الكَسِيرُ فَيُجْبِرُ
والنَّارُ في "مَسِّ الجنون" عَزِيمَةٌ*	يُصَلِّي بها المستعمر المُتَكَبِّرُ(2)

ومن أغوار هذه الحمم، إشتق مفدي زكريا لغته الملتهبة، المعبرة عن معاناته ومآسي شعبه وجعل منها أحسن لغة يؤمن بها، لأنها الشافية للقلوب الحزينة المضطهدة، وأفضل اصطلاحات للمشردين التائهين ظلما فوق الأرض، و أحسن صوت يزيل من به صدئ في القلب، وصمم في بواطن السمع، وفي نفسه عنجهية انفصام وعلة. لغة سوية تعيد الحق لأصحابه وتعيد الضال

1 - Paul gaffarel "l'algerie, histoire conquête et colonisation " librairie de friemin-bielot et Cie Paris 1883 P 266

* عزيمة : أو العزيمة : هي الرقية بالنار في المجتمع الجزائري، يكوى بها جبين من به مس من الجنون، اللهب، ص 134 .

ينظر : اللهب المقدس، ص 134

2 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتكلم الرشاش جل جلاله!!) ، ص 134.

أولاً : _____ بواعث الغربة الإجتماعية، في شعر مفدي زكريا

والمضللين من الطواغيت إلى صواهم، فيشل عندهم اللسان، عندما يرون حقيقة الأشياء،
فيحدث في أجهزتهم الدهول، ويصابون بالرهاب القاتل، كما حدث لزعيم المرتزقة الفرنسيين،
يقول مفدي ساخرا :

(ديغول) يعلم ما نريد ويفهم ما باله، حيران لا يتكلم..؟
فقد الصراحة، أم أضاع فصاحة أم أن تقرير المصير، توهم؟⁽¹⁾

ثم ينفجر غضبا، تتراعى شحناته النارية المملوءة بالظلم والبطش، وكأنها شظايا قاتلة يلقي بها
على وجه ديغول ومخططاته، ساخرا متهمكا من وعوده الكاذبة، التي أصبحت لا تنطلي على
أحد، موضحا أن الكلام المعسول الذي يسيل على رقاب الشعب سماً قاتلا، قد أصبح معلوما
مفهوما مدروسا، و أن الصراط الذي انتهجه الشعب للخروج من غياهب الظلم والفقر والجهل
والتشريد واضح، يقول مفدي :

يا فرنسا.. كفى جهلاً، فإن لنا شعباً يرى الموت، في استقلاله، ديناً
حرب الجزائر، أبقت في دياركم قومًا ذئاباً... وشباناً ثعابيناً
أبعد خمس شداد، ملئت عجباً "دي غول" بالكلم المعسول يُعربنا
لا سلم في الأرض، ما دامت قضيتنا لم تلق في الأرض، بالقسط الموازين
ثرنا على الظلم، لا تلوي على أحدٍ لا شيء في الكون، دون العز يُرضينا⁽²⁾

لأن هذه الثورة لها ما يبررها، من ظواهر بطش لم تعرفها الخليقة فوق البسيطة منذ عرف
الإنسان الأرض ومن عليها، في ثورة على الظلم والغربة والقتل.. يقول مفدي زكريا متألماً وحيدا
في مساكن غربته حزينا :

أضر به معذبه، فثاراً... وأرهقه مسخره، فطاراً....
ومن طلب الكرامة، وأبتغاهَا يقدم مهرها المهج الحراراً...⁽³⁾

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس ، (أهدافنا في العالمين صريحة)، سنة 1959 عند خذلان الأئمة الإفريقية الآسيوية من طرف تحالف دول

الحلف الأطلسي أمام المنظمة الدولية في دورتها الرابعة عشر، ص 143

2 - المصدر نفسه : (ماذا تحبته يا عام ستينا ؟) ، ص 149

أولا : _____ بواعث الغربة الإجتماعية، في شعر مفدي زكريا

3- المصدر نفسه : (ذروا الأحلام وأطرحوا الأمان)، أثناء المؤتمر القومي بليبيا 1960، ص ص 152-153
هذه بواعث الغربة المملوءة بالألم والثورة، وعلى مخططات وأهداف العدو الدخيل، وعلى مناوراته المفضوحة المكشوفة الكاذبة، والمملونة بدم الأبرياء المهجرين المنفيين من أراضيهم وديارهم، تعكس أكثر من معاناة وتعطي أكثر من معنى عن مأساة الشعب الجزائري طيلة الإستعمار الفرنسي، كما تعكس وعي مفدي زكريا، وبعده نظره في إدراك أبعاد الأهداف الإستيطانية الوحشية " والنوايا الإستعمارية ومخططاتها الهادفة إلى تعميق الوجود الفرنسي، و تأييده في هذه الأرض المغربية العربية الإسلامية"(1).

وبناء على ما تقدم نخلص إلى أن مفدي زكريا، قد تصدى بكل ما أوتي من جهد وقوة، إلى مخططات وأهداف العدو الدخيل، إذ رفضها شكلا ومضمونا، ثم سعى في فضح أبعادها، والتشهير بنواياها ومراميها، فكان جهادا مريرا ضد العدو الدخيل و باعثا من بواعث غربته و معاناته طوال ليالي الاستعمار.

2- ظاهرة الفقر والحرمان:

الفقر هو أبرز المشكلات الإجتماعية التي عرفها الإنسان منذ الأزل، من حيث الفاعلية والتأثير لظهور ظاهرة الغربة، أنه الخلية والبؤرة العميقة التي تنمو وتترعرع فيها أعظم وأكثر الآفات الإجتماعية الأخرى التي تسد منافذ التطلع والتقدم عند الإنسان والمجتمعات، كالجهل والتخلف والمرض. وكان مفدي زكريا ييغض هذه الظاهرة بغضا شديدا لأنه ذاق " منذ مطلع شبابه مرارة الكدح في سبيل لقمة العيش، و لقي في سبيلها الإرهاق والتعب"(2)

وَنَشَأْتُ مَقْصُوصَ الْجَنَاحِ مُعَذِّبًا، أَقْضِي الْحَيَاةَ مَضَاضَةً وَعَنَاءً(3)

كما كان يكره كل المسببات والمصادر التي تعمل وتساعد على انتشاره، ولذلك فهو ييغض الاستعمار والاستغلال والسطو وكل مفاهيم السلب والأخذ عنوة، وكل معاني الانتزاع،

1- عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة الجزائري في الأدب المعاصر، ص 250

1- محمد ناصر : مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، ص 11

2- مفدي زكريا : أجمادنا تتكلم، (أهلا بنسل الفاتحين ومرحبا)، ص 134

أولاً : _____ بواعث الغربة الإجتماعية، في شعر مفدي زكريا

أو الإزالة، لأن هذه التي كانت سبب انتشار الظلم والفقر والحرمان، يقول مفدي زكريا :
في الجزائر قُطّاع، قد التهموا خير الجزائر، زُفُومًا وِغِسلِينًا⁽¹⁾

لقد كان مفدي زكريا يكره أن يستغل الإنسان أخاه الإنسان، إن المحتل والظالم المستبد في أي مكان فوق الأرض يحمل معه البطش والفقر والحرمان، ولقد كانت فترة احتلال الجزائر من طرف الدخيل الفرنسي، من أحلك فترات تاريخ الجزائر، إذ كانت كلها مآسي وويلات وجحيم وبؤس وشقاء، كما كانت مخططاته الجهنمية، منذ أن وطئ هذه الأرض الغالية على أهلها، تتجه وتهدف في مباحثها الأساسية، إلى فصم الرباط الأصيل، والروابط الحميمة بين الإنسان الجزائري وأرضه، هذه التربة التي ألفها والفتته منذ غابر الأزمان.

ولقد لجأ المحتل الدخيل منذ الوهلة الأولى للاحتلال، إلى تجريد الجزائريين من أراضيهم الزراعية*، ومن جميع ممتلكاتهم، ومنحها هدية صائغة للمستوطنين الفرنسيين، وبعض الأجناس الأوروبية الأخرى " إن نظرة عابرة إلى تطور الوضع الزراعي وتوزيع الأراضي يجعلنا ندرك أن الشعب الجزائري أصبح غريبا في وطنه"⁽²⁾ واعترف أحد أعلامهم الفكرية والسياسية، ويدعى أناتول فرانس بهذه الأعمال الوحشية والسطو والأخذ أرض الجزائريين عنوة وتشريدتهم، عندما قال مشتمزا من سياسة فرنسا في الجزائر " إننا منذ سبعين سنة، قد حرمتنا العرب من أراضيهم وطاردناهم لكي نجعل الإيطاليين والأسبانيين سكان الجزائر"⁽³⁾.

ولم تتوقف مخططات المحتل للإستحواذ على كل شبر من أرض الجزائر، حيث لجأ إلى " اكتشاف لون جديد من السرقة، عرف بسياسة تحديد ملكية القبائل، وبموجب القرارات

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (ماذا تحبته يا عام ستينا)، ص 150

* من سنة 1840 الى 1920 استولى الإستعمار الفرنسي على 10325000 هكتار

Charles Robert Ageron, histoire de l'Algérie contemporaine (Presse universitaires de France) Paris, 1964 pp 50-51.

JEANSON COLETE ET FRANCIS: L'ALGERIE HORS- LA LOI, édition du juil -2
Paris 1955 pp 140-141

Charles Henri Ferand : la révolution algérienne (plon) Paris 1959 p 20 -3

التعسفية و ممارسة سياسة العصا الغليظة، استقر نظام الملكية في 1887م على الوجه الذي يرضاه الاستعمار، حيث بلغت ذاك ملكية الدولة المستعمرة أحد عشر مليون من الهكتارات.⁽¹⁾

وقد أثمرت هذه المخططات اللاإنسانية الإستعمارية مدة مائة وثلاثين سنة، حيث أفرزت إلى السطح طبقة نموذجية جديدة في المجتمع الجزائري، قوامها أربعة ملايين أو يزيد من الكادحين المنبوذين المعدومين.

الشيء الذي أدى إلى فرار آلاف من أحرار الجزائر بجلودهم إلى مناطق قاحلة جرداء، يغلب عليها الطابع الجبلي والصحراوي " أين تنعدم الشروط الأساسية للحياة، ومن أجل الحفاظ على حياتهم واتقاء خطر الموت الذي أصبح يهدد أولئك المطرودين من أراضيهم وديارهم مجبرين على أن يتحولوا إلى عبيد و أجراء، يعملون في أراضيهم المغتصبة لصالح المعمرين لقاء ثمن زهيد وقوت حقير، كثيرا ما تتبعه إهانات ومعاملات غير إنسانية"⁽²⁾

وقد تمخض عن هذه المخططات الإجرامية، وهذه الممارسات اللاإنسانية البشعة، هجرة الجزائريين إلى بلدان عديدة، بحثا عن النجاة من إبادة، وعن الرزق في ظروف قاسية، وهي ثوابت تاريخية تؤكد تدهور أوضاعهم الإجتماعية، واستفحال آفتي الفقر والحرمان.

وقد عايش مفدي زكريا، ما كان يجري من أحداث و تطورات على أرض الجزائر، ووقف بشعره عند مختلف الأوضاع والظواهر خاصة الإجتماعية منها، وأبرز ظاهرة الفقر والحرمان التي استفحل خطرهما في قصائده، نتيجة البطش والتهجير الجماعي والإبادة، حيث صور في شعره العديد من الظواهر اللاإنسانية التي سلكها المحتل الدخيل فوق أرض الجزائر ضد الأهالي، كما أبرز خطورة هذه المعاناة، و كشف أساليب المخططات الإستعمارية وخطورة إبعادها، إذ يقول :

1- حمدي حافظ و محمود الشرفاوي : (الجزائر بين الأمس و اليوم)، المؤسسة العربية للأنباء و النشر و التوزيع و الطباعة، الدار القومية العدد 272، ب ت، صص 18-20

2- عبد العزيز شرف : المقاومة في الأدب الجزائري، صص 38-39

أولاً : _____ بواعث الغربة الاجتماعية، في شعر مفدي زكريا

يَا فِرْنَسَا، كَفَى خِدَاعًا فَإِنَّا يَا فِرْنَسَا، لَقَدْ مَلَلْنَا الْوَعْدَ
صرخ الشعب منذرًا، فَتَصَا مَمَتِ، وَأَبْدَيْتِ جَفْوَةً وَ صَدُودًا⁽¹⁾

كما صور الحالة المأساوية التي أصبح عليها الإنسان الجزائري، الطريد الشريد التائه فوق أرضه فيقول :

أَمِنَ الْعَدْلُ، صَاحِبُ الدَّارِ يَشْقَى * وَدَخِيلُ بَهَا، يَعِيشُ سَعِيدًا ؟!
أَمِنَ الْعَدْلُ، صَاحِبُ الدَّارِ يَعْرِى، وَغَرِيبٌ يُحْتَلُّ قَصْرًا مُشِيدًا !
وَيَجُوعُ ابْنُهَا، فَيَعْدُمُ قُوَّتًا * وَيَنَالُ الدَّخِيلُ عَيْشًا رَغِيدًا ؟؟
وَيُبِيحُ الْمُسْتَعْمَرُونَ حَمَاهَا وَيُظِلُّ ابْنُهَا طَرِيدًا شَرِيدًا ؟؟⁽²⁾

فيغتاض، ويتصبب شحنته دما، لما أصابه وشعبه من ظلم الدخيل، وضيق أعماله ومخططاته الجهنمية، فيوجه الخطاب الإنساني المدرك لأسرار الحقائق، مشحونا بالإغتراب المركب، أن لا يسقط هذا الإنسان المدحور المظلوم، في غياهب الرضا بالقضاء، ويسكن للهوان، ويرضى بالذل، فتلك مصيبة المصائب تزيد الشاعر غربة في غربة، فيقول : مستنهضا الهمم، بئس الإنفعال خائفا عواقب السلوكات وإرتدادها، لأنها إن حدثت ذلك الفناء عينه.

يَا ضَالَّالِ الْمُسْتَضْعَفِينَ، إِذَا هُمْ أَلْفُوا الذَّلَّ، وَاسْتَطَابُوا الْقُعُودَ!!
لَيْسَ فِي الْأَرْضِ، بَقْعَةٌ لَذِيلٍ لَعْنَتُهُ السَّمَاءَ، فَعَاشَ طَرِيدًا...
يَا سَمَاءَ، أَصْعَقِي الْجَبَانَ، وَيَا أَرْضَ ضُ ابْلَعِي، الْقَانِعَ، الْخَنُوعَ، الْبَلِيدَ⁽²⁾

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس (الذبيح الصاعد)، نظمت بسجن (بربروس) في القاعة التاسعة أثناء تنفيذ حكم الإعدام على أول شهيد دشن المقصلة أحمد زيانا في ليلة 18 جويلية 1955، ص 17

* من الذين تصدوا لظاهرة الفقر، فرحات عباس في كتابه، La nuit coloniale Juliard 1962 paris p120

* كان أفراد الجيش الفرنسي يستبدون ويجبرون الأهالي على ترك أراضيهم، خشية الموت

Jules Roy : La guerre d'Algérie édition Bernard Paris, 1950 p162.-

2 - المصدر نفسه : (الذبيح الصاعد)، ص 16-17

أولاً : _____ بواعث الغربة الإجتماعية، في شعر مفدي زكريا

كما يصور إحساس الشعب العام بالغربة في وطنه، ويبرز ظاهرة الفقر والحرمان واضحة، هذه الظاهرة التي طالما عانى منها الإنسان الجزائري، إذ يرى بأن الإنسان قد ولد حراً، يتحكم في مصيره كما يرى ويدرك دون أن يتحول إلى عبد يُتحكم في إرادته ومصيره، لذا نجده يندهش عند هذه المتناقضات السلبية الجائرة، ويتساءل عن سبب ونوايا فاعليها، الذين أفرزوا إلى الظاهرة الكونية وضعية مأساوية آلت إليها حالة الإنسان الجزائري، إذ جرد من حقه في الحياة فصار غريباً فوق أرضه شقيقاً، بينما الغاصب الدخيل ينعم بالحياة التامة التي استحالت إلى ألوان البذخ والترف والإستقرار، والتقلب في نعيم الدنيا، على حساب صاحبها الشرعي، الذي غُرب عنها، وفتك به الجوع ولازمته الغربة في كل مكان حل به، فيصبح ألماً وغربة من جراء هذه الممارسات الجهنمية اللاإنسانية فيقول مفدي زكريا مذكراً :

ليس في الأرض سادة وعبيد كيف نرضى بأن نعيش عبيداً؟⁽¹⁾
مضى زمن القياصرة القدّامى وعهدُ الفتك بالضعفأ تَوَارَى⁽²⁾

إن عهد العبيد قد ولى وإلى الأبد، وأن مثل هذه الجرائم ضد الإنسان الجزائري بينة لسكان الأرض، ولا يمكن أن يوصف بها إلا من كانوا مرتزقة، ولا شيء يمكن أن ينطبق على المرتزقة الشذاذ الغاصبين أرض الأسوياء الآمنين، إلا أنهم لصوص وقطاع سبيل، رُفعتهم مواطن غرائزهم الإجرامية إلى الإعتداء والنهب والتنكيل، والإستحواذ عنوة على خيرات البلاد واستغلالها بغير وجه حق ، فيقول :

وفي الجزائر، للتنكيل، مدرسة* تعلم الفتك بالشعب، الشياطيناً
وفي الجزائر، للتمثيل محكمة فيها، الفظائع، سموها قوانيناً
وفي الجزائر، نيران مؤججة تذرّو المساكن، لم تُعفّ المساكن

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص16

2 - المصدر نفسه : (ماذا نخفيه يا عام ستينا ؟)، ص155

* أسس الفرنسيون بالجزائر مدرسة خاصة في تعليم الشرطة في مدينة سكيكدة، لجنود المظلات مختصة في أساليب التعذيب والتنكيل، ينظر : اللهب، ص 150.

وفي الجزائر، قُطّاع، قد التهموا خبير الجزائر، زُقومًا وغسلينا⁽¹⁾

هذه الصور البشعة التي رسمها الشاعر الحزين، لا يمكن أن ترسم بهذه الدقة المتناهية إلا داخل عمود الشعر، فهي قد أملت إلى حد بعيد بمأساة الشعب، وما يعانيه من غربة داخل وطنه وذل وضياح، فنجده يثور على هذه الظواهر الأليمة، وهذا الوضع المزري، مستنهضًا خامد الهمم من أبناء الجزائر الأشرف الأحرار، إلى إدراك أبعاد غربته ومأساة معاناته، وأن ينظروا إلى ما أصاب بلادهم من كوارث الدخيل البغيض الذي عاث في كل شبر منها فسادا، بأهلها استعبادا وبطشًا وتهجيرًا وإبادة، وأرسى فيها ألوان الجهل والفقر، على مرأى ومسمع بعض المرتزقة من النواب، الذين تباع وتشترى ذممهم بأحط وأنجس تقدير، فتزداد وتتصاعد نيران غربته، وتتعالى صرخات آلامه وأحزانه على أمتة المكبلّة من جميع النواحي، التي لم تجد في العالمين منقذاً أو منصفاً فيقول :

اتقوا الله، في الجزائر، يا نـا	س، فقد ضاقتِ الجزائر صبراً...
عاث فيها الطغاة، عسفاً وظُلماً	ورماها البُغاة، جهلاً و فقرًا
و استذلّت رقابها، فتراها	وهي في أرضها، تجوع وتعرى
واستترقت نوابها، ليس إلا	ذممٌ كالدمى، تُباع وتشتري
و ضميراً منافقاً، ظل يُخـنّا	ل، ويختان شعبه: بَاء حُسراً ⁽²⁾

لقد أدرك مفدي زكريا مخططات العدو الدخيل، منذ أن وطئ أرض الجزائر، إذ يعتمد سياسة التجهيل و التجويع حتى يستطيع البقاء والديمومة في هذه الديار المملوءة بنعيم الدنيا وخيراتها المتنوعة، ويفلح في الحكم في مصيره وإخضاعه، وأول صورة وظاهرة قام بها المحتل الدخيل في برنامجه العدواني، هي ظاهرة تشريد الأهالي من على أرضهم حتى يهيئوا ولا يقر لهم قرار، فأقدم على مصادرة الأراضي الزراعية التي كانت في يوم ديوان حبوب أوروبا بكاملها،

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (ماذا تخبئه يا عام ستينا ؟)، ص 150

أولا : _____ بواعث الغربة الإجتماعية، في شعر مفدي زكريا

2- المصدر نفسه : اللهب المقدس (شاكر الفضل ليس يعدم شكرا)، بمناسبة تكريم الأستاذ أحمد المدي 1955 ، ص ص 281 - 282
من أصحابها ودفع " بالفلاحين في بلاد القبائل إلى أكل العشب وأوراق الشجر وهم شبه عراة"(1).
كما قام بزرع الجهل، عن طريق نهب الكثير من المخطوطات العربية القيمة، وأتلف بعضها عمدا أو حرقا وذلك بشهادة رحالة ألماني هو " **موريس فاغنر Morice Wagner** " الذي قام في الجزائر مدة طويلة وذلك بعد احتلالها بست سنوات، وشارك في الحملة على مدينة قسنطينة، وذكر فاغنر " رحلات في ولايات الجزائر " أن جنود فرنسا قد أتلّفوا عددا كبيرا من المخطوطات النفيسة التي عثروا عليها في دار بن عيسى بقسنطينة"(2).

كما أقدم على غلق مؤسسات التعليم بمختلف تخصصاتها، بما فيها مؤسسات التعليم الديني، كما حولت بيوت الله من مساجد ومدارس قرآنية إلى كنائس* واصطبلات، نفت العلماء وشردت الفقهاء. و بهذه الأعمال الإجرامية يكون العدو الغاصب قد سد جميع منافذ الحياة على سكان الجزائر الأصليين، وفتح مراتع العزة والترف والنعيم والثراء إلى كل من هو دخيل هجين مستقدم من أوروبا.

إن النماذج الشعرية التي رصدها مفدي زكريا، من صور البؤس والغربة والفقر والجهل المتناثرة داخل الظاهرة الإجتماعية والطبيعية، تعكس بصدق غربته الأليمة، وغربة الإنسان الجزائري فوق أرضه وبعيدا عنها، ونحس من خلالها بالثورة المؤثرة الحزينة " بشقاء الفلاح وأنيته وتشاؤمه، كما نحس بذلك في شعر الرومانتيكيين، إلا أنه في آخر القطعة داخله الأمل كيف لا وهدف الثورة هو تحرير الجزائري فلاحا كان أم غيره من الفقر والجهل والعبودية، فالأرض سترجع عاجلا أم آجلا إلى أصحابها"(3)

1- عبد الغني مغري، La paysannerie, face à la colonisation (Edition en APE), Alger 1973, page 33.

2- نور السلطان : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص ص 53-54

ينظر أيضا : Actes du XIV congres international d' alger, 1905 3^{eme} partie, pp 602-603

* مسجد سيدي مروان : في عناية يعود إلى القرن الرابع الهجري حول إلى مستشفى.

هدم مسجد كشاوة الذي شيد سنة 1206هـ وبيت دكانه كنيسة سانت فيليب سنة 1853 وحول مسجد سيدي بلحسن في تلمسان الذي حول الى متحف... الأصلة : العدد الممتاز 1972 المعد في أبو عبدلي الإحتلال الفرنسي ومقاومة الشعب في الميدان الروحي، ص 309

3- محمد الطاهر الطمار : تاريخ الأدب الجزائري، ش و ن ت ، ب ت ، ص 338

والأمل الذي يشع في قصائده والذي - عساه - أن يزيل هذه الغربة ويذهب أغوار هذه الأحزان.

وهكذا نخلص إلى أن غربة مفدي زكريا كانت ببواعثها الإحتلال الفرنسي، والمخططات الجهنمية التي رصدها للشعب الجزائري، لأبادته وتغريه، والشواهد التي عرضها من نماذج شعرية، تصور غربته، وتعرض المآسي التي لحقت بالشعب الجزائري، ويمكن أن نلتمس له عذرا إذا كانت في قصائده المعبرة عن غربته أساليب متوسطة في بعض الأحيان، لان ذلك راجع لاهتمامه بالمضمون الحاد الذي يعرض الظواهر العابسة الحزينة والمشاهد المفزعة التي تعرض لها في السجن وخارجه، لذا يعد هذا النمط من المآسي مواطن أحزانه، كما أن ظاهرة المبرر لها، قد طغت على قصائد الغربة عنده على الجانب الفني، ولكن تظل هذه الوثائق الفنية مملوءة بالأحاسيس الصادقة معبرة عن الظواهر التي تعرض لها الإنسان الجزائري إبان الثورة، و وثائق هامة يعجز التاريخ أن يصورها...

3- ظاهرة الجهل والتخلف :

للجهل أواصر قرابة وانصهار تام تربطه بالفقر والحرمان، لأن كلاهما يُعد بابا واسعا يقود ويفضي إلى الغربة والإغتراب، إذ يمر أحديهما منه إلى الآخر، فالفقر يتحكم بالأجساد والقدرات التي " ينطلق بها الإنسان نحو تحقيق أهدافه، والجهل يتحكم بالنفوس والعقول والطباع، ويجعلها تعيش في دوامة التخلف والتقهر والضياع"⁽¹⁾

لقد عانى الشعب الجزائري من الجهل بسبب الإحتلال الفرنسي، سنينا طويلة وبسبب " تعسف السلطات الإستعمارية تجاه الأطر التعليمية الجزائرية التي كانت موجودة آنذاك، حيث عطلت الزوايا عن أداء مهامها التعليمية والخيرية، وأغلقت الكتاتيب القرآنية والمدارس بمحد القانون الإستعماري الجائر"⁽²⁾.

1- الهاشمي علوي : " من أين يجيء الحزن"، دار العودة، بيروت، 1972، ص83

2- عبد الله حمادي : الحركة الطلابية الجزائرية (1962 - 1971) ، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1995، ص 10-11

حيث خبت فيها أنوار المعرفة، ودفع بالعديد من أبناء الوطن إلى الغربة، إذ " هجر المدرسون بالنفي* والحبس والإعدامات فكانت ثمرة العشرين سنة من الاحتلال للجزائر التجهيل بالجملة للشعب الجزائري"(1).

حتى كان العصر الحديث الذي تفتحت فيه العقول وأينعت البصائر المغمضة عنوة، وبدا ذلك السبات الذي خيم بستاثره فوق أرض الجزائر يندثر ويتبدد شيئاً فشيئاً تحت ضربات الوعي الوطني الجزائري .

جاء مفدي زكريا في هذه الظروف الصعبة، لابسا عباءة هذه الأوضاع المعقدة، وتحمل مسئولية سنين من الزمن من جهل وفقر وحرمان وتخلف، تراكمت يوماً بعد يوم، فأضافت إلى المعاناة والمأساة والعذاب، عذاباً وإلى الغربة غربة، وإلى الجهل والشقاء ستاراً وحجاباً، حتى سدت المنافذ والكون، وقضت على كل بصيص من نور وأمل، فحزن الشاعر، وتألم لما أصاب الإنسان الجزائري من مأساة، فيوجه أنينه ولومه للدهر الذي سبب هذه الوضعية لأهله، وشوه صورة وطنه المسلوب.

هو الدهرُ ما أبقي بمقلته دمعاً	وتلك الليالي السود جرَّ عنه النَّزعاً
فأصبح يبكي صامتاً بقريحة	تجمعت البلوى على وأدّها جمعاً
كئيبٌ يُناغي كلَّ نضو معذب	بمُهَجَّتِه الحُرَّى على وطن يُنغى
وينظر مكلوماً إلى حظٍّ أُمِّه،	ويبرحها، ويلاه قَادَتْهَا صَفْعاً
وما كان غيرُ الشَّعرِ سيفاً لبائسٍ	يخاطبُ موْتى، لا تُطيقُ لَهُ رجْعاً(2)

* "إن السلطة الفرنسية قد حكمت بالنفي والإبعاد على الشيخ العلامة علي خوجة، والعلامة محمد بن محمود المعروف بابن العناي المني الحنفي : ابن الإسكندرية، حيث أسندت إليه الحكومة المصرية منصب مفتي الديار، وبقي إلى أن مات هناك ...

الأصالة : العدد الممتاز 1972، المهدي أبو عبدلي : الاحتلال الفرنسي ومقاومة الشعب : ص 309

1- عبد الله حمادي : الحركة الطلابية الجزائرية (1962 - 1971) ، ص 11

2- مفدي زكريا : أجمانا تتكلم، وقصائد أخرى، جمعه وحققه، مصطفى بن الحاج بكير حمودة، مؤسسة مفدي زكريا، ANEP، الجزائر 2003، (يا رحمة الله حلي في منازلنا)، ص 81

ثم يصف معدد بواعث غربته، و مباحث هيب حزنه وأساه، فيقول مذكرا بالجهل الذي إذا أصاب أمة، جردها الحياة وأدخلها ظلمات التخلف :

مَخَازِيكَ مِنْ يَوْمٍ يَرَى بَعْدَهُ نَفْعًا ؟	أَمَّا سَاءُ أَبْنَاءِ الْجَزَائِرِ هَلْ إِلَى
عَلَيْكَ ، وَكَمْ لَاقَيْتَ مِنْ خِيَّةِ الْمَسْعَى	جَزَائِرُ مَا أَدَهَى خُطُوبًا تَعَاقَبَتْ
إِذَا حُلَّ شَعْبًا، صَاحٍ، أَوْرَدَهُ النَّزْعَا	جَزَائِرُ مَا أَشْقَاكَ بِالْجَهْلِ، إِنَّهُ
مِنْ الدَّهْرِ مَا لَا تَسْتَطِيعُ لَهُ مَنَعًا ⁽¹⁾	هُوَ الْجَهْلُ* إِنْ يَحُلُّ بِلَادًا أَنَا لَهَا

لقد صور مفدي زكريا بواعث اليأس و الضياع التي كان الإنسان الجزائري يعاني منها فوق أرضه، فهي تعبر بشكل واقعي وصريح ومؤلم عن مدى تفشي ظاهرة الجهل بين أفراد المجتمع الجزائري، هذه الظاهرة التي جعلت الشاعر يفقد الأمل في التغيير، وينظر إلى المستقبل نظرة تشاؤمية حزينة سوداء مظلمة، منطلقا من واقع مأساوي لا يبشر بالخير، لما يحمله من تخلف وتأخر وتصادم وأحقاد وشقاق، فيستغيث في غربته، مستلهما همم الأحرار من أبناء وطنه المسلوب.

رَمَتْهَا الْعَوَادِي تَحْتَ أَقْدَامِهَا صَرْعَى؟	بَنِي وَطَنِي مَاذَا الرُّكُودُ بِأُمَّةٍ
[سنون]* بَلَاءٍ، مِنْ سِنِي يُوسُفَ سَبْعًا؟	إِلَآمٌ؟ وَ قَدْ أَوْدَى بِهَا، وَ أَمَضَّهَا،
بَوَيَّالَاتٍ مَحْقٍ، لَنْ تُطِيقُوا لَهَا دَفْعَا	وَ صَادَمَهَا كَفُّ الْحَوَادِثِ غِيلَةً
إِلَى شَرِّ غَايَاتٍ، طَوِين لَهَا خَدَعَا	وَشَرَّدَهَا الْأَحْقَادُ فِي كُلِّ وَجْهَةٍ
فَأَعْدَمَ مِنْهَا الْقَلْبَ، وَالْعَيْنَ، وَالسَّمْعَا ⁽²⁾	وَأَوْدَى بِهَا، -وَيَلَاهُ-، جَهْلٌ مُحْكَمٌ،

*"بعد أن استطاع المستعمر أن يوجد شعبا عاجزا عن إعادة صورة ماضيه، وبعد أن أطفأ فيه وعيه لقيمه ومبادئه، ثبت في ذهنه عادات جديدة في التفكير"

IBRAHIMI AHMED TALEB, de la colonisation à la révolution culturelle (Société Nationale d'Édition et de Diffusion, Alger, 1973, pp12-13

1 - مفدي زكريا : أجمادنا تتكلم، (جزائر ما أشقاك بالجهل)، ص ص 82-83

* في الأصل : "سني" وتقييمه من مفدي زكريا، المصدر نفسه : ص 82.

2- المصدر نفسه : ص 82

أولاً : ————— بواعث الغربة الإجتماعية، في شعر مفدي زكريا

وقدم بواعث هذه الغربة، ممثلة في الشقاق والأحقاد، في أبشع سلوكياتها لأن هذه الظواهر إذا تكدست في المجتمع، أفرزت أمراضاً وآلاماً تكدر حياة الإنسان وتقلقه، كما يستعين بالصور المتنوعة العديدة لتأكيد هذا الجهل وذاك الشقاق ونتائجهما، ولإبراز الواقع ككل بشكل يترك في النفس أبلغ الأثر، كما أننا نراه " لم ينقل الواقع كما هو فحسب بل أضاف إليه الوسائل المؤثرة التي تهيئ الإنفعال بواقع مر اليم، فيه الفقر والتخلف والشقاق بكل مبادئهم التي تهيئ"⁽¹⁾ الإنسان وتدفعه للإغتراب.

والْجَهْلُ مَزَقْنَا، وَشَتَّتْ شَمَلَنَا، [نَقْضِي]* الْحَيَاةَ تَنَازَعًا وَخِصَامًا⁽²⁾

ثم لا يستطيع الشاعر أن يوقف حرقته لما أصاب الإنسان الجزائري من ظلم وتشريد وجهل ويتم، فيصرخ ملأى شذقيه صراخاً مدوياً حزينا، يحمل في أحراسه كل مضامين الأسى والغربة.

يَا وَيْلَتَاهُ عَلَى الْعُرُوبَةِ، أَصْبَحَتْ تَرْمِي النُّعَالَ، وَتَطْرَحُ الْأَقْدَامَا
يَا لَهْفَتَاهُ عَلَى (الْجَزَائِرِ)، قَدْ غَدَا أَبْنَاؤُهَا فِي أَرْضِهِمْ أَيْتَامَا
مَنْ بَاعَ بِخَسَا عِزُّهُ*، بِمَذْلَةٍ قَضَى الْحَيَاةَ نَعَاسَةً وَظَلَامًا⁽³⁾

ويتزف قلبه دماً، على مناظر رهيبة، وظواهر إجتماعية عجيبة، أوصلت الإنسان الجزائري إلى الحضيض الأسفل من التخلف والجهل والفقر، مناظر لا يستطيع عندها الشاعر صبرا، فيحاول أن يجمع قواه لرصدها كبواعث حادة في غربته الطويلة.

1 - محمد هداوة : تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، دار الثقافة، بيروت، ب ت، ص355

* في الأصل ، و " مفدي زكريا " : "نقضي" ، وأنسب منه بالسباق ما أثبت. ص 138

2 - مفدي زكريا : أجمادنا تتكلم، (ركب الحجيج تحية وسلاما)، ص138

* من " مفدي زكريا " : " عزة " المصدر نفسه، ص 138

3 - المصدر نفسه : ص138

وَأَلَا ف نَشْءُ لَمْسَحِ الْحَذَاءِ عَلَى كُلِّ مَزْبَلَةٍ شُـرَرْدِ
مَنَاظِرُ تُدْمِي فَوَادَ الْحَلِيمِ، وَتُذْهِبُ بِالْعَقْلِ وَالْأَكْبَدِ⁽¹⁾

ويرثي في غربته نفسه عن واقعه، وواقع أمته، ويتذكر ويُذكر بها أبناء شعبه المكبل بأغلال الإستعمار الفرنسي، أيام العرب الوضيئة، أيام الرسالة المباركة ومفاهيمها السمحة، التي حطمت القيود والأغلال، وشرعت للكون المناهج، وأنارت العقول العربية لتصنع، إضافة يوم الناس هذا.

وَقُصَّ لَهُمْ، نَبَأُ السَّابِقِينَ مِنْ السَّلَفِ الرُّكْعِ السَّجْدِ
مِنْ الْخَالِدِينَ خُلُودَ الْجِبَالِ، مَعَ الصَّالِحَاتِ إِلَى الْأَبَدِ
لَقَدْ عَبَدُوا لِلْبَيْنِ السَّبِيلَ سَبِيلَ الْحَيَاةِ، فَمَنْ يَفْتَدِي؟⁽²⁾

1 - مفدي زكريا : أجمادنا تتكلم، (فهذا فوادي وهذي يدي)، ص 112

2 - المصدر نفسه : ص110

ثانيا : _____ بواعث الغربة السياسية، في شعر مفدي زكريا

من بواعث الغربة في شعر مفدي زكريا أيضا، تعدد الزوايا و إعانتها للمحتل في نشر الجهل والقيام بالتحريف، فمالت إلى جانبه وأرقدت العقول، فثار عليها الشاعر، لأنها تكبل الإنسان وتؤدد كل تطلعاته في الحرية والإنعتاق، وفي إعاقه عجلة الحركة الزمنية وتدفعه إلى التخلف والتحجر، على القوى الخارقة التي رأت في مثل هذه العادات والمفاهيم البالية المغرضة جمودا وجهلا وتخلفا وتكبيلًا للانطلاق، لأنها " أبعدت الدين عن جوهره الإنساني الرحب"(1).

وثورة تخلص الإنسان الجزائري من سيطرة فئة تستغل الدين دجلا وقهرا للإنسان وتغريبا له، و ترسيخا في الجهل والظلام فذكر مفدي زكريا ذلك :

أَفَاعِي الشَّرِّ أَكْفُونَا سُمُومَكُمْ أَيْنَ الْكَرَامَةِ؟ أَيْنَ الْعَدْلُ وَ حَرْبًا
أُيَسِّدُ الثُّورُ مِنْ ذَاتِ الظُّلَامِ؟ وَهَلْ تَلْقَى الْكَرَامَةَ فَيَمْنُ عَرْضُهُ خَرْبًا
مَنْ دَبَّرَ الْكَيْدَ وَالتَّدْجِيلَ مُنْتَقِمًا أَضْحَى لَهُ كَيْدُهُ تَالَهُ مُنْقَلِبًا(2)

أساليب منفعية ضد المبادئ الإسلامية السمحة*، وطرق و طرائق للحد من حرية الإنسان الجزائري في التفكير السوي، ووضعوا أنفسهم رواد ماضيه، ومنازل مستقبله، وكانوا سدا منيعا للنور والحياة، فأدخلوا الإنسان والمكان في غياهب الشطحات والجهل والتخلف.

لَطَمُوا الدِّينَ وَالْكَرَامَةَ وَلَمَعُوا م، بِخَزْيٍ، وَقِحَةٍ وَعِينَادٍ
سَدَّدُوا ضِدَّ شَرِيعَةِ اللَّهِ كَأَبُو سَاءَ أَلِيمًا، وَضِدَّ كُلِّ سَدَادٍ
وَأَعَدُّوا لَشَعْبِهِمْ ذَارِيَاتٍ خَانِقَاتٍ أَمَامَ كُلِّ مُسْنَادٍ
وَأَنْطَوُّوا تَحْتَ هَيْكَلِ الدِّينِ ظُلُمًا، فَعَدَا الدِّينُ عَنْهُمْ فِي ابْتِعَادٍ

1 - محمد الطمار : تاريخ الجزائر الحديث، ص345

2 - مفدي زكريا : أجمادنا تتكلم (ته يا عمان بنصر الله)، ص 70

* لم تكن السلطة الفرنسية تتورع من استعمال أساليب العنف والسجن لتنفيذ أوامرها وقوانينها، فسجنت أربعة من خيرة جمعية العلماء.
ينظر : " نور السلطان : الأدب الجزائري، في رحاب الرفض والتحرير، ص57

خَدَعُوا النَّاسَ بِالْعَائِمِ كُـبْرَى، وَبُنُوا فِي الرُّؤُوسِ ذَاتَ الْعِمَادِ⁽¹⁾

ثم لا يجد الشاعر سبيلا أمام هذه الظواهر المنحرفة، التي أدمت قلبه، وجرفته أساليب التدجيل والخيانة للشعب والوطن، إلى ميادين الغربة، فثار كالمارد يعدد عيوب هؤلاء الدجالين الدخلاء على الدين، الجهلة بأمور الحياة، أصحاب الملذات وأعواد العدو الدخيل المحرقة وأذنا به التي تحافظ على بقائه واستمراره.

يدعو عليهم وعلى أعمالهم الشيطانية، التي تنبعث من أعماقهم الحاقدة على كل مدرك للحقيقة، عالم بما يذهبون إليه من دجل، متصد لهم بالبينة، كاشفا لهم عوراتهم وجهلهم المركب.

يَا لَحَا اللَّهَ أَوْجُهَا رَسَمَ الشَّرُّ	رُ عَلَى صَحْنِهَا هِنَاتِ السَّوَادِ
وَقُلُوبًا أَفْعَمِينَ حَقْدًا، وَ[أَضْعَا	نَا] وَزُورًا عَلَى دُعَاةِ الرَّشَادِ
وَرُؤُوسًا قَدْ عَشَّشَ الْجَهْلُ فِيهَا،	فَاسْتَوَى الْحَيُّ عِنْدَهَا بِالْجَمَادِ
وَلَكُمْ مَوْهُوَا الْحَقِيقَةَ بِالْبَا	طِلْ، وَالْحَقُّ دَامَغُ الْإِشْهَادِ ⁽²⁾

يتراءى لنا مما تقدم أن مفدي زكريا، قد قام برسالته أحسن قيام. فقد دافع بحدة ومرارة عن الكيان الجزائري في عقر بيته، و أبرز بواعث غربته من جراء الأحداث والظروف القاسية التي مر وعانى منها الإنسان الجزائري، وأظهر آلمه وحزنه وعمق جراحه، من جراء الوسائل والطرق التي انتهجها الإستعمار الفرنسي وأعوانه وأذنا به الجبناء الخونة، في محاربة الدين خاصة وتحريفه للحفاظ على مصالحهم، وإبقاء الشعب الجزائري في دوامة الجهل والتخلف.

1 - مفدي زكريا : أمجادنا تتكلم (مصرع الفضيلة)، ص ص 72-73

2 - المصدر نفسه : ص ص 73-75

1- ظاهرة القمع والإبادة :

لقد استعمل الإستعمار الفرنسي، منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر سياسة الأرض المحروقة "حيث لم يكن يتردد في استعمال كل الوسائل التي يتوفر عليها من أجل إخماد لهيب الثورة"⁽¹⁾.

لكن كل محاولات المحتل باءت بالفشل الذريع، أمام صبر و صمود الشعب الجزائري، وأمام صور الجرائم المقترفة ضد الأبرياء الأمنين من مختلف شرائح الأمة من الشيوخ والأطفال و النساء العاجزين، حتى الأرض والحيوانات والتي تفوق بكثير جرائم النازية، ومن ثمة إرتفعت أصوات الحق من أفواه رجال محبين للخير وعاشقين للحرية والحياة والكرامة ومدافعين عن السلم هنا وهناك منددين بأصوات عالية ومستنكرة الأعمال الوحشية والإبادة الجماعية* التي يتعرض لها الإنسان الجزائري فوق أرضه الغالية على أصحابها، وضد ما يحدث من تقتيل وتدمير وقمع وتجاوزات وإنتهاك الحرمات والأعراض وحقوق الإنسان في الوجود " لقد كانت المجازر الرهيبة التي اقترفها الاستعمار الفرنسي في حق المدنيين محل استنكار من المنظمات الإنسانية و أحرار العالم"⁽²⁾.

وقد كان مفدي زكريا في طليعة الشعراء الجزائريين الراضين لهذه الأساليب اللاإنسانية ضد إخوانه فوق أرض الجزائر، من تجاوزات وأعمال يشيب لها الرضيع، وقد جاءت أشعاره مجسدة بصدق آلامه وغربته، ومصورة فضاعة الجرائم التي اقترفها سفاكوا دماء الشعوب "الذين سيظلون محل إدانة من قبل التاريخ والإنسانية"⁽³⁾.

ومن غربة الشاعر صور لهمجية ووحشية وقساوة المحتل الفرنسي ضد الشعب الجزائري الأعزل.

1- نور السلطان : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص157

2- مفيدة محمد قميحة : الاتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر ، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ب ت، ص233

* لجأت فرنسا إلى وسائل متعددة لطمس تاريخ الجزائر وشخصيتها وارتباطها الأرضي والإجتماعي حتى يسهل أمامها مجال التشتيت والتهجير ... وكانت تدابيرها رهيبة مضمونا وتنفيذا : التحقير والإذلال. الإبادة الثقافية، تعطيل نفوذ المساجد، تشجيع اللهجات المحلية خاصة البربرية

. ينظر : نور السلطان، الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص ص 45-85

3- المرجع نفسه : ص234

أكبادُ من...؟ هَذي التي تتفطر؟
 وقلوب من...؟ هَذي التي أنفاسُها
 ورؤوسُ من...؟ تلك التي ترقى الى
 ومن الذي....؟ عَرَضَ الجزائر شَبَّها
 أجَهمُ... هَذي التي أفواهُها
 ودماءُ من...؟ هَذي التي تتقطرُ؟
 فوَقَ المَذابحَ للسما، تتعطرُ؟
 حبل المشانق، طلقةً تتبَحَّرُ؟
 من كل شاهقة، لظىً تتسَعَّرُ؟
 من كل فَجٍّ، نِقمةً تَتَفَجَّرُ*(1)

وتزداد بواعث غربة مفدي زكريا، عندما يرى فضاة وحجيم الأعمال الوحشية وأساليب القمع و طرق الإبادة، وتسليط كل ما يملكه زبانية الإستعمار الفرنسي من الوسائل الفتاكة على أبناء الجزائر، الذين صبروا وتحذوا في وحدتهم وعزلتهم وإمكاناتهم المفقودة، آلات الموت الفتاكة، ووقفوا كالمارد الجبار في إباء و عزة وشموخ، يقول مفدي زكريا :

لا النَّارُ، لا التَّقْتِيلُ، يَنْثِي عَزْمُهُ
 لا الذَّارِيَاتِ، الماحِقَاتِ، هَوا طِلَاً
 لا القاصِرَاتِ، العَافِلَاتِ، كَواعِباً
 لا الحامِلَاتِ، بَطُونُها مَبْقُورَةٌ
 لا، والمَرَضِيعُ عَوِضَتْ أَثْدَاؤُها
 لا السَّحْنُ، لا التَّنْكِيلُ، لا الإِعْدَامُ!
 لا الشَّامِخَاتِ، تَدُكُّها(الألغامُ)
 وَدَيْسَتْ قَداسَتُها، وَفَضَّ خِتَامُ
 دُبَحَتْ أَجْنَتُها، وَفُكَّ حِزَامُ...
 بِنَمِ المسدسِ، والرَّصَاصِ فِطَامُ*

ويزداد ألم الشاعر عندما يرى سلوكيات وحشية قمعية، لا إنسانية لا تحترم الأعراف والمواثيق الإنسانية ولا القيم الأخلاقية الكبرى للكائنات البشرية، أعمال لا يأتي بها إلا المجرمون الخارجون على أعراف البشرية.

وَ أَلَأَمْ يُهْتَكُ عِرْضُها وَفُحُولُها (حَوْلَ الفَضِيحَةِ)* شَاخِصُونَ قِيَامُ

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتكلم الرشاش جل جلاله!!) ، ص 133
 * كان جنود المحتل الفرنسي، يضع فوهة المسدس في فم الطفل الرضيع، ويفرغه في أحشائه.
 * ينتهكون أعراض النساء أمام ذويهم

يَا لِلْفَضَاعَةِ، مِنْ وَحُوشٍ جَوَّعَ تَسْمُو عَلَى أَخْلَاقِهَا الْأَنْعَامِ! (1)

فحرقة الشاعر لما يرى، ويحدث لأبناء وطنه من طرف زبانية المحتل، مبعثها بشاعة الأعمال الإرهابية والتي بالغ الإستعمار في زرع صور الموت والفناء، في كل مكان دون رحمة أو شفقة، كما تعكس هذه الصور غربة الإنسان الجزائري الذي إعتصم بالصبر أمام بلاءه، وتحديه لتلك الظواهر الإجرامية، والأعمال الممجية للإنسانية، التي ستبقى على مر الأيام والسنين محل ذكر ورفض وإدانة، وشواهد حية صادقة، وصور مرعبة ناطقة على ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، ووصمة عار لا تمحى في صحائف تاريخ الإستعمار الفرنسي المعتدي. كما يتكلم الشاعر، ويتفجع لعظمة هول الجرائم المقترفة من طرف زبانية المحتل الفرنسي، في حق الأبرياء من أسر وعائلات أبيدت بكاملها، فأضحت في لحظة البصر وغفلة من الزمن في عداد المحذوفين فوق الأرض، ويصاب باضطراب، ويتحسر بمرارة على الحرمات المنتهكة من طرف سفاحي العدو المحتل على البنات أمام ذويهم، ويظهرون في شذوذهم النشوة ويطيرون فرحا وزهوا، بحضور الأباء والأزواج الذين كبلوا بالحديد وشهر السلاح في وجوههم، فيصرخ عاليا فيقول غاضبا مناديا بالانتقام :

سَنُثَارُ، لِلْبَيْتِ الَّذِي كَانَ آهِلًا فرجّت به الألعَامُ، تسحَقُهُ سِحْحًا
سَنُثَارُ، لِلْبَيْتِ الَّذِي دِيسَ قُدُسُهَا ودنّسَ أخلاسُ الحَنَا، عِرضها الأَنْثَى (2)

وتتعالى زفرات الشاعر حرّى ملتهبة، وتزداد آلامه ومواجهه ويشعر بالحزن القاتل عندما ينظر حوله فلا تصادف عيناه المملوءة بشرارات الغضب إلاّ ظواهر ينشقّ القلب ويتمزق حسرة للدمار والخراب الذي يستهدف أساسيات الحياة وضرورياتها، فيزيلها العدو المحتل من الوجود، إلى أن يصل إلى وصف أبشع الصور التي قام بها العدو المحتل ضد أبناء الجزائر دون مراعاة لمشاعرهم الأخلاقية والدينية، وأعمال تجاوزت كل الأعراف والقيم الإنسانية ظلما وعدوانا فيتوعد هؤلاء المجرمين بالقصاص والثأر.

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس ، (وتعطلت لغة الكلام)، ص 46

2- المصدر نفسه : (سنثار للشعب) تخليدا للذكرى السادسة للثورة الجزائرية 1960 ، ص 200

سنثار للطفل الرضيع و قد غدا
وللحبيبات الحور، شقت بطونها
وللشيخ، ثوتى زوجه وهو موثق
سنثار، للأكواخ، والدور، والقرى
وللآمنين العامرين ديارهم
وفي فمه الرشاش - يحسبه رزقا
وللمرضعات الغيد، أنداؤها تلقى
يرأها، فما يستطيع دفعا ولا نطقا
يهشمها (النابالم*) يحرقها حرقا
يسوقهم للموت جلاذهم سوفا⁽¹⁾

إن الذي يعيش أهوال الثورة الجزائرية، عن قرب، ولم يشاهد ما كان يقوم به ويفعله المحتل الفرنسي، ويقترفه ضد أبناء الجزائر من جرائم وتنكيل بالإنسان، أفعال يندى لها الجبين، قد يترأى له، حين يقرأ أمثال هذه الأشعار، إن القضية أو المسألة مبالغ فيها أو أنها لم تحدث على هذا النحو أو ذاك، بل ما هي إلا عوالم الشاعر المتحمس المندفع وراء خيالاته وأحاسيسه الجياشة، بينما في نظر العارفين أو المدركين لحقيقة الاستعمار الفرنسي ومخططاته وأبعاده، عند احتلاله للجزائر، فإنه على العكس قد يرى بأن " أعمال الإبادة والقمع المعبر عنها على هذه الصورة أو تلك مطابقة للأصل، لأنها في واقعيتها، قد اقترنت بكيفية أكثر رعبا وبشاعة ووحشية، و لربما بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية "⁽²⁾.

إن عملية التنكيل والتدمير والبطش والقمع الممارسة ضد الشعب الجزائري، وفق خطة الإحتلال الفرنسي، فإنها في طبيعة الأساليب التي إنتهجها المحتل منذ البداية، يهدف إجهاض كل محاولة للثورة، و إفراغ الشخصية الثورية الجزائرية من محتواها.

ومن هنا فإن المرء لا يتعجب عندما يذهب الحقد بالاستعمار و زبانيته إلى درجة تفريغ منازل الأهالي من ضروريات الحياة وتركهم هائمين مشردين، وإضرام النار** فيها، ثم الشروع

* "النابالم" : كلمة فرنسية، تعني القنابل الكيميائية المحرقة.

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (سنثار للشعب)، صص 200-201

2- محمود إحسان الهندي : الحوليات الجزائرية، العربي للإعلام والنشر و الطباعة، دمشق ، ب ت، ص 82

** مقولة بيجار إلى الجندرية الفرنسية سنة 1843 : " إن الحرب التي سنقوم بها، ليست حربا تعتمد على طلقات البنادق، وإنما هي لأن نحرم العرب من مواردهم التي تنتجها أرضهم. إذهبوا إذا وأقتطعوا القمح والشعير"، كتاب الجزائر لوزارة الخارجية للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ، دمشق 1961 ، ص ص 10-11

في جمع سكانها دون إستثناء في أكوام وطواير بشرية تساق إلى الاستنطاق وأماكن التعذيب والتنكيل في انتظار رحلات العذاب نحو المنافي والمعتقلات و السجون.

و احشُرِّي في غِيَاهِبِ السُّجْنِ شَعْبًا سيم حسفًا، فعاد شَعْبًا عَنِيدًا
واجعلي "بربروس" مثوى الضَّحَايَا إن في بَرَبْرُوس * مجدًا تَلِيدًا!!
عَطْلِي سُنَّةَ الْإِلَهِ كَمَا عَطُ لَتِ مِنْ قَبْلُ "هُوشَيْن" ** المُرِيدَا... (1)

إن الغزاة كما وضحت بعض النماذج الشعرية، هم سبب هموم وغربة الشاعر، وأعمالهم الوحشية الضارية، كانت سبب حزنه و منابت آلامه وجراحه، إن المحتل وزبانيته لا يعرفون سوى سفك الدماء، ونهش جثث الأبرياء في السجون والمعتقلات، والتفنن في عملية الإبادة الجماعية والتدمير العشوائي للقرى والمد اشتر عن آخرها، ناهيك عن الإستهتار بالقيم الإنسانية، وهتك الأعراض وممارسة ألوان وأنواع التعذيب بأساليب وطرق لم يسبق لها مثيل في تاريخ المستعمرات ولا الحروب البشرية، مما جعل الرأي العام الدولي وبعض الأحرار في فرنسا ينددون بها لأنها جرائم تمنعها القوانين وتستنكرها الأخلاق والأعراف الإنسانية.

2- ظاهرة السجون والظلم والتعذيب :

تجربة السجن *** مرة " وغربة يتصل ليلها بنهارها ، ولا سيما تحت وبين قضبان الإحتلال الفرنسي، إذا كانت سلطة العدو الدخيل هي التي تصدر الأوامر والأحكام، والزبانية المتوحشون ينفذون، دون حاجة إلى قانون، ولهذا كان السجنين **** يعيش دائما منتظرا لحظة تنفيذ

* " بربروس" : اسم السجن الذي أقام به الشاعر وإخوانه الجزائريون، بالجزائر العاصمة

** هوشيمينه : زعيم الهند الصينية، و محررها من الاحتلال الفرنسي

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص 18

*** السجن : الحبس ، يقال : سجنه، يسجنه، سجننا أي حبسه، ابن منظور : اللسان فصل (السين المهملة)، ج 13، دار صادر، بيروت، ب ت، ص 203

**** الأسير والسجين في المخصص، أصل الأسير أنه ربط بالقدر فأسره : أي شده، فاستعمل حتى صار الأخيذ : الأسير. ينظر : المخصص لابن سيده، ص 187

المعتقل : الحبس، يقال عقله عن حاجته ، عقده و عقله و تعقله و اعتقله، حبسه، المصدر نفسه : ج 2، ص 845

الحكم، وهو لا يدري ما هو، ولا يكفيه تنفيذه، ولا الوقت الذي سيستغرقه في سجنه، غربة السجن غربة دائمة إذا، بعيدا عن الأهل والحرية"⁽¹⁾.

والحرية بالنسبة إلى مفدي زكريا الذي تعود على الشمس والهواء النقي والصحراء، هي حياته وبقاؤه، وقد يترك أهله ووطنه بحثا عن حريته وكرامته، فكيف يحيا في السجن، وسلب حريته وكرامته، ونجد صدى هذه المعاناة ظاهرة يتردد في شعره.

وإذا كنا هنا بصدد تجربة ظاهرة الغربة داخل السجن، في عصر مفدي زكريا الإستبدادي المظلم، والغربة التي يعيشها السجين* فإننا سنقف عند ظاهرة متميزة صاحبته عبر حياته، هي تجربة الشاعر، فقد قال فيها شعرا حزينا قويا في سجنه عبر فيه عن حالته وغربته، وعن وضعيته التعيسة، لذا عدّ السجن كربة وغربة ومشقة لا مثيل لها.

عندما أيقن المحتل الفرنسي وزبانيته أن أعماله الجهنمية، وبطشه وخرابه، وسائل جبانة غير مجدية، وغضب وثورة الشعب الجزائري وتحديه، غضب عام شامل ومنظم بني على أسس الظلم والغربة والتشريد والدمار، وأن الإنسان الجزائري لا يرضى بهذا الهوان والذل والإحتقار، وقد عقد العزم على الثورة والدفاع عن نفسه وأهله وشعبه ووطنه، ولغته ودينه بكل ما تبقى له من جهد وقوة، شرع المحتل الفرنسي بتنفيذ مخططة الثاني الرامي إلى كسر عزيمة الجزائري الثائر و" واضح من استنطاق التقارير والمؤلفات لتلك المرحلة أن المحتل كان يزداد تطلبا وتصلبا كلما رأى إن مخططه يسير في طريق التحقق حسب هواه، و كلما وجد أن القوى الإستعمارية الأخرى في العالم قد اهتمت إلى أفانين مبتكرة في تركيز دعائم وجودها، فينافسها ويزيد عليها في تدابير القمع والإذلال"⁽²⁾.

1- عبد الرزاق الحشروم : الغربة في الشعر الجاهلي، منشورات اتحاد كتاب العرب، دمشق 1982، ص ص 184-185
* إن الدلالة على مفهوم السجن في اللغة العربية موجودة منذ القدم ففي معجم "لسان العرب" لابن منظور نجد الشروح التالية : السَّجْنُ، الحَبْسُ، بالفتح : المصدر : سَجَنَهُ وَيَسْجُنُهُ وَسَجَنَّا أَي حَبَسَهُ، وَسَجِنَ : فَعِيلٌ مِنَ السَّجْنِ. وَالسَّجِينُ : السَّجْنُ.
2- نور السلطان : الأدب الجزائري في رحاب الثورة و التحرير، ص45

والقضاء نهائيا على وجود من كان يطلق عليهم إسم العصاة والخارجين عن القانون، فقام المحتل الفرنسي بسياسة القمع لهذه الإنتفاضات الشعبية، وعمد إلى إذلال الإنسان و تعمد تحطيم معنويات الإنسان الجزائري بشتى الطرق، ومن بين مظاهر هذه السياسة المطبقة بصرامة وإحكام ودون شفقة أو رحمة ضد الشعب الجزائري " تسليط حرب إبادة حقيقية، بدأها بتدمير القرى والمد اشتر على سكانها، وحرقت الغابات والمزارع وإلقاء القنابل على كل من يتحرك من إنس أو حيوان في مناطق بأجمعها، ناهيك عن إقامته لآلاف من المحتشدات والجمعات والمراكز المعدة خصيصا للقتل الجماعي والتعذيب"(1)

وقد كانت السجون والمعتقلات من أخطر ما أصاب الإنسان الجزائري فيها من تنكيل وبطش ودمار نفسي ومعنوي، ومن أخطر الوسائل التي لجأ إليها المحتل الفرنسي لقتل وزهق روح المبادرة و الإرادة لدى الإنسان الجزائري، وضرب أعماق غضبه وتعمد زعزعة إيمانه بقضيته، وتثبيت بذور الرهبة والفرع والهلوع في نفسيته، حتى يصاب بالخوار والوهن، ويركن للإستسلام، ويفشل بذلك في الإستمرار في نضاله وكفاحه، وإذا كان المعنى التقليدي أو المهدف المتعارف عليه " من وجود السجون والمعتقلات، هو سلب للحرية أو تقييد لها، في أخطر الظروف وفي أسوء الحالات"(2).

فإن السجون التي أقامها المحتل الفرنسي قبل و إثناء الثورة التحريرية على نطاق واسع، تفوق حدود التصور، المتعارف عليه أن السجون تمكّل وتوضع للذين يرتكبون أعمالا مخالفة للقانون، أو المجرمين الذين يقتربون سلوكيات منافية لجماعة إجرامية، والتي تقضي حبسهم في انتظار

1- نور السلطان : الأدب الجزائري في رحاب الثورة و التحرير، ص 46

2- المرجع نفسه : ص 86

ينظر أيضا : أحمد فتحي مهنسي : العقوبة في الفقه الإسلامي، دار الراشد العربي، بيروت، 1983 ، ص 204

الألم : برزت معالم الألم في هذا الشعر، من نوعي السجن على حد سواء.. آلام نفسية وأخرى خارجية.. وما أكثرها، حيث يتحول الألم داخل السجن إلى عزف دائم من النشيج والإنسياب الحزين والمفرح في آن واحد.. الحزين لأنه مؤلم والمفرح لأنه يؤدي رسالة مهمة نضالية يرتضيها عن طيب خاطر... ص 30-31

صدور الأحكام المناسبة والموافقة لجرمهم، لكن المحتل الفرنسي، المتنكر لحق الإنسان أصلا وخاصة الجزائري، في الحرية والحياة الكريمة، والسيادة على أرضه، قد حول تلك السجون إلى زنزانات ومقابر ظل يمارس فيها مالا يتصوره العقل من ألوان العذاب الجسدي والنفسي والتقتيل والتشنيع ضد الشعب الجزائري رجالا ونساء، رفضوا سياسة التغريب والتنصير والإدماج، والعبودية ومن أشهر " السجون التي ظلت طوال حرب التحرير أداة للممارسات الإنسانية (سجن بربروس) بالقصبة وسجن (الحراش) بالجزائر العاصمة، وسجن (لامبيز)...بتازولت بباتنة، وسجن (الكدية) بقسنطينة وسواها، وفيما يخص المعتقلات التي تعني هي الأخرى (محابيس) فإنها في الثورة التحريرية، تتمثل في مختلف الأماكن التي كان الإستعمار يجمع الناس فيها لنفس الهدف الذي - سبق وأن اشرنا إليه - ومما يميز المعتقلات عن السجون أن الأولي يلجأ إليها الإستعمار في أوقات خاصة وحرجة، فيقيمها حيث شاء، والأشخاص الذين يساقون إليها للإعتقال لا يخضعون للتحريرات الدقيقة ولا يحاكمون، وهم في الغالب ينقلون باستمرار من معتقل إلى آخر حسب الظروف والمستجدات"(1).

من حيث المعاملة، فإن ما يتعرض له المعتقلون من تعذيب و إهانة، قد يفوق بكثير ما يتعرض له المحبوسون في السجون.

ومن أشهر المعتقلات التي تحولت اليوم إلى متاحف للثورة معتقل " قصر الطير" بعين ولمان (قصر الأبطال) اليوم ومعتقل " الجرف" ومعتقل " آفلو"(2) .

ومفدي زكريا يمثل طليعة الشعراء الجزائريين الذين ذاقوا غربة المكان وألوان العذاب داخل هذه السجون، أكثر من أي شاعر جزائري آخر، وكان شاهدا عما يجري في تلك السجون، من شتى أنواع العذاب ، وألوان التنكيل المسلط على أبناء الجزائر، وخاصة في سجن " بربروس".

1- محمد زغينة : شعر السجون والمعتقلات في الجزائر (1954-1962)، منشورات جامعة باتنة، الجزائر، 1990، ص ص17-19

2- المرجع نفسه : ص 19

ومن الأنسب، وقبل أن نتطرق إلى إبراز وتوضيح واستعراض ما أمكن من الشواهد الحية عن ظروف الإنسان داخل هذه السجون المظلمة من أشعار، أن نبدأ الحديث عن حياة مفدي زكريا التي كانت صورة طبق الأصل لأحاسيسه الحزينة الفريدة، وذلك من مقاله الأدبي ذي المسحة الشاعرية الرقيقة الحزينة، و الإحساس النابض (1).

والذي صور فيه الحياة داخل ذلك السجن الرهيب تصويرا دقيقا، يدل على معاناة حادة وغربة قاسية، ومهارة شاعرية وقدرة أدبية، والنص في الحقيقة " وصف لأحاسيس المسجونين حين يصدر الحكم بالإعدام على أحد إخوانهم من لدن عودتهم من المحكمة إلى حين تنفيذ الحكم بالإعدام، فهو متابعة حية دقيقة لمشاهد البطولة التي كان (بربروس) يزرعها وتحميد للأحاسيس الثائرة التي كان السجناء يشعرون بها وهم يشاهدون مواكب الصاعدين إلى منابر الشهادة في أنفة وكبرياء، وكان حرص مفدي زكريا على ألا تفوته جزئية من جزئيات هذا المشهد البطولي، هو الذي رفعه إلى إختيار النثر الوصفي التحليلي وسيلة بيان لأنه أقدر على تسجيل التفاصيل ورسم الملامح والقسمات، وهو أطوع على إفراغ كل ذلك في قالب قصصي جذاب" (2).

يفتح الشاعر مقاله الرهيب الذي فضل أن يكون عنوانه مؤثرا ذا أبعاد نفسية حزينة " كيف تتحدى الموت أمام المقصلة" (3).

إذ تخلص عن آلام السجن، وما لقاه بين جدران من عذاب*، وما عرف به من غربة ورهبة وذعر، واصفا سوء المعاملة من طرف زبائنه، وما يتعرض له إخوانه المساجين

1- محمد ناصر : مفدي زكريا شاعر الثورة و النضال، ص74

2- المرجع نفسه : ص75

3- توفيق برو : جنون الاستعمار و جرائمه في الجزائر، مجلة سيرتا، العدد 6-7، 4 جويلية 1982 ، ص14

* تعذيبه : تعرض مفدي زكريا في السجن إلى أشد العذاب، كالتعذيب بالتسليط المتواصل و المستمر للأضواء الكاشفة على عينيه ليلا نهارا لأكثر من ثلاث سنوات مما جعله يشكو - بعد ذلك ومدى العمر - من آلام حادة و دائمة في عينيه أفرزت مضاعفات على مستوى جهاز النخاعي إذ أحدثت صداعا رهيبا ملازم له و أدى إلى الغيار في الجهاز العصبي طول عمره المتبقي فخشي زبانية المختل الدخيل أن يموت الشيخ المجاهد مفدي زكريا في السجن تحت سياط و كهرباء التعذيب مما يحدث ضجة و فضيحة و ثورة داخلية و خارجية، -

من عناء كبير يقول : " هناك بين حنايا سجن (بربروس) المظلمة، وتحت أقبيتها المتآكلة المتداعية يجثم ثلاثة آلاف أو يزيدون من خيرة شباب الجزائر، بين دفين في أعماق الزنانات السرية- رهن التحقيق- وبين منتظر إحالته على المحكمة للبت في قضيته التي تم التحقيق فيها منذ ما يزيد عن سنتين، وحضرة القاضي في شغل برحلات الشتاء والصيف عن إتمام الملفات المكدسة فوق مكتبه، وما يستعجله والعصافير في أقفاص من حديد؟ و بين محكوم عليه بإحكام أقصاها إعدام وأدناها ثلاث سنوات"(1).

وبعد تصنيف أنواع المساجين واستعراض الإهمال المطلق واللامبالاة من طرف رجال قضاء المحتل الفرنسي، والمعاناة وحالة الغربة والظروف المزرية التي يعيش فيها إخوانه المساجين داخل هذه الغياهب الرهيبة الموحشة، يأتي المقال على وصف مشهد حزين آخر، وصف زنانات السجن وظروف وحالة السجناء الذين يقتدون ويساقون إليها- بعد الحكم عليهم بالإعدام- كالأنعام وهم مكبلون بالحديد، يقول مفدي زكريا : " تحت هذا الهيكل العابس (بربروس) الذي يئن تحت أغلال السنين، ويتندى من برحاء المعذنين وأنات الموكورين، توجد سراديب عليها غبرة، ترهقها فترة نحتوا- كذا- منها زنانات أشبه شيء بالجحور أعدوها لإنزال - ضيوف الموت- المحجلين بالخلخال في السوق والمصفدين بالسلاسل من الأعناق، أولئك الذين يسموهم- المحكوم عليهم بالإعدام- ونسميهم- الشهداء الكرام-"(2).

ويحرص مفدي زكريا في مقاله العجيب على نقل المشاهد الدقيقة المحزنة، وكل ما تقع عليه عيناه، و كل ما يمر على مسامعه من أصوات الأنين والألم والحسرة، ويضمن كل ذلك ما يخطر بباله ويصنع خياله من صور وانفعالات ومشاهد وأصوات وصور، فيدقق.

- فاندفعوا مضطرين إلى إطلاق سراحه بعدما تأكدوا من انه لا يمكنه - وهو على هذا الحال- فعل شيء ضده لأنه موهن الجسد مضطرب العقل. ينظر : بولحيا الطاهر ، تأملات في إلباظة الجزائر، ص 36-37

1- مفدي زكريا : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، المجاهد العدد 48 ، 1959/08/10 ، ص9

2- المرجع نفسه : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، ص9

ثانيا : _____ بواعث الغربة السياسية، في شعر مفدي زكريا

الشاعر مشهد هذه الحركية الدائمة بكل مرارة وشرارات الغضب والحسرة والألم تتطاير من بين الحروف والكلمات فيقول: " يذهب كل صباح عشرات من السجناء للمحاكمة ليعودوا في المساء مثقلين بالأحلام، وسكان 'بربروس' لا يشعرون بعود الركب الميمون إلا عندما يسمعون صلصلة السلاسل فتنتطلق الخناجر بالزغاريد والأناشيد على شرف الذين عادوا من المحكمة مصدرين بوسام الشهادة الكبرى شهادة الموت في سبيل استقلال الجزائر، ثم تتجاوب الأبناء في جميع قاعات 'بربروس' وزواياه الخمسة بالإعدام وثمانية وعشرين سنة والباقيون بأحكام تافهة وهي من اصطلاح المناضلين ما دون العشرة"⁽¹⁾.

بعد عرض هذه الظروف الحادة المأساوية التي يعيشها أبناء الجزائر، داخل السجون، يعرّج مفدي زكريا إلى المشهد الثالث، وهو مشهد الصبر على البلوى، ليصور الموقف الحزين الفريد من نوعه في الصبر والتجلد أمام المصير والموت، صديقا له "مصطفى" هذا البطل الشجاع الذي حكم عليه من طرف السلطة القضائية العسكرية الفرنسية بالإعدام شنقا، وقد جرت العادة أن يتسامر دوريا معه ومع سجين ثالث يدعى "خالد" حتى أواخر الليل حول سيرة أبناء الجزائر الأبطال ويذكرون الشهداء، وطريق التضحية من أجل استقلال الجزائر، إلا أن يد القدر ومفعول الغدر قادت في ليلة مشهودة من زنزانتة إلى المحكمة، مما جعله يتأخر على الموعد المعتاد، ولا يعود في الوقت المحدد المعتاد، ولما عاد بعث إلى مفدي زكريا بخطاب مفعم بالإيمان والشجاعة والتضحية، وقد حرص الشاعر على نقله كما هو ضمن مقاله، لأنه خطاب أحرق أحشائه على فراقه، وفرق ليله ألما لفقده، فكان عهدا عليه أن يستمر صوت صديقه ماثلا بين سطور مقاله، الذي قدم له ، وهذه توطئة الشاعر مع الخطاب نفسه " وإن أنس، فلا أنسى - ما دمت حيا - تلك الكلمة الخالدة التي كتبها إليّ أخي مصطفى أحد رفاقي الزنزانة رقم 57 غداة رجوعه من المحكمة نزيلا في سرايب، وقد كنت أنتظر عودته للزنزانة ليتناول معنا طعام العشاء كالعادة، "أخي العزيز ورفيقي في الجهاد سلامي عليك وعلى الأخ - خالد- أعرف إنكما تألمتما لعدم رجوعي إلى الوكر

1 - مفدي زكريا : كيف نتحدى الموت أمام المفصلة، ص9

الذي أَلفناه والذي إعتدنا أن نتسامر فيه إلى ساعة متأخرة من الليل يفضي كل منا للآخر بذات نفسه ويثثه أشجانه فيجد عنده العزاء والسلوى، وكم كنا نستعرض معا تاريخ أبطالنا وشهادتنا الأبرار ونفسح لأمالنا أفقا غير محدودة، وكنا نقول دائما إن التضحية في سبيل الجزائر لا حد لها، وأن استقلال الجزائر لا يقدر بثمن.

نعم لقد حكموا علي بالإعدام، وأقسم لكما بشرف الجزائر إني لم أشعر يوما في حياتي بالطمأنينة والراحة و السكينة التي شعرت بها حين نطق رئيس المحكمة بالحكم ، فكأن الله أفرغ علي من سمائه سعادة لا عهد لي بها، وأودع فيّ روحا قدسية أصبحت أرى بها الدنيا ابتسامة خالدة والإخوان كلهم على حالة واحدة، فلو اطلعنا علينا لرايتما نتعاقق بالمحكمة ونصرخ بلسان واحد في وجه الطغاة الجبناء : نرحب بالموت في سبيل إستقلال الجزائر، إنكم مهما تقتلون وتعدمون فإن فكرة الإستقلال لن تموت ما دام بالجزائر كبد حر، بلغ سلامي لجميع الإخوان وتدرّعوا بالصبر"⁽¹⁾.

إن قارئ هذه السطور، يشعر بمرارة الظلم، وبغربة مفدي زكرياء الحادة أمام هذا المشهد البطولي العظيم، الذي وقف أمامه عاجزا عن رد الكرب عن صديقه، فلم يكن منه إلا أن حفظ له هذه الرسالة التي تظهر بصدق العبارة حالة السجناء من أبناء الجزائر داخل هذه الأكوار الرهيبة، والمعاناة التي يتلقاها يوميا أصحاب هذه الأماكن الدامسة، والشيء الذي يقوي الإنفعال الحزين الذي يقطع الأحشاء، هو هذه المواقف الرهيبة الخالدة، ومخالفة مثل هذه الأعمال والسلوكيات المتعارف عليها عند السجناء أو حتى العامة.

إن المحكوم عليه بالإعدام يقابل الحكم بالإغماء أو الهلع ويصاب بالفرع، ويسعى بشتى الوسائل والطرق القانونية وغير القانونية إلى إلتماس التخفيف أو طلب إعادة الحكم لأجل المماثلة وإيجاد فرصة لحل آخر أفضل. لكن هذه الأفعال أو السلوكات هي صفة وشيمة رموز المشنقة

1 - مفدي زكريا : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، ص 9-10

ومتحديها من أبناء الجزائر الأبرار، أمثال "أحمد زبانة" و "مصطفى" هذا الأخير الذي يقسم بشرف الجزائر الغالية عليه أكثر من نفسه، أنه لم يشعر العمر كله بالسعادة و لم يذق يوما طعمها، مثل اللحظات التي عاشها عند إعلان الحكم عليه بالإعدام، فأمثال هؤلاء من خيرة أبناء الجزائر، يستقبلون أحكام الطغاة الجبناء سفاكي الدماء، بالصبر والتجلد والتحدي، يظهرون الفرح والسرور، ويعلنون أصوات الحق من تكبير وتهليل، ويندفعون إلى بعضهم البعض بالمعانقة في رحاب المحكمة- أمام صائغي قرار الظلم - تغيرا منهم على أنهم صانوا الأمانة، وحصولهم على شهادة الإستشهاد في سبيل الحرية لمرضاة الله و الوطن.

يعمد مفدي زكريا لذكر بعض زبانية السجن والموت بأسمائهم، غيبضا وحقدا وألما، أولئك الزبانية الغلاظ الذين لا ينتدبون إلا للمهمات القذرة ومن هؤلاء السفاحين "بوجي وقرفلوف" في "حراسة الليل" وعن أعمالهما الشنيعة يذكر موثقا مفدي زكريا : " كلمة يتهامس بها السجناء كلما لاح لهم في الحراسة الليلية شبح الحارسين 'بوج' و 'قرفلوف' وهما لا يتناولان الحراسة بالليل إلا لأمر خطير تنتدبهما إدارة السجن كلما عزمت على تنفيذ حكم الإعدام لقساوتهما و غلظة كبدهما ولا يظهران أمام السجناء إلا في ساعة الموت 'الثالثة صباحا' و لكن ذكاء السجناء يكشفهما أينما كانا"⁽¹⁾.

ويتابع مفدي زكريا الأحداث والمشاهد الحزينة الدامية التي يتعرض لها الإنسان الجزائري داخل هذه الدهاليز المظلمة ويعمد إلى رصد المعاناة ورسم المأساة وتأزمها لحظة بلحظة، و تحتد الغربة عنده ، عندما يتقدم المحكوم عليه بالإعدام في إباء وشموخ ، هازئا من الأقدار وساخرا من أسئلة القاضي البليدة التافهة، وهو يصعد إلى المقصلة مكبرا مهللا، فيغتاض مفدي زكرياء، ويشعر بالألم الشديد والحزن العميق، فيقول : " وهناك أمام المقصلة وفي حفل من الجلادين يسأله القاضي : ألك طلبه تريدها؟ فيجيبه بسخرية وإزدراء : ليس من عاداتنا أن نطلب، بل من عاداتنا

1 - مفدي زكريا : كيف تتحدى الموت أمام المقصلة، ص 9-10

أن ننتزع وسننتزع منكم إستقلالنا، أن عاجلا أو آجلا. ألا تخاف من المقصلة؟ ما أنا بالذي أخاف من مقصلة أعدت منبرا لأمثالي، بل أن المقصلة سترتعد فرائصها من بعد قليل، فيسأله (فضيلة الإمام)، هل لك وصية توصي بها؟ لقد كنت إماما تصلي بالناس فوصيتي لك ولأمثالك أن أكون اليوم إماما لتصلي ورائي!، ثم يصعد المقصلة شامخا أنفه، رافعا رأسه صارخا في إذن الدنيا: الله أكبر، تحي الجزائر :

وَنِدَاءُ مَضَى يَهْزُ الْوَجُودَا :	صَرَخَةً، تَرْجِفُ الْعَوَالِمَ مِنْهَا
وَاصْلُبُونِي فَلَسْتُ أَخْشَى حَدِيدًا	" أَشْنِقُونِي فَلَسْتُ أَخْشَى حَبَالًا
دِي، وَلَا تَلْتَثِمُ، فَلَسْتُ حَقُودًا	" وَامْتَثِلْ سَافِرًا مُحْيَاكَ جَلًّا
أَنَا رَاضٍ، إِنَّ عَاشَ شَعْبِي سَعِيدًا	" وَاقْضِ يَا مَوْتُ فَيَّ مَا أَنْتَ قَاضٍ،
حُرَّةً، مُسْتَقْلَةً، لَنْ تَبِيدَا"(1)	" أَنَا إِنَّ مِثُّ، فَالْجَزَائِرُ تَحْيَا،

ومن المواقف الدامية الكثيرة، التي ترسخت في عوالم الشاعر الباطنية ألما وذكرى حزينة لا تنسى، مواقف الصبر والتحدى النادرة التي يتحلى بها شهداء المقصلة في تنافسهم إلى دعوة الشعراء لينظموا لهم مرثي البطولة والإقدام، يترنمون بها وينشدونها في مهرجان الموت، فيقول منكسرا حزينا على فراقهم، فخورا بشجاعتهم معتزا بصبرهم الكبير أمام الموت، " الشهداء المتنافسون في ميدان الخطابة فيوجهون طلباتهم سلفا للأدباء والمثقفين من أخوانهم المساجين ليتفننوا لهم في تحرير نصوص أقوى من سابقهم يصصرصرون بها في مهرجان الموت؟"(2).

تسمع هذه الصرخة الصامدة المتحدية تبلغ الآفاق حيث يطلب الشاعر أن يسكت الكلام ويعلو الرصاص لأن العدو لا يستفيق من غيبانه إلا تحت دوي الرصاص.

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص 10

2 - مفدي زكريا : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، ص9

مثل هذه المواقف نجدها منتشرة بكثرة في اللهب المقدس تبرز أشعاره صمود الإنسان فوق الأرض حيث يرتقي الإنسان الجزائري فوق المآسي طلبا للعزة والشهادة.

ومن المواقف التي رسخت بواعث الحزن والغربة، في عوالم مفدي زكريا وسكنت ذاكرته دون أن تبرحها لحظة، مشهد أبناء الجزائر أمام المقصلة، وهم يتسابقون ويتنافسون، وكل واحد منهم يريد أن يتقدم إليها قبل غيره، لينفذ فيه حكم الإعدام مما يستدعي تدخل إدارة السجن لفض النزاع، والرجوع إلى السجل الذي تقيد فيه أسماء المساجين، وعلى ضوء ذلك يتقدم الأبرار كل حسب رتبته أمام مشنقة الموت، فينادى عليه، فيقوم ابن الجزائر، يقول: بحرقه، وصبر وتحد، واصفا المرحوم أحمد زبانة* الذي يمثل أول شهيد دشّن هذه الآلة اللعينة.

قَامَ يَخْتَالُ كَالْمَسِيحِ وَثِيْدَا	يَتَهَادَى نَشْوَانٌ، يَتْلُو النَّشِيْدَا
بَاسِمَ الثُّغْرِ، كَالْمَلَأَيْكِ، أَوْ كَالطَّ	فَلِ، يَسْتَقْبِلُ الصَّبَاحَ الْجَدِيْدَا
شَاخًا أَنْفُهُ، جَلَالًا وَتِيْهًا	رَافِعًا رَأْسَهُ، يُنَاجِي الْخُلُوْدَا
رَافِلًا فِي خَلَاحِلٍ، زَعْرَدَتْ تَمُ	لَا مِنْ لَحْنِهَا الْفَضَاءَ الْبَعِيْدَا!
وَامْتَطَى مَذْبَحَ الْبَطُوْلَةِ مَعُ	رَاجًا، وَوَأْفَى السَّمَاءَ يَرْجُو الْمَرْيَدَا
وَتَعَالَى، مِثْلَ الْمُؤَذِّنِ، يَتْلُو...	كَلِمَاتِ الْهُدَى، وَيَدْعُو الرُّقُوْدَا
صَرَخَةً، تُرْجِفُ الْعَوَالِمَ مِنْهَا	وَنِدَاءٌ مَضَى يَهْزُ الْوُجُوْدَا: (1)

لا شيء يقوله السجين إلا كلمة -الله أكبر تحي الجزائر- ولا شيء يعظم ويكبر في تلك الخطا الرهيبة الحزينة، إلا كلمة -الله أكبر- تتردد في أرجاء السجن، وفي هذا المشهد الكئيب المفزع يخلص مفدي زكريا من صور المعاناة، ليشيد بإخوانه المساجين أبناء الجزائر الأبرار، الذين يعانون ألوان البطش والقتل الشنيع داخل السجون، فيقول: "هكذا يستقبل أبناء

* أحمد زبانة : أول شهيد نفذ فيه حكم الاعدام ليلة 18 جويلية 1955، بسجن بربروس.

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص 9-10

الجزائر الموت لأجل الحياة، وهكذا يموتون إبتغاء البقاء، وإنّ شعبا له من قوة الإيمان وصدق العقيدة، هذا الرصيد لن يخيبه الله أبداً، ولن تستطيع أية قوة في هذا الوجود أن تصده عن بلوغ ما يصبو إليه من مجد وكرامة"⁽¹⁾.

ومما تقدم ندرك عمق مأساة مفدي زكريا، ومن خلال المشاهد المربعة التي نشرها داخل المقالة، ندرك قيمة حرصه الشديد على نقل هذه الأنفس المغتربة المتألّمة المقبلة على مقصلة الموت بكل شجاعة وصبر، وتوضيحا دقيقا لما يجري داخل سجن "بربروس" من آلام وغربة ومأسٍ وما يصاحبها من معاناة وما تتركه من حزن ووحشة وغيض، لذلك كان سجن "بربروس" بحق سجن غربة ما وراءها غربة إلا الموت.

ومن جملة المآسي التي يمكن الوقوف عندها- وهي عديدة- في غربة السجون، إبان الثورة التحريرية، والتي عبر عنها مفدي زكريا داخل دهاليز "بربروس" العميقة، الخوف والقلق والألم والعذاب والشوق والحنين... وسواها من ظواهر الغربة والحصر.

عرفنا عن مفدي زكريا الصبر والتجلد في شعره، ولغة التحدي المطلق للسجن وزبانيته من السجانين، فقد مر داخل هذه الدهاليز بإنفعالية مؤلمة تولدت عن أفعال شنيعة شاهدها وحدثت له شخصيا، فيحكي لحظات الغربة والألم والعذاب المنبعثة من أعماق أناته الباطنية، وتخرج تساييح بخياله نحو العلياء، ومنّ حوله في نوم عميق لا يدرون ما بحاله البائسة السابحة في عوالم الحرية المفقودة، وأصوات الشهداء التي لا تنام. "وتعطلت لغة الكلام"

و زكّا بها، في الخالدين (عصام)	ورسالة صاغ (الشّهِيد) بيّانها
وهفت به لحماكم الأحلام	أسرى بها من "بربروس" خياله
وقّع السّلاسل...و الرّفاق نيام...	عنى بها في الليل، يعزف لحنها

1 - مفدي زكريا : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، ص9

والقلبُ، بالأثأت يَقطعُ بحرَها دُقائهُ : الأوزانُ، و الأنعامُ⁽¹⁾

ومن الطبيعي أن تتحول حياة السجين جحيما وغربة لا تطاق، لأن المحتل الفرنسي لم يترك أدنى وسيلة إلا وجرها في عملية التنكيل بالمساجين، مما جعلهم لا يميزون في غياهب تلك الدهاليز المظلمة بين الليل والنهار، وملّوا معانقة الهموم التي لا ترحمهم على الإطلاق، فيصاب السجين بالأرق والقلق وتصبح حياة السجن عنده سيان يقول : مفدي زكريا " نشيد بربروس " :

يا سجن إزخر... بجنود الكفاح

فأنت يا سجن طريق الخلود...!!

أنت، محراب الضحايا

في حناياك الأسود

أنت.... أنت أنتيا بربروس ...⁽²⁾

لقد أثارت غربة السجن لدى مفدي زكريا حنينه وشوقه إلى الأهل والأبناء وهواء الوطن، فهو يحترق وراء القضبان غربة ولهفة واشتياقا إلى أهله، في الساعة المتأخرة من الليل عندما يكون الجمع ينام، يزوره الهم و تتزاحم عنده الذكريات، ويترنل عليه طيف "سلوى" صاعقة محملا بالشوق، شاكيا مرارة الفراق والبعد، فيدخله هذا الطيف في عوالم الذكريات، فيطير ساجحا مسترجعا لحظات فريدة من نوعها عند اللقاءات، فيقول : "من زنزانة العذاب رقم 73"

وربّ نجوى، كدنيا الحب، دافئة قد نام عنها رقيي، ليس يسترق

عادت بها الروح، من (سلوى) معطرة فالسجن، من ذكر(سلوى)، كله عبق

يا فتنة الروح، هلا تذكّرين فتى ما ضره السجن، إلا أنّه وميق؟

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام) بمناسبة خذلان المنظمة الدولية لقضية الجزائر في دورتها الثالثة عشرة سنة 1957، ص52.

2- المصدر نفسه : (نشيد بربروس)، ص88

هل تذكرين، إذا ما الحظ حالفنا إليك أهتف يا سلوى، فنتفق؟
أم تذكرين، و لحن الموج يطربنا إذ نفرش الرمل في الشاطئ و نعتق؟⁽¹⁾

كما تتضح غربة الشاعر شاخصة، عندما يتذكر أبنائه وهو بعيد عنهم، فدفعته غربته إلى الحنين، وتقره الذكريات والأشواق تمنيه إلى لقائهم وضمهم إلى صدره، فإن تعذر عليه ذلك راح يعبر عما يختلج في نفسه من مشاعر وأحاسيس بشئ الوسائل التي تمكنه من التعبير عن تلك الحالة العصبية، والحرق التي لا نظير لها، يقول مفدي زكريا في صفحاته الضائعة. " خفقة فؤاد : زهرات ضائعات في صفحات ضائعة " .

وكم بين أستار، الدجى من مدامع، تكاد من إلألاء تشرق الظلما
و كم بين طيات الأثير من الأسى يكاد صدى أناته يسمع الصّما
فيا أيها البين الممض صبابه ويا أيها الدهر المسيء بنا حكما
و يا كبدي الحرى، ويا مهجتي التي تسيل مع الأيام واللوعي سقما
هل القرب مكتوب؟ هل الدهر باسم؟ هل البرء مقدور، مرجى لنا يوما؟⁽²⁾

يحملنا هذا الوصف المضمن الأليم إلى الصورة المادية التي يتراكم فيها قوة الحدث - التعذيب - وهو المنتج للألم الذي لا يقف عند حد الرومنطقي المتغني بالألم مجرد أنه كذلك بل هو ألم موظف لخدمة قضية إجتماعية وسياسية ..

كما يظل موضوع الوطن من أعمدة ظاهرة الغربة عند مفدي زكريا، حيث خصص العديد من القصائد لهذا الغرض، وعبر بصدق ولهفة عن حبه واشتياقه لهواء وأرض الوطن، إلى درجة المبالغة و المغالاة في كثير من الأحيان، و تعد " إلياذة الجزائر" أعظم عربون للوفاء

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس (زنزانة العذاب رقم 73)، زج بالشاعر في زنزانة انفرادية مظلمة بسجن بربروس، يوم 28 أفريل 1955

فهاجت في أعماقه المواجه، فقالها وحفظها دون أن يكتبها، ص ص 21-22

2 - مفدي زكريا : أمجادنا تتكلم (خفقة فؤاد، زهرات ضائعات في صفحات ضائعات) ، ص ص 89 - 90

للوطن، لأنها " قد خلدت أجمادا حقيقية، وسطرت وقائع دامية، وأحداث أليمة، هي من روائع الدهر، لأي من خلق الجن، ولا من اصطناع شاعر، ولكن من صنع الإنسان الجزائري في الميدان!... وهي أحسن سجل للمأساة و تاريخ الجزائر حتى اليوم، أي أحسن كتاب، و حتى إذا ما كتب هذا التاريخ يوما ما، بصفة كاملة، شاملة، فستبقى إلياذة الجزائر أروع تاريخ لها، وأكثره وقعا في النفوس، وأسهله على الحفظ، والتذكر، والإستشهاد في مغرض الإستشهاد و الإحتجاج!"⁽¹⁾. من أجل هذا كان مفدي زكريا يستعذب آلام السجن ولا يهابه سواء أكان " منغلقا أم مفتوحا".

ملحمة امتدت فصولها ومآسيها عشرات السنين يتألف من أحداثها وأيامها، ونضال رجالها، وأدبائها صفحات مثالية من العناد المستميت للحفاظ على التراث: إغناؤه بجهد جديد ضد قوي قاهرة ومدمرة ..

وقد أنشد مفدي زكريا في " إلياذة الجزائر" معاناته، وصرخاته، وصيحاته، وغضباته، وسخرياته... حبه للمحمة الوطن فيقول :

جزائر يا مطلع المعجزات	و يا حجة الله في الكائنات
و يا بـسمة الرب في أرضه	و يا وجهه الضاحك القسما
و يا لوحة في سجل الخلو	د تموج بها الصور الحالمات ⁽²⁾

ويزداد حبه، و تتفجر حناياه عشقا و لوعة في حب الوطن، فيقول :

فيا أيها الناس...هذي بلادي	ومعبد حي، وحلم فؤادي
لأجل بلادي، عصرت النجوم،	وأترعت كأسي، و صغت الشوادي

1 - مولود قاسم نايت بلقاسم : إلياذة الجزائر مجلة الثقافة، وزارة الثقافة و السياحة، بالجزائر، السنة السادسة عشر، العدد 1

9 فبراير 1986، ص ص 14- 15

2 - مفدي زكريا : إلياذة الجزائر، المعهد التربوي الوطني الجزائري، ب ت، ص ص 14- 15

وأرسلت شعري...يسوق الخطى بساح الفدا...يوم نادى المنادي
وأوقفت ركب الزمان طويلا أسأله: عن ثمود...و عاد...
وعن قصة المجد.. من عهد نوح وهل إرم.. هي ذات العماد؟
فأقسم هذا الزمان يمينا وقال: الجزائر... دون عنناد!⁽¹⁾

وعند هذه الأبيات يقف المرحوم مولود قاسم نايت بلقا سم مشدوها، ويتساءل عن عظمة هذا الحب إن كان موجودا عند أدباء التاريخ فيقول رحمه الله " هل هناك من قال مثل هذا؟
إبحثوا في تاريخ الأدب العالمي! من، دلوني، من فضلكم، بربكم وهو ربنا ورب العالمين، و أنا شاكر لكم مقدما، أيها القراء الكرام"⁽²⁾.

وكأنه في غربته وهو يكتب آخر سطور إلياذة الجزائر ،قد أحس بقرب الميعاد مع خالقه والإتحاق بإخوانه الشهداء، ثمن حرية الوطن ، إذ توفي بعد ذلك بقليل، بعد أن مجد بلاده، ويودعها الوداع الأخير ... قبل أن يعود إليها جثمانه الهامد ، الذي لم يعرف الراحة، ولا السكينة سوى ألم السحن والترحال والنكران والجحود...

بلادي، بلادي، الأمان الأمان أغنى علاك، بأي لسان؟
جلالك، تقصر عنه اللغى ويعجزني فيك سحر البيان
و هام بك الناس، حتى الطغاة وما احترموا فيك حتى الزمان
و اشراقه الروح منك تناهت تشيع الجمال، وتفسى الحنان
إليك صلاتي، وأزكى سلامي بلادي، بلادي، الأمان، الأمان⁽³⁾

1 - مفدي زكريا : إلياذة الجزائر، ص21

2 - مولود قاسم نايت بلقاسم : إلياذة الجزائر، مجلة اللنفاقة، ص15

3 - مفدي زكريا : إلياذة الجزائر، ص 102

هذه منابع غربة مفدي زكريا في حب الوطن، وهذه زفراته الحارقة التي نثرها طوال العمر في التعبير عن كفاح الشعب وذوده عن أرضه، وهذه هي بواعث غربته، التي تغنى بها حبا وتخليدا للوطن، الذي كافح من أجله، و ظلم من طرف بعض الزعانف - الأفاق - الذين شردوه، وكاد الوطن أن يفقده ظلما، وعدوانا وتزييفا للتاريخ.

وإذا كان الشعر الجزائري في أغراضه المختلفة عموما يحفل بتصوير مأساة وغربة ما يدور داخل السجون ألوان الممارسات اللاإنسانية، فإن شعر مفدي زكريا في هذا الموضوع يبقى المرجع الوحيد، و يحتل المقام الأرفع، لأن الشاعر قد دخل السجن مرارا وتكرارا، ويمثل الجزء الأول من ديوانه "اللهب المقدس" التي اختار لقصائد السجن عنوانا مثيرا "من أعماق بربروس"، قد عرف غربة "السجن ما يعرفه كل الثوريين من ألوان التعذيب النفسي، الجسدي، كهرباء، ثلج و جلد، و غطس في الماء إلى حد الشرق، والحبس في الغرف الإنفرادية، و تجويع، و الصلب على الأشجار في العراء، والتعريض لنهش الكلاب، وتسليط الأضواء الكاشفة على العينين مدة طويلة وغيرها"⁽¹⁾.

كل هذه الأعمال الوحشية لم تجد عند مفدي زكريا سوى الصبر على الآلام، والتضحية بما يملك من أجل مبادئه ودينه وحرية وطنه، ولم تكن الغربة والجراح والآلام إلا أقلاما كتب بها أحزانه ومعاناة إخوانه وما يلاقونه صباح مساء من طرف زبانية المحتل الفرنسي المستبد من بطش وتنكيل بدون انقطاع، وداخل هذه الدهاليز الرهيبة وهذه السجون أبدع مفدي زكريا أروع قصائده الثورية إن لم تكن أروع ما نظم من شعر، لان المعاناة هي التي تفجر الصدق الفني، وكان الشاعر نفسه يعتز بتلك القصائد التي كتب بعضها بدم، ويقول أنها القصائد الوحيدة التي يحفظها من شعره عن ظهر قلب. وأحسب أن تلك الظروف التي شرفته بأن أهدها شعبه وسام الجهاد، فسماه بحق شاعر الثورة الجزائرية، ويكفيه ذلك الوسام، وهذه التسمية أي (وسام أو تسمية أخرى) "⁽²⁾

1 - محمد ناصر : مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة، ص19

2 - المرجع نفسه : ص19

ثانيا : _____ بواعث الغربة السياسية، في شعر مفدي زكريا

ويمكن إعتبار أشهر قصيدة في شعر السجون في الثورة التحريرية ، والتي تظهر أبعاد المأساة والظلم، وتعكس بصدق عظمة الإنسان الجزائري، وإقدامه على تحمل الآلام والشدائد، وتعطي صورة ناصعة في التحدي والإيمان عند أول شهيد - سبق الحديث عنه - من شهداء العزة والكرامة .

في هذا القصيد المشحون بالغضب والألم والفراق المر، فجر مفدي زكرياء " أروع مناظر الفرح والإستبشار من خلال أفضع المواقف هما وحزنا، واستخدم فيها لغة هامسة، تتصاعد في نغم هادئ، حزين فتشعر وكان القصيدة صفحة من بحر ساكن، هادئ ولكنه يحمل في أعماقه العظمة والقوة"(1).

وهي قصيدة قد تعرضنا لبعض أشعارها، وقدم لنا الشاعر معاناته الخاصة وغرته الموحشة داخل السجن، وعدم اكترائه بما يحيط به من زبانية، لأنه أصبح في غربته تلك لا يخشى لا السجن ولا زبانيته، لأن ملّ الحياة التي أصبح يراها وكأنها تحولت إلى سجن هي الأخرى ، فيقول مغتربا متألما وحيدا لا يرى سبيلا، فيزداد اضطرابا وقلقا ويشعر بالضيق :

سَيَانِ عِنْدِي، مَفْتُوحٌ وَمَغْلُوقٌ	يا سجن، بابك، أم شُدت به -الحلقُ
أَمِ السَّيِّاطُ، بِهَا الْجَلَادُ يُـلْهِبُونِي	أَمِ خَازِنُ النَّارِ، يَكْوِينِي فَأَصْطَلِقُ
وَالْحَوْضُ حَوْضٌ، وَإِنْ شَتَّى مَنَابِعُهُ	أَلْقَى إِلَى الْقَعْرِ، أَمْ أَسْقَى فَأَنْشِرُقُ
سَرِّي عَظِيمٌ، فَلَا التَّعْذِيبَ يَسْمَحُ لِي	نَطَقًا، وَرَبِّ ضَعَافٍ دُونَ ذَا نَطَقُوا! (2)

هذه صور الغربة التي عانى منها مفدي زكريا، تحكي بصدق العبارة عن بواعث هذه الغربة التي تصور جوانب متعددة من ألوان التعذيب الوحشي الذي كان يتعرض له أبناء الجزائر

1 - محمد ناصر : مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ، ص 65

2 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (زنزانة العذاب رقم 73)، - بنت الجزائر .. أهوى فيك طلعتها - ص ص 20 - 21

الأبرياء داخل هذه الدهاليز الرهيبة، فأصبحت الحياة عندهم جحيما لا يطاق، فلم يزدحم بطش
زبانية المحتل الفرنسي إلا صمودا وصبرا و تحديا، وأضحى السجن عندهم لا يخشاه أحد، لأنهم عرفوا
فيه كل ألوان العذاب والألم، فيقول :

يا سجن، ما أنت؟ لا أخشاك تعرفني من يجذِّق البحرَ، لا يُحدِّقُ به الغرق
إني بلوتك في ضيق، وفي سَعة وذقت كأسك، لا حقد ولا حنق⁽¹⁾

إن غياهب السجن وظلماته وغربته عند مفدي زكريا ليست إلا الرمز الأبدي لطموح
الإنسان الجزائري، وحرصه على دخول المجد من بابه العريض لا بوصفه فردا يهوى المغامرة
والإندفاع وراء المخاطرة بالنفس، ولكنه بصفته يحمل رسالة شعب يرنو إلى الخلاص والاستقلال
والحرية، يقول مفدي زكريا :

واخشري في غياهب السُّجن شعباً سيم حَسَفاً، فعاد شعباً عَنيداً
واجعلي "بربرُوس" مثوى الضُّحَايا إن في بربروس مجداً تليداً!!⁽²⁾

إن قوة الصبر واحتمال الألم في سبيل الحرية سبيل مفدي زكريا في النضال، لأنه
يحمل قضية وطنه وشعبه في قلبه ويتوقع الأهوال في سبيل بلوغها. فالسجن عند مفدي زكريا لا
يمثل حالة فردية يعاني منها في غربته شخص ما، بل بوصفه وضع جماعة وأمة تجسد بحق مأساتها
وتشردها وغربتها القاتلة، وإن السجن أحد هذه البواعث الإرهابية التي يسلطها المحتل الفرنسي
يومية ضد أبناء الجزائر، وعلى هذا الضوء فإن موقف الشاعر منه لا يختلف عن موقفه من وسائل
الإرهاب و بواعثه الأخرى يقول مفدي زكريا.

لَا النَّارَ، لَا التَّقِيلَ، يَثْنِي عَزَمَهُ لَا السُّجْنَ، لَا التَّنْكِيلُ، لَا الْإِعْدَامُ!

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (زنزانة العذاب رقم 73)، ص 21

2 - لمصدر نفسه : (الذبيح الصاعد)، ص 18

لا الذَّارِيَاتِ، الماحِقَاتُ، هَوَ طِلًّا لا الشَّامِحَاتِ، تَدُكُّهَا (الأَلْعَامُ)⁽¹⁾

هذه الزفرات الشعرية، تظهر بصدق حقيقة المعاناة، وتبرز عظمة البلوى والمأساة، وتقدم للعالمين صورا حزينة، لموقع لا يحوي إلا أشكال البطش والإعتداء والعذاب، وأنماطا مشكلة من أنواع غرائب التعذيب، كالسياط الحارقة للأجسام البريئة، والغطس في مياه الأحواض المملوءة بالدرن، وغياب أوقات الراحة والحرمان لحظات النوم، والتواصل بدون توقف لألوان التعذيب، وكل ذلك يصاحبه فراغ رهيب في أعماق الذات، وليل مظلم، تتألف فيه الهموم وتتضاعف الأوجاع وتتعاظم غربته، ويطول ليله " ذلك أن ليل الهموم طويلا، وخاصة إن الشاعر يرسف في القيود، ويعاني ثقل الحديد مربوطا به جسده"⁽²⁾ غربة وعذاب مرير يتصل ليلها بنهارها ولا سيما في ذلك الوقت الصعب، وداخل ظلمة ليل بهيم قاتل يزيد الوضع كآبة وتتعاظم فيه الأحزان يقول :

و الليلُ يَكْتُمُ في ظُلمائِهِ شِبْحًا يَأْوي إلى شبح، ضاقت به الطرق
يا ليل! كم لك في الأطواء من عجب!! يَا ليل! حالك حالي، أمرنا نسق!⁽³⁾

وعندما لا يجد مفدي زكريا في وحدته وغربته أنيسا لكربته ومأساته في واقعه، يعود إلى ذكر الماضي، محاولة منه للإنعتاق من وطأة الحاضر الأليم التعيس، وهذه الظاهرة " أمثلتها كثيرة في واقع الفرد والمجتمع، إذ يحس المرء بثقل الحياة و ماسيها، فيهرب الى الذكريات الجميلة أو الحزينة، وربما تذكر الإنسان لحظات حزينة ليعمق حزنه باللحظة التي يحيا، وهو يسترجع اللحظات الأليمة التي مرت به، فيزيد حزنه حزنا، ولكنه على كل حال يهرب من واقعه التعيس"⁽⁴⁾

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص45

2- عبد الرزاق الحشروم : الغربة في الشعر الجاهلي، ص185

3- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (زنزاة العذاب رقم 73)، ص25

4- عبد الرزاق الحشروم : الغربة في الشعر الجاهلي، ص241

ثانيا : _____ بواعث الغربة السياسية، في شعر مفدي زكريا

فهو في غربته وآلامه يستنير بالموروث، ويستعين على بلواه، بما نشره من مسبقوه من
فحول الشعراء كالمثني*:

كن أيها السجن كيف شئتَ فقد وطنت للموت نفس معترف
لو كان سكنائي فيك منقصةً لم يكن الدر ساكن الصدف⁽¹⁾

وهو في غربته يقف متحديا للسجن، ذاكرا فنون التعذيب كلها، غير مبال بها، وبالذي
يأتون به من ألوان التعذيب، فالسجن خلق في النفس شعورا بالغربة والأسى فقد ظل يلاحقه في كل
مكان يتزل به. ويتمص مفدي زكريا ظروف وأحوال غيره ممن سبقوه و ما حدث لهم
ويرفض معهم وعلى لسانهم لما يجوب العالم من ظلم وسلب وعدوان منذ أقدم الأزمان ويثور في
غربته على هذه الأوضاع المأساوية التي سكنت عصره والتي يسيرها الطغاة والظلمة والجبابرة كما
يشتهون، وهكذا يصبح صوته استمرارا لهذا الصدى المدوي المعبر عن الرفض عبر الزمن دون
انقطاع، و يقول :

ثارت على الظلم، مثل السيل جارفة فلا القيالِق، تشبهها ولا الفرقُ
لم يثنه دون إدراك المني رهق وإن هم، أحرقوا بالنار، أو شُنقوا⁽²⁾

ومهما أظهر مفدي زكريا في سجنياته الصبر مخفيا ذاته الحزينة المغترية، فان واقعه
داخل السجن، وما تعرض لهمن ويلات وعذاب مزمن، لا يزيل ويغير حقيقة الغربة التي يعيشها،
ولا يذهب أو يشفع ألوان الإذلال والإحتقار التي تعرض لها في سجنه :

أسرى بها من (بربرُوس) خياله وهفت به لحماكم الأحلامُ

* هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجعفي، نسبة إلى قبيلة جعفي (على وزن كرسى) اليمنية، ولد بالكوفة (915-965م) في حي كندة،
ينظر : ماهر حسين فهمي، الحنين والغربة في الشعر العربي، ص 53

1 - ديوان المثني : شرح عبد الرحمان البرقوقي، ج3، دار الكتاب العربي بيروت، ب ت، ص24

2 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (زنزانة العذاب رقم 73)، ص27

غَنَى بِهَا فِي اللَّيْلِ، يَعْزِفُ لَحْنَهَا وَقَعُ السَّلَاسِلُ...وَالرِّفَاقُ نِيَامٌ...
وَالْقَلْبُ، بِالْأَنَّاثِ يَقْطَعُ بِحَرْهَا دَقَّائِهِ : الْأَوْزَانُ، وَالْأَنْغَامُ⁽¹⁾

فظاهرة الغربة بارزة لتوفر عواملها الأساسية، رغم ما يظهره من صبر وثورة ورفض، إذ نجده من لحظة وأخرى يعود إلى ذاته الجريحة التي قهرها التعذيب، وإنزوى بها البعد و النوى. وتتضاعف غربة الشاعر داخل السجن وضوحا، خاصة عندما يصاب بضيق الوثاق وصلابته على معصميه ورجليه، فيعمد إلى النداء المدوي المشحون بالألم والأسى، لأن البعد أهلك صبره، وإنفصام الصلة بين الحياة و الحرية أجهد فكره، ومأساة انتظار ساعة الإعدام بعد ساعة أظناه.

سَلَوَى! أُنَادِيكَ سَلَوَى! هَلِي تَجَاوِبِي سَلَوَى؟؟ فَإِنْ لَسَانِي بِاسْمِهَا ذَلِقُ
رُدِّي عَلَيَّ أَهَازِ بِجِي مَوْقَعَةٍ فَقَدْ أَعَارَكَ وَزَنًا، قَلْبِي الْخَفَقُ⁽²⁾

فالغربة المقيمة مع الشاعر داخل السجن، دليل على عمق مأساته التي يريد أن ينقلها شعره، كما نقلها من سبقوه من فحول الشعراء* العرب في مثل هذه المواقف والظروف التي مبعثها ظاهرة الوجدان وردود أفعال الوجدانية.

وبهذا يصطبغ القول: إن غربة السجن عند مفدي زكريا، قد جسدت في شعره حديث الذات فيما تحب وتكره لشعر السجون ... وهي رفيقة له قبل السجن وفي أثنائه وفيما بعده وبين الوجدانية والرومانطيقية صلة وثيقة تتجلى في شعر السجون في أوضح صورها ومحمل الموضوعات الوجدانية التي عاجلها هذا الشعر تندرج في نطاق التغيي بالذات. الكثير من بواعث هذه الظاهرة، وأبرزت أشعاره المعاناة والممارسات الإنسانية داخل تلك السجون.

ويعد مفدي زكريا دون منازع أبرز الشعراء الجزائريين وصفا لتلك المؤسسات وما يمارس في داخلها من ألوان وضروب القمع والأعمال الوحشية الفريدة من نوعها.

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص 52

2- المصدر نفسه : (زنزانة العذاب رقم 73)، ص 25

* المعاناة نفسها سجلها أبو فراس الحمداني في شعره عندما قال :

دعوتك و الأبواب ترتج دوتنا فكن خير مدعو و أكرم منجد

ديوان أبو فراس : رواية ابن خلوويه، دار صادر، للطباعة و النشر، بيروت، 1979، ص83

إن اهتمام مفدي زكريا بالقضايا العربية والقومية، يرتبط إلى حد كبير بالجذور التاريخية المشترك للأمة العربية، وهو ما يعنى وحدة القيم اللغوية والتاريخية والدينية، ووحدة المصير. وكلاهما يمثل عند مفدي زكريا الأرضية التي تعيد نسيجاً للأمة، وتجعلها تتواصل مع تراثها وحاضرها، فهي تَمَكِّن الشاعر من إستيعاب الواقع العربي خاصة في وضعه المغترب وحالته المأسوية، وكان مفدي زكريا، وهو يتجاوب مع آلام شعبه ويعبر عن غربته الطويلة ومع أحداث وهيب الثورة التحريرية، لم تكن فكرة الكيان والوطن الجزائري في مفهومه بمعزل عن جذوره العربية الإسلامية " بل كانت الدعوة إلى كيات جزائري ... تعنى في حقيقتها وبعدها عودة إلى ذلك التاريخ العربي الإسلامي وإلى ذلك التراث بكل مقوماته، والذي حاول الاستعمار بكل الوسائل والطرق القضاء عليه "(1).

1- البعد الوطني :

يمثل البعد الوطني * بالنسبة لظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا، البؤرة الحادة لمعظم مظاهر معاناته ومأساته، إذ يمثل تعلقه الفريد بوطنه المحتل، وما يمليه عليه ضميره من حقوق وواجبات، وما يفرضه من حقوق، ومواطنـ العروبة، مغربه ومشرقه، ثم مواطن الإنسانية.

1- محمد الصالح الجابري : (الوعي القومي والليبي عند الشعراء الجزائريين المهاجرين إلى تونس)، مجلة الفكر، عدد 7، 30 أبريل 1985 ص32.

*كلمة الوطن لغة : تعني مكان إقامة الإنسان ومقره، "فوطن الإنسان هو مسقط رأسه، ومكان سكن أهله وأقاربه، إنه المكان الذي أمضى فيه المرء طفولته.

- وهيب طنوس : الوطن في الشعر العربي من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، منشورات جامعة حلب كلية الآداب مديرية الكتب والمطبوعات، 1979، ص 379.

"والوطن عند الجاهليين لا يصور حدودا جغرافية معينة، ولكنه يصور جماعة من الناس، تربطهم أواصر النسب،" المرجع نفسه : ص285

أما كلمة الوطن : في الإصطلاح الحديث، تعني القطر الذي ينتسب إليه الإنسان من حيث جنسيته.

أما كلمة الوطنية : فيراد بها ارتباط الفرد بوطنه وتعلقه به، باعتباره مئوى أبائه وأجداده.....المرجع نفسه : ص379 وما بعدها.

يعتبر ابن الرومي من أشهر الشعراء الذين مجدوا الوطن وتغنوا به يقول:

ولي وطن آليت ألا أبيعـه	وألا أرى غيري له الدهر مالكا
وحب أوطان الرجال إليهم	مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذ ذكروا أوطانهم ذكرهم	عهود الصبا فيها فحنوا لذلـكا
المرجع نفسه ص.285	

وبالنظر إلى الشعر " نجد أن تمديد مفهوم الوطن والوطنية تمديد معاصر لم يكن معروفاً عند القدماء بهذا المعنى، رغم أن كلمة الوطن ترددت بكثرة في أشعارهم" (1).

فنظرة القدماء للوطن معناه محصوراً في التزول والإقامة في مكان "لأن العرب في ذلك العهد كانوا سادة ديارهم، فإذا تشوقوا أو تعلقوا بالأوطان، فلأنها بعيدة عن العين أو لأنها أثارت ذكريات الطفولة المحببة" (2).

وهذه الظاهرة التليدة، دفعت الشعراء القدماء إلى جعل المطالع العربية " الطليعة للقصاص المتضمنة موضوع الوطن، والتي تتردد فيها أصداء فقدان الأهل والأقرباء والمواطنين والحنين للأماكن المهجورة، تحمل معاني جديدة، فتولدت تحت تأثير الشروط الجديدة للحياة ولا سيما استقرار العرب في أماكن منفصلة متميزة عن الصحاري" (3).

لذا الوطنية والقومية* التي مصدرها الوطن تعتبران من أهم التفاعلات الاجتماعية " التي تربط الفرد البشري بالجماعات وتجعله يحبها ويفتخر بها ويعمل من أجلها، ويضحي في سبيلها. ومن المعلوم أن الوطنية هي حب الوطن والشعور بارتباط باطني نحوه، والقومية : هي حب الأمة والشعور بارتباط باطني نحوها، والوطن — من حيث الأساس — إنما هو قطعة من الأرض، والأمة — في حقيقة الأمر — إنما هي جماعة من البشر، فنستطيع أن نقول — بناء على ذلك — إن الوطنية : هي ارتباط الفرد بقطعة من الأرض تعرف باسم الأمة. ولهذا فإن مفهوم الوطنية لا يختلف — في الحقيقة — عن مفهوم القومية : كل الاختلاف كما أن حب الوطن يتضمن في الوقت

1- إبراهيم السولامي : الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية، دار الثقافة، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، 1974،

2- عبد الرزاق الخشروم : الغربة في الشعر الجاهلي، ص 38

3- وهيب طنوس : الوطن في الشعر العربي (من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي)، منشورات جامعة حلب، سوريا، 1979، ص 379

* القومية : تعني الأمة، التي تتسع لتشمل أكثر من وطن مثل القومية العربية.

ينظر : إبراهيم السولامي : الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية، ص 379

نفسه حب الأرض التي تعيش عليها تلك الأمة. ولهذا السبب يتقارب مفهوم الوطنية من مفهوم القومية تقاربا كبيرا⁽¹⁾.

وتأسيسا من هذا الترابط والتداخل بين الوطنية — مصدر الوطن — والقومية، فإن الحديث عن ظاهرة الغربة عن الوطن وأبعادها النفسية، لا يقتصر فقط عن مفهوم الوطن وما يرمز إليه ويدل عليه بل سيتسع إلى ظواهر وأبعاد قومية في بعض ملامحها وصورها، وكل ذلك سندرسه ضمن نصوص شعرية، ثم إفرازها من عوالم ذات مفدي زكريا في مواقف ومناسبات عديدة. ويمثل البعد الإغترابي الإسلامي والعروبي والقومي، في مقدمة أبعاد الغربة عند مفدي زكريا، والتي تتدرج في منظور ظاهرة الغربة عنده بعد البعد الوطني، فإن الشاعر قد تجاوب مع الحدث، ولم يكن اهتمامه موقوفا على البيئة المحلية أو المجتمع وحده⁽²⁾ وإنما اهتم إلى جانب هذا بالحديث عن الوطن والعروبة والشرق، كل هذا في إطار الدين الإسلامي، فكثيرا ما تختلط هذه الأمور كلها لدى الشاعر، إذ يتغنى بالوطن ويقرن هذا التغني بالعروبة والإسلام، مازجا بين هذه الموضوعات الثلاث، لأنه لا يفرق بينها ولا ينظر إليها باعتبارها قضايا منفصلة، بل ينظر إليها نظرة واحدة، فالوطن والقومية والدين كلها بالنسبة له تعني أمرا واحدا، ولعل الحس التاريخي هو الذي فرض عليه هذه الرؤية، أو أن الضغط الاستعماري جعل الشاعر يرى رؤية شاملة للتحرر، فالوطن لا يتحرر إلا إذا رجع إلى أصلاته إلى قومه، ولا يتم ذلك كله إلا بالرجوع إلى القومية العربية، وهذه لا يعلو شأنها إلا إذا اعتمدت على الدين الإسلامي⁽²⁾. ويمكن اعتبار نظرة العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس* عن معنى الوطن وهو يوضح معالمه ومراميه وأبعاده، في ما نشره في مقالته التأصيلية المشهورة "لن أعيش" عندما يوضح بدقة نظريته ويقول: "...أما الجزائر فهي وطني الخاص، الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه

1- وهيب طنوس : الوطن في الشعر العربي، (من الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي)، ص 379

2- عبد الله ركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ش و ن ت ، ط1، الجزائر، 1981، ص ص 680-681

* عبد الحميد بن باديس : رائد الإصلاح الديني في الجزائر، ولد ليل 4-5 كانون الأول 1883، من أسرة بربرية عريقة في العلم، ويرجع أصلها إلى المعز بن باديس الصنهاجي (1014-1062)، مؤسس الدولة الأولى التي سبقت دولة الأغالية. ينظر : عمار طالي، ابن باديس حياته وآثاره، دار البقطة العربية، دمشق، ج3، ب ت، ص 483

خاص، وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة، وكما أنني كلما أردت أن أعمل عملا وجدتني في حاجة إليه : إلى رجاله وإلى ماله وإلى حاله وإلى آماله... نعم إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطانا أخرى عزيزة علينا دائما مَنّا على بال، ونحن فيما نعمل... لوطننا الخاص نعتقد أنه لا بد أن نكون قد خدمناها، وأوصلنا إليها النفع والخير من طريق خدمتنا لوطننا الخاص وأقرب (هذا) * الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى اللذان هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد لغة وعقيدة وآداب وأخلاقا وتاريخا ومصالحة. ثم الوطن العربي الإسلامي ثم وطن الإنسانية⁽¹⁾. إن شعر مفدي زكريا بخاصة، وهو يعبر عن مأساة شعبه، واحتلال وطنه وتشريد وإبادة شعبه، لم يكن يفكر — في غربته وأحزانه الملونة بالعذاب والألم — في كيان الوطن الجزائري في مفهومه الضيق المنفرد، منفصلا بأي حال من الأحوال عن قضية إلحام هذا الكيان بجذوره العربية الإسلامية، بل كانت الدعوة إلى كيان جزائري مستقل في نظره " تعني في حقيقتها وبعدها عودة إلى ذلك التاريخ العربي الإسلامي وإلى ذلك التراث بكل مقوماته، والذي حاول الإستعمار بكل الوسائل والطرق القضاء عليه⁽²⁾".

وبناء على هذه النظرة عمد مفدي زكريا من خلال القصائد إلى إيصال الماضي العربي الإسلامي الشامخ بالأيام الحافلة بالأجداد والحضارة، بالحاضر الذي أصبح عابسا، فنحده يتألم ويصاب بالغثيان على هذا الحاضر الذي لا يمثل الماضي ولا يمجدده. وعلى الرغم من أن ظاهرة التمزق والشعور بالانفصال عن الوطن ظاهرة تليدة في حياة الإنسان، فإن الشعراء اتخذوا من إنفعالاتها - أحيانا - حالة وطنية. وقد ظهر الوطن في أشعاره، هو مكان تواجد القبيلة ومرتع الصبا، ثم تحول عند المتأخرين منهم، هو الوطن الذي فيه أهل الشاعر وقومه، وتحده حدود سياسية ويرفرف عليه علم ذلك البلد ورمزه.⁽³⁾

* هذا : هكذا ورد في النص... وهي معناها هذه

- 1- عمار طالبي : ابن باديس، (حياته وآثاره)، دار مكتبة الشركة الجزائرية، 1968، ص ص 236-237
- 2- محمد الصالح الجابري: الوعي القومي والديني عند الشعراء الجزائريين المهاجرين إلى تونس، (مجلة الفكر)، ص 32
- 3- أبو قاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ش و ن ت، الجزائر، 1981، ص 30

لذا إن الإحساس بالغربة وبالشقاء بعيداً عن الوطن والشعور بالتمزق والحرمان من الأهل والأصدقاء، يعد مصدراً لليأس والإنكسار، وبذلك تبدو الحياة وكأنها الفراغ الموحش، ويبدو الوجود مظلماً مخيفاً بل مرعباً فظيعاً، فإذا المغترب أو المهاجر لا حول له ولا قوة، وإذا هو مستسلم للأمر الواقع. وأنه يشعر دائماً بأنه غريب وأنه في عزلة عن الناس، وأنه ليس ممن حوله منه، فيعيش كالطير السجين في قفص، قضبانه من ذهب، ولكنه لا يهنأ يوماً، لأن حوله وأفق الذي يرفرف ويخلق فيه، سلب منه، ومن هنا كان الطابع العام بالنسبة لشعر الإغتراب هو التشاؤم والشوق والتحرق إلى الوطن وإلى الأهل والأحباب (1)

إن ظاهرة الغربة والتمزق تعد - أيضاً - مصدراً من مصادر الفهم، ومن مصادر الإشعاع - والتي ليست بالإغتراب - هي وضع يكون طبيعياً عند الأديب والشاعر والفنان، يفرضه عليه ذلك البحث عن حقيقة المجتمع ويتطلبه التعمق في طبيعته، وهذا لا يتم إلا بالتجاوز والإبتعاد إلى حد ما.

لأن التجاوز لا يجب أن يؤدي إلى القطيعة وإلى تفكيك الصلة بالمجتمع والغربة الثقافية ضرورية لفهم المجتمع وللتعرف على كنه حقيقته، فهي سد للفراغ وإملاء الهوية، وهي إيجابية في مضمونها وفي أهدافها وفي محصولها، وتمثل عربون أصيل للإنتاج الثقافي في المناخ الاجتماعي. أما الإغتراب فهو سلب جملته وتفصيلاً، لأنه يعوزه الوضوح والوعي والشعور بالمسؤولية، وتلك الإرادة الخلاقة لوضع المجتمع والمحيط محل درس وتحليل. وكثيراً ما نلاحظ تقليداً أعمى للغير - أو للماضي - وليس ذلك التقليد في نهاية الأمر إلا ضرباً من محاكاة الآخرين - زماناً ومكاناً - والتنكر للماضي أو لبني المجتمع أو الأمة - والإغتراب أنواع وأصناف، وأبشعها ما يأتي لنقص في البعد أو لإنعدام التحكم في المصير الثقافي (2).

1- ماهر حسين فهمي : الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، ص 71

2- عبد الوهاب بوحديدة : النشر الثقافي العربي المعاصر، وعلاقته بالمجتمع، مجلة الثقافة الجزائرية ، ج 2، العدد 76، السنة 3 حويلية - أوت 1983، ص 23.

إن التحرق والتمزق والشوق إلى الأهل والوطن لا يكون إلا عند الإغتراب أو الغربة، يكون عندما يقع الشاعر في الأسر أو في حالة النفي أو بسبب حرب أو مغامرة في سبل متعددة أو غيرها، ففي مثل هذه الحالات، نجد الشعراء ينطلقون في القول ويكثرون من النظم في الشوق والحنين، وقلما نجد من يسكت منهم في الغربة عند مناجاة وطنه والتشوق إليه وإلى أهله⁽¹⁾.

لذا فإن شعر الغربة والتحرق إلى الوطن الجزائر، هو شعر التمزق الوجداني، الذي يأتي متضمنا أبياتا ومقطوعات غنائية يغلب عليها طابع التأمل والتخيل، وتتميز بالصدق العميق في معظمها - وهي في نظرنا أفضل ما نظم حول ظروف الجزائر تحت السيطرة الإستعمارية - وفي منظور هذا الشعر إستطاع الشعراء تخطي حدود المناسبات والتغيير عن مأساة الإنسان الجزائري في ظل الإستعمار والإستغلال⁽²⁾، لقد أضطر كثير من الجزائريين غداة الإحتلال الفرنسي إلى مغادرة بلادهم والهجرة إلى بلدان شقيقة كالمغرب وتونس أو إلى بلدان المشرق العربي، فقد شعروا بمرارة الغربة عن الوطن، على الرغم من أنهم ظلوا يعيشون بين أشقائهم العرب إلا أن الشعور بالمرارة والإحساس بالألم لم يكن نتيجة للإغتراب عن الوطن فحسب، إنما كانت نتيجة للوضعية التي كانت تعيشها الجزائر تحت كابوس الإحتلال وقسوته⁽³⁾.

منذ أن وطئت أقدام المحتل الدخيل أرض الجزائر، عمد بكل ما يملك من آليات ومخططات إلى محو وطمس المظاهر العربية الإسلامية للجزائر وأن يزيل من على أرضها كل ما له صلة بتاريخها الحضاري والفكري الذي تركه الأجداد إرثا ناصعا للأبناء والأحفاد، ولتحقيق مساعيها الإستغرابية عمدت السلطة الفرنسية إلى منع "تدريس تاريخ الجزائر والمشرق العربي، وقد حاولت عبثا الكتب الفرنسية المقررة في المؤسسات التعليمية المفرنسة آنذاك، أن تقنع الجزائريين أنهم أحفاد" شارلمان وجان دارك" وأن أجدادهم هم "الغول" وأن فرنسا هي الوطن الأم"⁽⁴⁾.

1 - محمد عبد الغني حسن : دراسات في الأدب العربي والتاريخ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1985، ص 185.

2 - نور سلمان : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرر، ص 334.

3 - شلتاغ عبود شراد : حركة الشعر الحر في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 101.

4 - حنفي بن عيسى : المستشرقون وتاريخ الجزائر، مجلة المعرفة، وزارة الأوقاف، الإدارة العامة للمنشورات، العدد 6، 1983، ص 16.

وتظهر الغربة عن الوطن، متجلية في هذه الأبيات التي يرسلها مفدي زكريا، في حركة قلب دامي، ويأس مضني، فيقول :

الحُبُّ أَرْقَنِي، واليأسُ أَضْنَانِي والْبَيْنُ ضَاعَفَ أَلَامِي وَأَحْزَانِي.
والرُّوحُ فِي حُبِّ لَيْلَايَ* استحالَ إِلَى دمع، فَأَمْطَرَهُ شِعْري وَوَجْدَانِي.

بعد أن عرض حالته النفسية المغتربة، وكيف كانت بلاده الجزائر المكبلة سبب بلواه وآلامه وأحزانه، هذه الإضطرابات العديدة، هي التي أفرزت هذه الأنغام المشحونة برسالة الشوق الدامي الدامع ثم يقول :

أُساهِرُ النَّجْمَ، والأَكْوَانُ هَامِدَةٌ تُصْعَيْ أَنِينِي، بِأَشْوَاقٍ وَتَحْنَانٍ
كَأَنَّمَا وَغْرَابُ اللَّيْلِ**مَنْحَدِرٌ رُوحِي وَقَلْبِي بِجَنْبِهِ جَنَاحَانِ
نَطْوِي مَعًا صَهَوَاتِ اللَّيْلِ فِي شَعْفٍ، وَنَرْقُبُ، الطَّيْفَ مِنْ آتٍ إِلَى آتٍ

وصف حي ودقيق ما يصف به مأساته، ووصفه حي بحياته ودقات قلبه، وجيشان عاطفته وغربته عن الوطن شديدة التأثير في القلوب، والغربة ظاهرة فريدة في دنيا الإنسان فهي في تهويل الخطب، وفي جعل الشعر كله في جو مكفهر حافل بالأحزان، وفي أساليب الوجدان المختلفة من تنوع وتقلب في الكلام، ثم يصل إلى مسبب الإضرابات، التي لو لم تكن لكان العدم فيقول :

رفقاً بلادي فأنت الكون أجمعه، لولاك كنت بلادي هالكاً فاني
« لك الفؤاد وما في الجسم من رَمَقٍ، ومن دمَاءٍ، ومن روح وجثمان ***
لك الرقاب، وما في الكون من نفسٍ، مُدِّي يمين الوفا، يا عين إنساني
« لك الحياة، فجودي بالوصال، فما أحلى وصالك في قلبي ووجداني»⁽¹⁾

*ليلاي : يقصد الوطن (الجزائر)

**غراب البين : ورد شرح ظاهرة التطير في الفصل الأول من الرسالة، ص 9.

*** مفدي زكريا : أمجادنا تتكلم، (قصيد لك الحياة)، هذا البيت والبيت التاسع علق عليهما الزاهري بقوله : " لمصطفى كامل المصري، شهيد

الوطنية "، اقترح عليه شاعرنا تضمينهما مثل ما رأيت، الديوان، ص 51

1- مفدي زكريا : أمجادنا تتكلم، (لك الحياة)، ص ص 51-52.

الوطن ذكرى القلوب المتحابة، وذكرى الاجتماع فالفراق، وهذه الذكرى صبغت لوعة وحزن وغربة، قد درج الشعراء قبل الإستقلال على إفتتاح قصائدهم بهذا اللون في الغربة التي كانوا يعيشونها فعلاً في كثير من الأحيان.

كما يصف مفدي زكريا ما تعرض له هذا الوطن، من أعمال الشقاق الدّامية، والإنفصامات الحاقدة، المدمرة للكيان الجزائري، الذي صبر وتصدى بكل ما يملك من جهد لإفشال هذه المخططات والمناورات الهدامة المؤذية للإنسان والمكان يقول :

فلكم تصارع والزمان، فلم يجذ	فيه الزمان — وقد توحد — مطمعا
وإستقبل الأحداث، منها ساخرًا	كالشامخات، تمنعاً وترفعاً
وأراد المستعمرون، عناصراً	فأبى مع "التاريخ" أن يتصدّعا ⁽¹⁾

ثم يعدد مفدي زكريا مظاهر الغربة، ومسبباتها الحقيقية التي جعلت هذا الشعب يتوحد حول الجراح والآلام الحمراء الدامية.

عآث فيها الطُغاة، عسفاً وظُلماً	ورماها البغاة، جهلاً وفقراً
واستُذلت رقابها، فتَـأَـراها	وهي في أرضها، تَجُوعُ وتَعْرِى
نحنُ في هذه الجزائر، إِخْـوَا	نُ، جراحاتنا الثخينة (حمراً) ⁽²⁾

كما يزيد الشاعر في عوالمه الداخلية غربة وحسرة، نداء ووصايا الآباء والأجداد "المتعالية من القبور، منادية بدر لك الخطر، والوقوف في وجهه، وإصلاح ذات البين، مما يشكل الوحدة، التي يتوقف عليها الإنتصار وتحقيق الإستقلال وهو الأمر الذي سيجعله الله مصيراً"⁽³⁾.

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (إقرأ كتابك)، ص.59

2- المصدر نفسه : اللهب المقدس، (شاكر الفضل ليس يعدم شكرا)، ص ص 281 - 283

3- يحيى الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص.9.

هذه الأصوات المتعالية، لو سألها الجزائري الوفي لأجابته بأجوبة حادة مملوءة بالحسرة والغضب، ويقول مفدي :

فاسألوها..تجّبكم من حشاها صرّخاتُ الجدود، تُنذر شرّاً
وتُنّادي : أليسَ فيكم رشيدٌ يدفعُ اليوم، مُنكرَ القَوْل، جَهراً
أصلحُوا ذاتَ بينكم، واستقيمُوا إن فعلتُم سيّجعلُ الله أمّـراً..⁽¹⁾

وتعتبر الوحدة الترابية بالنسبة لمفدي زكريا، أمّ الغربة وأبرز عناصرها ومسبباتها. فالشعب الجزائري عندما ثار على العدو الدخيل، كان من أجل أن يزيل من على أرضه مسببات تعاسته، وتشرده وفقره وجهله، وكانت صورة الوطن الموحد شعاره في مسيرته الدامية الطويلة:

إنّ للأرضِ كالثّفوس حنينًا، إنّ(للتّربِ*) كالعباد كُبودًا
نحنُ جُدنا جِبالها بالدمِ العّا لي، فَمَاذَا يَصُرُّها أنْ تَجُودًا
إنّ تناسّتْ أوْ أنكرتْ ذكُروها جثثُ الشّعب تملأُ الأخدودًا^{(2)**}

ويذكر الشاعر العدو الدخيل بأنه مهما حاول أن يتناسى أعماله الوحشية، والجرائم البشعة التي اقترفها في حق الأبرياء من أبناء الجزائر، فإن التاريخ سيحفظ له بهذه المخازي التي ملأت الأحاديث بالجثث البريئة، وأن الجزائر لن تكون إلا لأبنائها الحقيقيين الذين سقوا تربتها الزكية، وأسانيد التاريخ شواهد على ذلك على مر العصور والأزمنة وتعاقب الأجيال جزائريتها وعروبته وإسلاميتها.

وأنزل بدارات (سِرْتا)*** مطرقاً أدباً فبين أضلّعها آباؤنا الصيدُ !

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (شاكر الفضل ليس يعدم شكرا)، ص283.

* من الوثيقة، في الأصل و"الأمة" ومفدي زكريا، "التراب"، الديوان ، ص.147

2- المصدر نفسه : أجمادنا تتكلم، (سوق عكاظ)، ص ص147-151.

** تذكيرا لفرنسا بوعودها أثناء الحرب العالمية الأولى، عندما وقف الجزائريون إلى جانبها، وسقط الآلاف من أجل تحريرها..

*** "سرتا" : إسم لبلدة رومانية، هي قسنطينة اليوم.

وامش الهوينا، ففي أحشائها أمم وفي جوانحها، أسد —عاميد
دُم الصَّحابة، مَعْجُون بُتْرِيَّتِهَا قدْ خلدَتْهَا علي الدنيا الأسانيد⁽¹⁾.

ثم يعود إلى عالم غربته، فيذكر أن هذه الأشعار، مبعثها أجماد هذه الأمة التي أرادها العدو الدخيل أن تتهاوى إلى الحضيض، ومبعثها آهات غيض وألم وحسرة لما آلت إليه هذه الأرض العزيزة علي أهلها، من سلب ونهب وكل مظاهر الظلم والإذلال يقول :

هذا نشيدي - بني أمي - سكبت به رُوحِي، قوافيه، آنات وتنهيد
قطرتُها، من شراييني ومن كبدي في ذمّة الله، والتاريخ، يا عيد*!⁽²⁾

وهكذا يتضح أن مفدي زكريا قد تعلق بالوطن وتغنى بالارتباط به والتوق والشوق إليه إلى آخر لحظة وهو من حياته بعيدا عن أرض الوطن وهو بعيد في بعاده وغربته التي رافقته طوال الحياة : ولعل خلود مفدي زكريا من خلال أشعاره الوطنية الملتهبة الحزينة، يعود في الأساس إلى شحنها بالروح الوفية للوطن، والتمسك الكامل للوعي بالوطنية والدفاع عن ساحاتها، ويمكن أن تكون دراسة أخرى عن صورة الوطن في شعر الرجل، قائمة بذاتها.

فالشاعر الأصيل يحكم دوره في الحياة يكون أكثر الناس وعيا بمعاناة وآلام الأمة وأوجاعها، رغم أنه ذاتي في كثير من الأحيان، إلا أنه لا يغفل مصير وطنه وأمته، فكلاهما جزء من مصيره الشخصي، فلا حياة إلا من نبع الأمة كلها. وكان مفدي زكريا مدفوعا بمشيرات داخلية عميقة، نحو الأحداث العربية ويتفاعل معها ويدمجها باستمرار في أشعاره الحزينة الثورية، بقضايا وطنه الشخصية، ولعل أهم القضايا القومية التي عاجلها بشغف في شعره، قضايا المغرب العربي، الذي وضع له المحتل سياسة فرق تسد التشثيتية الجهنمية، طوال تواجده واحتلاله لهذه

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (من يشتري الخلد ؟ إن الله بائعه !)، ص 263.

* بمناسبة تدشين دار (ابن باديس) لطلبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بقسنطينة في 25 أكتوبر 1953، الديوان، ص 263.

2- المصدر نفسه : (من يشتري الخلد ؟ إن الله بائعه !)، ص 272

البقعة الغالية على ساكنيها، إلا أن هذه السياسة العدوانية، قد تصدى لها أبناء المغرب العربي الكبير، وأحبطوا مفعولها بالصبر والتعاون والتضامن، وأضحت المأساة المشتركة المتمثلة في الاحتلال الغاشم، تعني كل أبناء المغرب العربي، وأصبح التضامن ضد العدو المشترك واقعا ينطق به كل لسان " فإذا تأملت الجزائر، فما تطيق تونس صبرا لآلمها ولا تسكت مراکش عن التأثير لمصاها "(1).

ويبرز مفدي زكريا هذا التلاحم والانصهار الابدي لدي أبناء المغرب العربي، الذين أريد لهم البتر و قطع السبل لعدم التواصل والإنفصام والغربة يقول :

و تعمدوا قطع الطريق، فلم تُردْ	أسبابه، بالعرب أن تتقطعا ...
نسب، بدنيا العرب زكي غرسه	ألم، فأورق دوحه و تفرعا
سبب، بأوتار القلوب، غروقه	إن رن هذا، رن ذاك، ورجعا
وارتج في الخضراء، شعب ماجد	لم تثنيه أرزاة أن يفزعنا
وهوت مراکش حوله، وتأملت لبـ	نان، واستعدى جديس وثبعا! (2).

2- البعد المغاربي :

لقد دعا مفدي زكريا أبناء المغرب العربي إلى الوحدة من أجل مجابهة العدو المشترك ومن أجل التحرر والانعقاد، ولم يتوان لحظة واحدة للوقوف مع أبناء المغرب العربي الكبير في السراء والضراء، وها هو يعيش فرحة الشعب التونسي في الإحتفال بالذكرى الرابعة لإستقلاله، ويذكر الشعب التونسي أن هذه الأفراح جاءت بعد معاناة ودماء غزيرة، قدمها أبناؤها قربانا على مذبح الحرية والانعقاد وأنها صاحبة مكانة هامة في المغرب العربي، وعليها مسؤوليات ما تزال قائمة في وحدة المغرب الكبير يقول :

في مثل يومك، تُكرمُ الأعياد* وبيوم عيدك، يعذب الإنشاد

1- جريدة "العلم" المغربية : الرباط، 1957/06/30، ص7.

2- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (إقرأ كتابك ..)، ص 60.

* تخليدا للذكرى الرابعة لعيد تونس ، 30 مارس (1956 - 1960)، " المغرب العربي أنت جناحه "، الديوان، ص 171

(عِشْرُونَ مَارَسَ) جَلَّ يَوْمًا خَالِدًا قد حُطِمت في فَجْرِهِ الْأَصْفَادُ⁽¹⁾.

ثم يبرز مأساة الشعب التونسي أيام النظام الاستبدادي الفرنسي، وكيف كان الإنسان التونسي يعيش الغربة والظلم والجهل، وكيف كان يسومه زبانية المحتل ألوان الذل والبطش والاستعباد، يقول:

فِيكَ انْطَوَى شَبَحُ الْحِمَايَةِ، وَأَمَحَى عَهْدُ الظُّلَامِ ، وَأَشْرَقَ الْمِيلَادُ
وَتَنَفَّسَ الصُّعَدَاءُ شَعْبَ طَالَمَا ضُرِبَتْ بَتُونِسْ دُونَهُ الْأَسْدَادُ
وَرَأَى السِّيَادَةَ، فِي بِلَادِ طَالَمَا قَضَتْ زَمَانًا، لِلْهَوَانِ تُقَادُ⁽²⁾.

ثم يذكر بالتضحيات الجسام التي قدمتها تونس من أجل الحرية والإستقلال،

يَا شَعْبَ تُونِسْ، كَمْ لَتُونِسْ فِي الْفِدَا صَفَحَاتُ مَجْدٍ، خَطُّهَا الْأَمْجَادُ
أَكْرَمُ بِهَا حُرِّيَّةً قُرْبَانَهَا - يَا تُونِسْ - الْمُهْجَاتُ وَالْأَكْبَادُ
الْمَغْرِبَ الْعَرَبِيَّ، أَنْتَ جَنَاحُهُ حُرُكُ جَنَاحِكَ، يَصْعَدُ الْمُنْطَادُ
وَلتَشْهَدْ الدُّنْيَا، هُنَالِكَ وَحْدَةً جَبَّارَةً، تُفْتَحُ لَهَا الْآبَادُ⁽³⁾.

ويلفت انتباه تونس أن الجارة العزيزة المحتلة الجزائر، قد عقدت العزم على تقديم المزيد من القرابين والضحايا، من أجل الحرية والإستقلال، بلغة فيها الكثير من الحزن والألم والحسرة، يقول:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ قَامَ يَبْنِي صَرْحَهَا بِدِمَائِهِ، وَالْحَادِثَاتُ شِدَادُ⁽⁴⁾.

والوحدة المغاربية المنشودة في أبعادها المساوية، ليست وحدة منفصلة عن الوحدة العربية الشاملة، التي تعاني ألوان الغربة والظلم والإحتلال والإستبداد هي الأخرى، بل هذه الوحدة

1- مفدي زكريا: اللهب المقدس، " المغرب العربي أنت جناحه "، ص. 171.

2- المصدر نفسه: ص ص 171-172

3- المصدر نفسه: ص. 172.

4- المصدر نفسه: ص 172

التي جمعت شملها المعاناة والآلام هي أساس بناء الصرح العربي الشامخ من المحيط إلى ديار بكر والذي يراه مفدي زكريا في صفة وحدة عربية قوية في المغرب يقول :

نَصَبُوا العَصِي* على الحدود سَفَاهَةً وَ سَعُوا إِلَى تَوَزِيعِهِ لَضَرَارِ
وَالْمَغْرِبَ الْعَرَبِيَّ، شَعْبَ وَاحِدٍ مِلءَ الْعُرُوقِ، دُمُ الْعُرُوبَةِ جَارِي
لِلشَّرْقِ لَا لِلْمَغْرِبِ ، وَلِي وَجْهَهُ فَعَدَا لَهُ سَنَدًا لِحَوْضِ عِمَارِ⁽¹⁾

فالأسلاك الشائكة المزودة بالطاقة الكهربائية، وزرع الألغام المجاورة لها الفتاكة ليست في ضمير أبناء المغرب العربي الكبير، سوى عصي تافهة نصبها المحتل الفرنسي لايهام سكان المنطقة بأن هناك فواصلا وحدودا، بين أبناء القطعة الواسعة الأرجاء الواحدة الموحدة في شتى الميادين والأعراف والقيم. كما وقف مفدي زكريا مع أبناء الأطلس العظيم، وتألم للأحداث التي أصابت أبناء الريف المغربي الأشم وذرف دموعا حمراء. ولهب مهج تذيب الصخر على ما أصابهم من ظلم وبطش يقول :

(بَنِي الرِّيفِ) ** لَيْسَتْ سِوَى جُرْعَةٍ مِنْ الْهَوْلِ، ثُمَّتْ تُجَلَّى الْغَيْرِ
(بَنِي الرِّيفِ) لَيْسَتْ سِوَى خُطْوَةٍ عَلَى النَّارِ، ثُمَّتْ يُجَنَّى الثَّمَرِ
(بَنِي الرِّيفِ) لَيْسَتْ سِوَى جَوْلَةٍ عَلَى الضَّمِيمِ ثَمَّ يَطِيبُ الْمَقَرِ
نَضَالًا نَضَالًا (بَنِي الرِّيفِ) عَنْ تَرَاثٍ لَكُمْ غَالِي الْمَدْخَرِ
أَجِيبُوا أَجِيبُوا نِدَاءَ الضَّمِيرِ وَدَعْوَةَ عَظِيمِ رَمِيمٍ نَخِرِ⁽²⁾

* نصب العدو الفرنسي حدودا وهمية بين أقطار المغرب العربي الثلاثة (تونس، المغرب والجزائر) بالشمال الإفريقي... (قالوا نريد ..)، الديوان، ص 118.

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (قالوا نريد ..)، ص 118

** تخليدا لثورة الريف المغربية بزعامة عبد الكريم الخطابي زعيم الثورة، (أمجادنا تتكلم : إلى الريفيين)، ص 23

2 - المصدر نفسه : (أمجادنا تتكلم : إلى الريفيين)، ص 24

ثم يحثهم على الصبر والتجلد لأن الحرية دروبها وعرة، ومسالكها خطيرة، فالحرية والعزة
لهما ثمن غال، إذن الصبر و السير نحو ميادين التضحية و الفداء.

يَهُونُ عَلَيْهِ رُكُوبُ الْخَطَرِ	(بني الرئيف) مَنْ كَانَ يَهْوَى الْحَيَاةَ
ضَحَايَا نُفُوسٍ وَ سِجْنُ أُسْرٍ	وَ بَيْنَ الْبِلَادِ وَ دُسْتُورِهَا
عَلَى رَشْفِ كَأْسِ الْعَذَابِ صَبْرٌ ⁽¹⁾	وَ لَنْ يَبْلُغَ الْعِزَّ إِلَّا الَّذِي

يتراءى لنا مما تقدم أن مفدي زكريا قد قام برسالته الشعرية أحسن قيام : دافع
عن الكيان المغربي وحريته، وأهتم بالأحداث المؤلمة التي ألمت بالمغرب ونادى بمؤازرة المظلومين،
والدفاع عن المغرب العربي الموحد. وإيمانه بهذه الوحدة راسخ في أعماقه، لاهث لتحقيقه طول
حياته. وإذا لم تتحقق هذه الوحدة كما أرادها مفدي زكريا، وشعوب المغرب العربي، وذلك
راجع إلى الظروف السياسية، ويبقى صوت الشاعر صرخة دائمة مشحونة بالأمل والغربة
والأسى من أجل هذه الوحدة التي تعيش في أعماقه إلى أبد الأبد.

3- البعد العربي والإسلامي :

نظر مفدي زكريا، نظرة متجاوبة مع مأساة كل الأقطار العربية، التي كانت تواجه
المشاكل والأحداث الجسام، من طرف الإستعمار الغاشم، ويذكر في غربته وآلامه أن الجزائر
لا يمكنها أن تنسى أو تسكن رغم ظروفها الصعبة وما ألم بها من أحداث قاسية، آلام
الأمة العربية ومعاناتها، وأن مصاب الأمة هو مصاب الجزائر، وآلام وأحزان الأمة هو آلام وأحزان
الجزائر، إن مثيرات الأحاسيس وإنفعالات النفوس، وإضطرابات القلوب، لا يمكن أن يحدها حد :
فكل اضطراب في الجزائر له رد فعل في بلاد العرب، يقول الشاعر :

يَا أُمَّةَ الْعَرَبِ الْكَرَامِ، كَرَامَةٌ لَكَ فِي الْجَزَائِرِ، حُرْمَةٌ وَذِمَامٌ

1 - مفدي زكريا : (أبحادنا تتكلم : إلى الريفين)، ص24

رَحِمَ تَشَابَكَ، عندها الأرحامُ	في كل أرضٍ للعروبة، عِنْدَنَا
لَبِئْتُهُ مَصْرُ، وأدر كته شَامُ	إن صاح في أرض الجزائر صائح
أَيْطِيرُ (مقصود الجناح) حمامٌ؟ ⁽¹⁾	عِزَّ العروبة، في حمى استقلالنا

لقد إهتم مفدي زكريا إهتماماً كبيراً بالقضايا العربية، ورغم مشاكل الجزائر ومعاناتها والظروف الإستعمارية القاسية، لم تمنعه من أن ينظر ويفكر في القضايا الخارجية ولا سيما العربية منها ، لقد تحفظ بقوميته العربية التي يعتز بها، ومن خلال أشعاره التي تدل دلالة واضحة على أنه يفصل بين معاناته و معاناة بلاده ومأساة الأمة العربية، كيف ينسى مفدي زكريا، وهو العربي الأصيل لحما ودماء ونسباً، حاولت فرنسا مراراً أن تضرب سدا منيعاً بينه وبين إخوانه العرب وتفصله عن أصله وإنحداره، لكنها خستت، لم تفلح ولم تقضى البتة على قوميته ولغته وإسلامه ومن جراء ذلك رأى ألواناً من الغربة والتعذيب والتنكيل، وما بدل تبديل، فيقول :

وتعمدوا قطع الطريق، فلم ترد	أسبابه، بالعرب أن تتقطعا
نسب، بدنيا العرب زكى غرسه	ألم، فأورق دوحه وتفرعا
سَبَب، بأوتار القلوب عروقه	إن رن هذا رن ذاك، ورجعا
إما تنهد بالجزائر موجع	آسى الشآم جراحه، وتوجعا
واهتز في أرض الكنانة خافق	وأقضى في أرض العراق المضجعا ⁽²⁾

لقد استطاع مفدي زكريا عن طريق الكفاح أن يجسم الروابط القومية في إطار التضامن الجغرافي والحضاري والنضال المشترك، وأن يعمق هذا التجسيم إلى مستوى الإحساس الدقيق بالانفعالات والاضطرابات وردود أفعالها، مثل تدفق الدماء وتسارع دقات القلب، وتزاعمها وتوازنها، ولعل أهم القضايا القومية العربية على الإطلاق التي عالجها الشاعر في شعره وكان لها

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص.51

2 - المصدر نفسه : اللهب المقدس، (إقرأ كتابك)، ص.60.

بعد مأساوي شديد على المستوى العربي، هي نكبة فلسطين، فهي أولى القضايا التي تأثر لها وتجاوب مع أحداثها، منذ أن تفتن لخطر المؤامرة التي تحاك ضد هذا الوطن الشقيق والأرض الإسلامية المقدسة. " من هذا المنظور الوجداني شكلت القضية الفلسطينية بالنسبة للثورة الجزائرية أحد أبعادها الأساسية التي خصصها شعراء الجزائر بخاصة وشعراء المغرب العربي بعامة في أشعارهم المشهودة في هذه الثورة بذبابات تعبر عن إحساس شعوبهم وتعلقهم بهذه القضية وإيمانهم بحق أبناء فلسطين في الحرية والكرامة، فوق وطنهم السليب "(1).

لم ينظر مفدي زكريا إلى نكبة فلسطين (1941) بروح المتعاطف، بل اعتبرها قضية مركزية تهم الوجود العربي كله، فهي في المقام الأول صراع حضاري هدفه محق الوجود العربي وكسر وتقزيم مكانته في المجتمع الإنساني، ومن هذه الرؤية كانت " قصيدة فلسطين على الصليب " التي جاءت على شكل حوار حزين دام بين الشاعر وفلسطين والعرب، تبدأ القصيدة بنوع من الحزن. ينادى من أغوار الذات المنكسرة، من مصاب الأحرار فوق أرض الجزائر، من أنات جراح أبناء المغرب الزين السائر إلى الغربة، والمشردين ينادى الشاعر داخل هذه الأحوال وآلام فلسطين.

أناديك، في الصرصر العاتية	وبين قواصفها الذاريه
وادعوك بين أزيز الوغى	وبين جماجمها الجاثيه
وأذكر جرحك، في حربنا	وفي ثورة المغرب الفانيه
فلسطين... يا مهبط الأنبياء	ويا قبلة العرب الثانيه
ويا حجة الله في أرضه	ويا هبة الأزل، الساميه (2).

وبعد هذه المقدمة، يستعرض مفدي زكريا مأساة الشعب الفلسطيني المشرّد، ويعتبر أن مأساة فلسطين هي مأساة الإنسان المحتل المظلوم، الغريب في كل مكان وزمان، والأمة العربية

1- عبد الله ركيي : قضايا عربية في الشعر الجزائري المعاصر، السدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس 1977، ط3، ص.44

2- مفدي زكريا : الله المقدس ، (فلسطين على الصليب)، ص ص 336- 337

ثالثا : _____ أبعاد ظاهرة الغربة، في شعر مفدي زكريا

تعيش في غيبوبة من أمرها لا تحرك ساكنا أمام الأعمال الإرهابية الصهيونية التي تقوم بها ضد أبرياء فلسطين، هذا السكوت العربي، أدخل الشاعر في غربة حادة وزكت في أعماقه نيران الغضب والألم، وفتحت أبواب الجراح على مصراعيها، ودفعت بالشاعر أن يشعر بمرارة الحياة والإغتراب.

ويتفجر الشاعر ألما للواقع المر الذي وصل إليه الإنسان العربي، والضعف والحوار والجن الذي نال الحكام العرب، وتقاعسهم وتفريطهم في مقدساتهم ، وتناسيهم قضية فلسطين وإهمال أرضها المقدسة وترك شعبها يذوق ألوان البطش والإبادة والتشريد، ويزداد نوحا كلما نظر إلى الخلف الذي فرط فيها، وشغله عن القضية الأساسية، متاع الدنيا الزائل من هو وعبث، وتبديد لخيرات الأمة فيما لا طائل منه، كأنهم أصيبوا بمس، أو يعيشون في سبات عميق، رغم أن الأحداث جسيمة والوضع خطير وكرامة الأمة في الميزان، يقول مفدي زكريا بلهفة ودمعة حارة :

ويح العروبة ..كم ديست قداستها!	وسامها الخلف، إفلاسا وخذلانا!
وعاكفين على النعمى.... يهددهم	صفو الليالي...وما رقوا لبلوانا
ناموا...و في الدار(اسرائيل) ترصدنا	وأغمضوا دون(اسرائيل) أجفانا(1).

هذه البلوى التي أصابت الأمة العربية، وبهذه النكسة التي أضعفت الإنسان العربي بواعث حزن وألم لدى الشاعر لأن لها منابت وأصول فوق أرض الجزائر الجريحة المقاتلة التي تعاني الظاهرة والوضع نفسه يقول مفدي زكريا :

وفي الجزائر، أشلاء ممزقة راحت، عن العرب، قربانا، وغفرانا (2)

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (رسالة الشعر في الدنيا مقدسة)، ص 293

2- المصدر نفسه : ص 294

فلسطين :

أيا شاعر العرب ذكرتني	وهجت جراحاتي الدامية
لقد كان لي سبب للبقا	فقطعت قومي أسبايله
ورحت أبا ع واشترى كما	تباع لجزّارها الماشية
واشنتق في جبل مستعمري	واصلب في كف جلاديه
ويسلبنى عزّي غاصبي	وتنهب داري قـطاعيه (1).

ثمّ يقدم صورة العرب المتخاذلة تجاه مأساة الشعب الفلسطيني، فيتقمصون حالة الضعف والخوار ويبرزون مظاهر الأسى والحسرة والألم، وبعد نوم عميق، وكأنهم كانوا تحت مخدر أو سكارى، يتساءلون عن أسباب المؤامرة، وعن حيثيات النكبة، التي كان حكامهم أحد أطرافها، لما أصابهم من ضعف وخيانة وصمت رهيب أمام الفاجعة، الشيء الذي أدى إلى تشريد شعب فلسطين وضياع من الأرض المقدسة، يقول مفدي زكريا بأسلوب فيه كثير من السخرية وألم شديد وحرقة.

وقال ابن يعرب، لما تيق	ظ - لم أدر - من سكرتي - ما هيه ؟
ولم أتفطن (لثالوثها)*	ولم أدر - من غفوتي - ما هيه ؟
ولم تحد في صدها حسرتي	ولـ يفدني - في القضا - ماله (2)

ثم يتوجه غاضباً للحكام العرب، الذين تقاعسوا عن نجدة فلسطين، ويقدم صور حكام الأمة العربية بحسرة وفي أبشع المظاهر، وكأنهم كسحاء، لا يستطيعون الحركة، همهم الوحيد من الحياة الترف والنوم والكسل والأكل... يقول :

وفوضت أمري للحاكمين فضيع قدسي حكاميه.

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (فلسطين على الصليب)، ص 341

* - يقصد به الإعتداء الثلاثي على القنال بمصر، الديوان، ص 344

2- المصدر نفسه : ص ص 344-345

وهام السّراة بنعمى الحياه وعاثوا (انتهازا و اقطاعيه)؟
وهل يرتجى العون من معشر: قواعد، طاعمة، كاسيه...⁽¹⁾.

4- البعد الإفريقي والإنساني :

ولارتباطه بقضايا وطنه ومعاناة أمته العربية. لم يقتصر مفدي زكريا على معالجته قضايا وطنه أو معاناته أمته ومأساة الإنسان العربي تحت ظل الإستعمار، بل نجده يتجاوز هذا الحيز المحلي والقومي في غربته وهمومه ليواكب كل مشاكل وقضايا الإنسانية التي تفجرت فوق هذا الكوكب بعد الحرب العالمية الثانية، والتي إتخذت شكل الثورة ضد الظلم الإستبداد وإحتقار الإنسان وبطشه وقسوته على أخيه الإنسان، وليقف بصدق إلى جانب معاناة و نضال الأحرار في العالم من أجل التحرر والإستقلال، وقد أدرك " وحدة النضال الإنساني ووحدة الأهداف النبيلة له، وعرف أن إنتصار الإنسان المعذب في كل مكان هو انتصار لقضايا الإنسانية الخاصة، لأن المستعمر واحد "⁽²⁾. و لهذا ينبه ويسترجع، أبناء إفريقيا لماض ليس بالبعيد، ماضي المآسى والظلم والإستعباد ذاقه من طرف المحتل الفرنسي العدو المشترك الذى طال بطشه، وبالع في ارتكاب جرائمه، وجعل من القارة السمراء منطقة تجاربه الذرية التي دمرت الانسان وأفسدت الأرض وما عليها من حياة يقول مفدي :

شعب إفريقيا، أحاط به المك — فأمسى للمجرمين، ضحية
و رمته عبر القرون، فرنسا — طعمة للقنابل الذرية
و سرى الموت فيه، جيلا فجيلا — يوم هزت شعوبه الحيوية

ويدعو الشاعر بحرارة وحسرة، أبناء إفريقيا الأحرار، إلى ضرورة النهوض من سباتهم، والكفاح والنضال المستميت بشتى الطرق والوسائل، ودفعاً للظلم وقهراً للطغيان المتمثل في الإستعمار الفرنسي العنصري الذي لم يقيم وزناً للحرمان والأعراف والإنسان واسترداد

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (فلسطين على الصليب)، ص 345

2 - ماهر حسين فهمي : الحميم والغربة في الشعر العربي الحديث، ص 36

للحرية والإعتاق يقول :

شعب إفريقيا، ستنصفك الد
وسيحكي هذا الزمان، ويروي
فخذ الثأر من فرنسا، وخلد
وانفجر صارخا... وقل يا فرنسا
نيا، وتصغي لك الشعوب الأبية
للبرايا، فضائح، المدنية
في الضحايا تلك النفوس الزكية
أنت في الأرض، هفوة أزلية
يا فرنسا يا لعنة البشرية !!⁽¹⁾.

كما يلتفت الشاعر إلى قادة وزعماء الشعوب الإفريقية، ويحذرهم بالخطر الداهم على قارتهم من طرف الإستعمار الفرنسي، وغيره، ويشد بحرارة ومرارة على أيديهم بأن يكون صفا واحدا ضد أعداء إفريقيا من الإنتهاز بين مصاصي دماء الفقراء، أعداء القيم الإنسانية و الحرية يقول مفدي زكريا :

ووحده الأهداف، من عالم
فالظلم، ما زال على حاله
والغرب، لا ينفك مستعمرا
والقوم، لا حد لأطماعهم
إن شعوبا فرقّت أمـرها
وأمة لم تتخذ حـذرهما
بات به، لا يفلح الواحد !!
والغدر، في هذا الورى سائد
ثعبانه، في أرضنا راصد
تاريخهم، عن مكرهم شاهد
سرعان ما يصطادها الصائد
يكيدها في أرضها الكائد.⁽²⁾

ويؤكد مفدي زكريا على الوحدة وعدم الانفصام والشقاق، ويصرخ عاليا محذرا أن العدو المحتل من عاداته الخبيثة و دهائه الماكر، أنه يسعى دائما كالوحش المفترس، إلى بث سموم

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وليد القمبلبة الذرية)، ص 165.

2 - المصدر نفسه : (المارد الأسمر)، قيلت في مؤتمر الشعوب الإفريقية، تونس، 1960، الديوان، ص 146.

الشقاق و التناحر، ويعمل إلى انتهاج سياسة فرق تسد للحيلولة دون تمكن تلك الشعوب من إعداد العدة لمواجهة وطرده من أراضيها، و يحث أبناء إفريقيا، أن العدو رابض بالمكان، لأن أرض إفريقيا بها خيرات كثيرة، وتنام على كنوز خيرها على بنينا عميم، ويدفعهم إلى ميادين التضحية، والنضال من أجل استرجاع هذه الأرض، والاستفادة من نعيمها الذي يستغل من طرف المحتل الدخيل، يقول مفدي زكريا :

إفريقيا ، أنت عروس الدين	والوطن، المنبعث، الصامد
(نضارك الأسود) حشو الثرى	في أمره، يحسدك الحاسد
سيرى إلى التحرير، في عزة	والحزم درع، والحجى قائد
وفواضي الأقوام، في حكمة	ما خاب من تفكيره، الرائد
واضطلعي بالعبء في جبهه	شعبية، يرهبها القاصد (1).

وبعد فإن الشاعر في معاناته، تجاه قضايا القارة السمراء لم يقف عند حدود المعاناة اليومية لدى أبناء إفريقيا، وما يسببه الإستعمار الفرنسي للشعوب الإفريقية من متاعب إجتماعية وإقتصادية كال فقر والحرمان والجهل والغربة والتي تعتبر جزءا صغيرا من المعاني الدالة على الغربة والمعاناة الذاتية، بل تعرض إلى مناجاة الحرية، باعتبارها أساس الحياة الكريمة ومصدر السعادة الإنسانية ومنبع نزعتها قبل كل شيء بالإضافة إلى إشادة النضال المهدف المنشود، وعامل الوحدة التي تمثل القوة، في التحرير الشامل للقارة من النفوذ الأجنبي الدخيل.

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (المارد الأسمر)، ص ص 147-148.

الفصل الثالث

الخصائص الفنية لظاهرة الغربة

في شعر مفدي زكريا

تمهيد : الغربة الشعرية ومدلولها

قبل الشروع في دراسة شعر مفدي زكريا، نرى أنه من الأنسب أن نعهد للموضوع بصورة موجزة، وذلك بالحديث عن مفهوم اللغة الشعرية ومدلولها، لأن وظيفة اللغة الشعرية " تعبيرية جمالية انفعالية، تستخدم للتعبير عن أحاسيس، واتجاهات وآثارها عند الآخرين " (1)

بالتالي فإن " اللغة هي الظاهرة الأولى في كل عمل فني، يستخدم الكلمة للتعبير وقد عرف الإنسان العالم أو حاول أن يعرفه لأول مرة، يوم أن عرف اللغة، وهو لم يعرف السحر إلا يوم أدرك قوة الكلمة، ولم يعرف الشعر إلا يوم أدرك قوة السحر. فالشعر هو الإمتداد المستمر لتلك الفرضية الأولى، هو استكشاف دائم لعالم الكلمة، واستكشاف دائم للوجود عن طريق الكلمة. ومن ثم كان الشعر هو الوسيلة الوحيدة لغنى اللغة وغنى الحياة على السواء، والشعر الذي لا يحقق هذه الغاية الحيوية لا يمكن أن يسمى شعرا بحق " (2).

ومن خلال اللغة ينطلق المرء في رحلة نحو ميادين المجهول وأغواره، ليكشف عوالم وأفقا لا حدود لها في أعماق النفس الانسانية، وهي عوالم بنيت على أسس من العلاقات الغريبة، تجمع بين التشبيه والكناية والاستعارة وغيرها، وفي كل وقفة من الوقفات الشاعرية تبرز اللغة لتزيل الستار عن حال أو تنير زاوية غامضة في النفس الانسانية، وكل ذلك يتم من خلال عملية خارجية عن سياق الكلمة العادية (3).

ومن جملة ما تتضمنه وتعنيه اللغة أنها أداة للتواصل (4)*، ونقل الأفكار والعواطف،

1- مصطفى سوييف : الأسس الفنية للإبداع الفني، دار المعارف بمصر، 1969، صص 281-282 .

2- عز الدين اسماعيل : الشعر العربي المعاصر، قضايا وظواهره الفنية، ط3، دار الفكر العربي، ب ت، صص 173-174

3- أحمد الطريسي اعراب : الرؤى، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء المغرب، 1987، صص 131-132

4- محمود أمين العالم : مجلة الفكر التونسية، العدد 9، السنة 26 جوان 1981، صص 22-24 .

* التواصل أو التوصيل في الشعر، قضية قديمة، قدم الانسان، و هو يعني هذه الدلالة الفعالة النابعة من بنيتة اللغوية الخاصة، ولعل هذا هو ما يجعل الشعر بطبيعته غامضا أي مختلفا عن اللغة العادية رغم استعانتة بمفرداتها، انه يصوغ هذه المفردات و يوظفها على نحو يختلف عن صياغتها و عن توظيفها في لغة الحديث العادي الذي يتسم بالتقريرية والمباشر..
المرجع نفسه، صص 22-24 .

ووعاء لحفظ التجارب والذكريات⁽¹⁾ ثم هي تمثل أبنية صوتية تحمل معاني ودلالات محددة، وهي لا تكون شاعرية إلا إذا تغيرت معانيها ودلالاتها المحددة و تحولت إلى شكل أدبي أكثر بعدا عن لغة الواقع أو اللغة العادية⁽²⁾.

أولا : اللغة الشعرية مفهوما ومدلولا

واللغة الشعرية، كما يعرفها عباس محمود العقاد هي اللغة التي " بنيت على نسق الشعر في أصوله الفنية والموسيقية، فهي في جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات لا تنفصل عن الشعر في كلام تألفت منه ولو لم يكن منه كلام الشعراء"⁽³⁾. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن رسالة اللغة ومهمتها في مجال العمل الشعري " لا تقتصر على المعاني الذهنية بدلالاتها المعجمية المحددة فحسب، وإنما مهمتها الأولى أن تثير الأحاسيس والمشاعر لدى المتلقى بصورها وظلالها، وتلك هي الوظيفة الحقيقية للفظ في التعبير الأدبي، وهو ما يميزها حقا عن وظيفة اللفظة في التعبير العلمي"⁽⁴⁾. وبالتالي فإن اللغة تؤدي وظيفتين أساسيتين، فهي قد تكون أداة للتعبير عن الحقائق والقضايا العلمية، وفي هذه الحالة لا يكون هدفها ولا غايتها إلا عملية توصيل الأفكار وتبليغ المفاهيم، ولكنها زيادة على ذلك قد تكون أداة لتأدية وظيفة أبلغ إنفعالية عند التعبير عن الأفكار فحسب، بل "أما إلى جانب هذا يمكن أن تكون غاية في ذاتها حينما تتضمن إلى جانب الافادة خصائص جمالية تستروحها النفوس وتلذذ بها الأذان، وتسمو بها اللغة إلى مستوى الفنون الجميلة، حتى تصير اللغة مظهرا من مظاهر الجمال، كالرسم والنقش والتصوير والموسيقى والنحت"⁽⁵⁾.

1- محمد ناصر بو حجاج : أثر القرانفي الشعر الجزائري الحديث، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر ، جزء الأول، 1992، ص217 .

2- حاتم عبد الحبوب الساعي : الإمام الحسين في الشعر العربي الحديث، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1984 ، ص.275

3- عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة ، (مزايا الفن و التعبير في اللغة العربية)، دار غريب للطباعة، القاهرة، ب ت ، ص.11

4- محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص281 .

5- قاسم مومني : نقد الشعر في القرن الرابع الهجري، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة ، 1982 ، ص ص 335-337.

من هذا المنطلق نلاحظ أن لغة الشعر متميزة، وذات خصوصية لأنها لغة إيجازات، ثم أنها تقف على نقيض اللغة العامية أو لغة العلم، التي هي تحديدات ولغة الإيضاح، فاللفظة الشعرية تفرغ كلية من دلالاتها العادية لتشحن بدلالة جديدة، وذلك في النسق الكلامي أو في السياق العام للنص الشعري⁽¹⁾.

والمقصود بعملية تميز لغة الشعر عن اللغة العادية، لا يعني أن لكل منهما مسلكا خاصا تنتظم فيه، وإنما يعني أن "الأولى قد ترشحت ترشيحا جديدا، أعطاهما الشاعر معنى غير معناها السابق، و حياة غير تلك الحياة، أو بعبارة أخرى إنها وبفضل الشاعر المقتدر -المالك لأدوات التجربة الشعرية - تشكلت تشكيلا جديدا على هيئة لم يتمكن منها سوى ذلك الشاعر الذي وظفها خلال تجربته الخاصة، فأعطاهما دلالة غير دلالتها المحدودة، وطاقة تختلف عن طاقاتها السابقة، وبذلك اختلفت اللغة فصارت موحية متوترة وقادرة على الاثارة، لأنها أمست تصدر عن وجدان عميق، وتتألف من ألفاظ ذات مدلولات نفسية وشعورية خاصة"⁽²⁾.

وإذا عرفنا أن لكل شاعر إنفعالاته المميزة ومشاعره الخاصة، وأن منهجه وأسلوبه الشعري يختلف من شاعر إلى شاعر آخر "أدركنا أن اللغة الشعرية ليست واحدة بل هي متعددة تعدد التجارب الانسانية، التي يعبر عنها الشعراء. فالحكم على لغة الشاعر لا يتوقف على النظر في الكلمات ذاتها بقدر ما يتوقف على طريقته في تركيب هذه الكلمات بعضها مع البعض الآخر، وعلى ما تحمله العبارة الناتجة عن هذا التركيب من مشاعر خاصة تميز شاعرا من غيره"⁽³⁾.

وبذلك تكون اللغة شعرية ووفق هذا التكوين ستقيم علاقات جديدة بين الإنسان والأشياء، وبين الأشياء والأشياء، وبين الكلمة والكلمة، بمعنى آخر فإنها تقدم صورة جديدة للحياة والإنسان كما يرى أدونيس⁽⁴⁾

1- أحمد الطريس: أعراب الرؤية و الفن في الشعر العربي الحديث، الدار البيضاء، المغرب، 1987، ص 64.

2- حاتم عبد الحبوب الساعي: الإمام الحسين في الشعر العربي الحديث، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، 1984، ص 76.

3- محمد مـصـايـف: النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 345.

4- أدونيس: سياسة الشعر، دار الآداب، طبعة 1، بيروت، 1985، ص 154.

1 - المعجم التقليدي للشعر الجزائري:

إن المعجم التقليدي لظاهرة الغربة عند أغلب الشعراء الجزائريين الذين عاصروا مفدي زكريا أثناء الثورة التحريرية وفترة الاستقلال، يشتمل على مادة لغوية استمدت منابعها من الكتابات أو الزوايا، أو المعاهد الدينية أو الجامعات الإسلامية، كالزيتونة بتونس أو القرويين بالمغرب الأقصى، أو مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لهذا نلاحظ أن معظمهم كان ملما بعلوم القرآن الكريم، ودارسا متمكنا من أصول الفقه وعلم الكلام والأدب العربي القديم وسائر المعارف التراثية، ساعدهم على ذلك المناخ الثقافي الرديء المسيطر إلى هدف محدد هو "التمكن إلى أقصى حد مستطاع من المادة التي أنتجتها الأجيال السابقة" (1).

والتي تتمثل في دواوين الشعراء أمثال المتنبي، أبي فراس الحمداني، ابن زيدون وأبي العلاء المعري، ومن كتب الدين والفقه الإسلامي، وما يتفرع عنها من شروح عديدة وتفسيرات دقيقة، هذه الأعمال العظيمة والجليلة أمدتهم بلغة تعبيرية سليمة، وبقاموس بليغ، فحرصوا على التمسك بها، لذا فإنه من الطبيعي أن يصطبغ شعر الشعراء سواء الذي أنشد قبل إندلاع الثورة أو الذي قيل أثناءها أو الذي أنشد عند الاستقلال، بالصبغة التراثية والأخلاقية، وأصبح الأمر يعد عارا بينا وفاضحا لكل من لا يدرس أو يحفظ كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني الموسوعة العربية "فهو الذي يقوي المادة اللغوية وينمي الثروة الفكرية ويغذي الملكة البيانية" (2).

وأيا كل من لا يعتمد اللغة العربية باعتبارها لغة الوحي والقرآن الكريم والدين الإسلامي يعد كافرا "فالاحتفاظ بأصولها وقواعدها والاحتياط في صيانتها من التطور وآثاره السيئة واجب ديني لا سبيل إلى جحوده" (3) ويتميز الدين الإسلامي بميزة خاصة، لما حل

1 - كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس و منير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط8، بيروت، 1978، ص482

2 - الشيخ محمد البشير الإبراهيمي : عيون البصائر، ش و ن ت، ط2، الجزائر، ب ت، ص210

3 - كمال نـشأت : أبو شادي و حركة التجديد في الشعر العربي الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة 1967، ص223

باللغة العربية في هذه الديار من غربة وتشويه وحصار وإبعاد " فشعراء الإصلاح بإعتبارهم رجال علم وفكر ديني إصلاحي رأوا في اللغة أمرا مقدسا، لأنها لغة القرآن، فالتجديد فيها أو الخروج عن مقاييس القدماء، أو الثورة على قوايلها يعد خروجا على المقدسات "(1).

لذا نجد معظم شعراء الغربة لهذه الفترة قد نظروا و تعاملوا مع القاموس اللغوي " استجابة لدعوة لها أبعادها النفسية و الاجتماعية و السياسية و الثقافية، ورد فعل تلقائي لواقع كان يعيشه المثقف العربي في غمرة إرهاب ثقافي "(2).

ووفق هذه الرؤية، أصبحت العناية بالقاموس اللغوي العربي القديم، مقصودة عند هؤلاء الشعراء، إذ أيقنوا أنهم يعيشون غربة مزدوجة، غربة اللغة المضطهدة في وطنها، وغربتهم النفسية داخل السجون أو بعيدا عن الوطن. وبناء على أن ثقافة شعراء هذه الحقبة الصعبة والمعقدة والأليمة، في مجملها تمثل ثقافة تقليدية تراثية باستثناء فئة قليلة منهم، الذين تلقوا بالعلوم والآداب الحديثة، واطلعوا على فصول محدودة من ثقافة العصر. دراسة ظاهرة الغربة اللغوية التي تآثرت في معجم مفدي زكريا التقليدي انطلاقا من روافده ومصادره الأساسية الأولى وهي القرآن الكريم والشعر العربي القديم، وبعض مما يتعلق بالآثر الاسلامي من عظماء الأمة في مجالات عديدة منها الدينية والرموز التاريخية، وأماكن وعوالم ونحوها، والتي ظل مفدي زكريا يستمد من مناهلها مفرداته الفريدة، وتراكيبه المتنوعة البليغة.

2- أثر القرآن الكريم في الشعر الجزائري الحديث :

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأساسي الأول لشعراء الغربة التقليديين الجزائريين، فقد أفنوا العمر كله مجتهدين لإعلاء مناراته المقدسة، منجذبين لفصاحته وقوة بيانه، مستمدين من آياته البليغة الفريدة، العبارة، والأفكار والأحاسيس، ومستخرجين منه لغتهم الشعرية، التي كانت تنثر للانسانية،

1- عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ش و ن ت، الجزائر، ط1، 1981، ص633

2- محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث، ص 51 .

شكواهم، وغربتهم، ورفضهم للظلم والعبودية ونبد العادات والأخلاق الرديئة، معلنين حربا هوجاء ضد الفكر المتخلف، والضمائر المفقودة الميتة، ورفع راية الاعتزاز بحب الأوطان، والتوق للحرية والعدالة الإنسانية، والإنعتاق من قيود الاحتلال والاستعمار.

إذن بالنسبة لأثر القرآن الكريم في لغة شعراء هذه الفترة نسجل بأنه " نظرا لكثرة تعامل الشعراء مع القرآن تلاوة و دراسة و تدبرا، فقد رسبت في ذاكرتهم ألفاظ قرآنية تكررت في القرآن مرارا، فدارت في أشعارهم كثيرا، لارتباطها بحياتهم من حيث التعبير عن مكوناتهم والافصاح عن مشاعرهم"(1).

وبسبب خيبة الآمال الفردية والجمعية التي عاشوها أو تأثروا بظلالها، جاء مزاجهم الحزين متطابقا مع مزاج عصرهم، وبما أن المرحلة تعتمد على لغة الرصاص في ساحات الوغى، فألهبت نيران الثورة التي تعالت ألسنتها ربوع الوطن، وكانت الأوضاع وظروف الشعب الجزائري مأساوية، هذه الظواهر وغيرها كثير، ظلت ميدانا فسيحا غنيا بالظواهر الانسانية المعقدة والمتنوعة، تهيج منابع المشاعر الحزينة، وتلهب الحماسة والاندفاع داخل النفس المتأللة وتستعرض مناظر الأهوال، وصور الحياة الصعبة القاسية، فتدفع الشاعر إلى التعبير عن مكنونه بالشعر. لذا نلاحظ أن الشعراء الجزائريين المتأثرين بالقرآن الكريم قد استدلوا واهتدوا إلى إختيار اللفظة القرآنية المؤدية بدقة للمعنى المراد قصده، والمناسبة لهذا الأوار الملهب حمما داخل النفوس، كلفظة تفور"(2) . التي وظف فيها مفدي زكريا ذكاءه، واستغل من خلالها طاقتها التعبير الدالة على الغضب و الثوران والانفجار، للتعبير عن مكان النفس الحزينة المتأللة قال تعالى " إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ" (سورة الملك الآية 7)

1- محمد ناصر بو حجاج : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ج 1 ، ص 134.

2- المرجع نفسه : ص 139.

إن هذا التوظيف في شعر مفدي زكريا، يكشف عن معاناته، واضطراباته الحادة، فيعبر عنها ليؤجج غليان الثورة في النفوس البائسة النائمة، ويبرز أن الأكباد في أجهزته قد فارت بها وأصبحت لا تطيق صبرا أو سكوتا على الألم، كما تفور القدر في الظاهرة الطبيعية. وهذا لما يتجرعه الجزائري من طف الدخيل المغتصب من ظلم وحيف، وتشريد وغربة. يقول مفدي زكريا :

ألا فارُوا لِأَبَدِ يا دهرُ قِصَّةَ تُفُورُ" بها أكبادنا ملئتُ صدَقاً (1)
ثم يركز مفدي زكريا على مواطن الداء ومنابعه الباطنية، فيقول في موطن آخر:
يا نُفوساً وإن لاذت بِرَفْرِفِها من وَحِيها الشُّعْبُ قد "فَارَتْ" حَناياهُ (2)

لقد وظفت لفظة "تفور" في القرآن الكريم، في السياق المناسب للمعنى اللغوي الذي يدل على الاضطراب الحاد الذي يسببه الغليان والحمم التي تدل على قوة الهيجان والجيشان، فقد استعمل مفدي زكريا الدلالة اللفظية في المعاني الأخرى، وإن كانت ترجع كلها إلى معنى واحد هو النبع والإنتشار (3).

كما ركز مفدي زكريا في مواضع كثيرة. إذ نجد يستخدم اللفظ القرآني دون استيحاء معنى الآية أو الآيات مصدر اللفظ. وتأثر الشاعر بالقرآن في هذه الحالة أقل، لأنه اقتباس للفظ فحسب دون المعنى، وهذه الظاهرة. متفشية في شعره، فهو كثيرا ما يستعمل اللفظ القرآني للتعبير عن معاني غير قرآنية (4).

1- مفدي زكريا : تحت ظلال الزيتون، دار النشر، تونس، 1965، ص 41 .

2- المرجع نفسه : ص70.

3- محمد ناصر بو حجام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، ج 1، ص 141 .

4- يحي الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 368.

لذا عدُّ مفدي زكريا عند العديد من الدارسين أكثر الشعراء الجزائريين إتفاناً إلى توظيف المفردات القرآنية في قصائده. وها هو يصف أبطال الجزائر من المجاهدين البواسل، فيقول :

بناشئة هناك، أشد وطأً وأقوم منطقاً وأحد ناباً⁽¹⁾

فهذه الصورة الحركية لكواسر الجزائر، التي ضمنها البيت الشعري اقتباس لفظي من الآية القرآنية الكريمة في قوله تعالى : "إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً"⁽²⁾ (المزمل الآية 6)

والملاحظ هنا أن الآية القرآنية لا تصف حركة الجهاد، ولا تتحدث حتى عنه وإنما تتناول زمن الليل وتبرز أوقاته، إذ تركز على أن قيام الليل بالنسبة للإنسان المؤمن للتعب، هو أشد ثقلًا بين القلب واللسان وأجمع على التلاوة، أي أجمع للخاطر في أداء قراءة القرآن وتفهمه من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش⁽²⁾.

ثم يعمد مفدي زكريا ليغيض العدو الدخيل، وأذنا به، في ذكر خصال المجاهدين، وما حققوه من تقدم وانتصارات على المستعمر فيقول :

والزُّرع أخرج في الجزائر شطأه فمضى وهباً إلى الحصاد كرام⁽³⁾.

فالبيت الشعري في معاناته وثورته وتحديه للمستعمر الدخيل، مقتبس من الآية القرآنية الكريمة عند قوله : " كزَّرِعِ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوَاهٍ يَعْجَبُ الزُّرْعُ " (الفتح الآية 29)

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وقال الله ..)، نظمها بسجن " البرواقية "، 1957، ص 31 .

2- تفسير ابن كثير : مكتبة النهضة الحديثة، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، 1968 ، ص 461.

3- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، نظمت بسجن "بربروس" ، القاعة 9، 1957، ص 44 .

وهذا الإستنجد بالآيات القرآنية الكريمة يدل على الحالة النفسية المتألمة المعذبة التي يعيشها مفدي زكريا، وما يصاحبها من ذعر وغربة، فنجده كالجلمود صامدا، ينتظر القدر المحتوم على لسان أحمد زبانة في شموخ وكبرياء، رغم الدماء التي تحتاج عوالمه الباطنية حسرة على فقدان هذا العزيز الغالي، فيقول صابرا قانتا بقضاء الله و ظلم البشر.

واقض يا موت في ما أنت قاض أنا راض إن عاش شعبي سعيداً⁽¹⁾

هذه الحالة النفسية التعيسة التي عايشها بألم عينيه بسجن " بربروس " قد اقتبسها الشاعر من الآية القرآنية الكريمة عند قوله تعالى : " فاقضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا " (طه الآية 72)

كما يصف حالة الشعب الجزائري المشرّد، فيثور كالبركان ينثر حمم المآسي، ويعدد أيام البطش وسنين القهر، طالبا من أبناء وطنه الثورة على العدو الدخيل، وإحداث هزة قوية موحدة تزلزل دعائم الدخيل وتحدث في أبراجه الحاكمة شرخا وانقلابا.

وزلزل من صياصيتها فرنسا وأوقع في حكومتها انقلابا⁽²⁾.

ويستنجد بالظاهرة نفسها، مرة أخرى في ديوان له آخر، ليؤكد حالة الغليان والغضب على العدو الدخيل، ويبرز بدقة إنتفاضة الشعب من سباته، واستجابته لنداء الكرامة وحب الشهادة، فيقول :

وزلزل صياصيتها بثورتك التي تسامت تشق الغيب في سيرها شقا⁽³⁾

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، نظمت بسجن " بربروس "، القاعة 9، 1955، ص 10 .

2- المصدر نفسه : (قال الله)، ص 32

3- مفدي زكريا : تحت ظلال الزيتون، دار النشر، تونس، 1965، ص 42.

ففي البيت الأول نلاحظ أن مفدي زكريا قد اقتبس لحالته الانفعالية التعيسة، المشحونة بالحسرة والألم من القرآن الكريم ما يناظرها عند قوله تعالى : " وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا " (الأحزاب الآية 26)

كما ركز على نفس مثير الظاهرة السابقة في البيت الثاني لإثبات حالة الذعر واليأس والتشرد التي سببها العدو الدخيل في أعماق نفوس الشعب الجزائري، وتتضح قدرة استيعاب مفدي أكثر للنص القرآني، عندما نجده قد جمع أربع سور* في أبيات معدودة، عند قوله :

وفي صحرائنا جنات عدن	بها تنساب ثروتنا انسيابا
وتحت خيامها، انبجست عيون	لها "هاروت" قد سجد احتسابا
وتحت خيامها، انبجست عيون	أسالت من فم الدنيا، لعبا
وإنا أمة وسط، نصافي	مودتنا الأولى قالوا صوابا
وخضناها (ثلاث سنين) دأبا	فأصبحنا من التحرير، قابا ⁽¹⁾ .

وهذا تنوع دليل يبين شدة إعجابه بالنص الموروث، الذي تحول إلى نسيج في تدفق الذاكرة، يهدف من ورائه التعبير عن معاناته واطهار قوة بيانه، وتحقيق الصورة الطبيعية الفريدة من نوعها فوق أرض الجزائر.

إن الدارس للمعجم القرآني في شعر الغربة عند مفدي زكريا، يلحظ للوهلة الأولى شغفه وتمسكه بالإرث الاسلامي قراءة وحفظا، فهو النهج القويم الذي سلكه في مسيرة معاناته الطويلة، حيث تجلت الغربة الروحية والفكرية واضحة بارزة في قصائده، وتكاد تكون السمة الفريدة في شعره " لا تخلو أية قصيدة - تقريبا - من ألفاظ وتراكيب قرآنية يستخدمها الشاعر مع استيحاء

* القرآن الكريم : سورة البينة الآية 8 ، سورة البقرة الآية 102 ، سورة يوسف الآية 47 ، سورة النجم، الآية 9 . وأيضا ينظر : مفدي زكريا : اللهب المقدس ص 21- 23 - 29 - 31 - 44 - 105 - 273 للإفادة.

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وقال الله)، ص ص 34، 40، 41

معاني آياتها وقصصها أحيانا، وفي الغالب مجردة من مضمونها المحدد للتعبير عن مضمون جديد للشاعر يختلف من مكان إلى آخر في درجة إبتعاد عن (جو) الآية واقتراابه منها⁽¹⁾.

لقد كان مفدي زكريا كما شهد له العديد من الدارسين والنقاد، في مقدمة وطليلة الشعراء الجزائريين التقليديين المتأثرين بالقرآن الكريم لغة ومعنى، فكان النموذج الرائد عنده المحتذى والمعين الوافر المعبر عن معاناته الروحية والفكرية، وعن آلام غربته الميرة داخل السجون، بحيث تفردت هذه الأخيرة عن أي إنتاج شعري جزائري، في إبراز ظاهرة الغربة، وعند استعمال الألفاظ والدلالات والصيغ القرآنية.

3 - المعجم اللغوي التقليدي في شعر مفدي زكريا:

تمثل ظاهرة الحماسة اللغوية في شعر الغربة عند مفدي زكريا، حقيقة عرف بها منذ نعومة أظافره، تفتحت على المبادئ الإسلامية من قرآن و فقه، ثم تدرجت إلى دراسة الأدب العربي القديم، والتزود بشعر فحول، حيث ارتوت وتشبعت قريحته بأشعارهم التي كانت ثمرة زفرات في الحياة، ونتاج فكرهم فوق البسيطة، فراح مفدي زكريا يحاكي - نهجا عليها - الشعراء القدماء في جزئيات قاموسهم اللغوي الخاص، ويمكن أن يكون معين معجمه اللغوي فترة العصر العباسي، نظرا لاسماء الشعراء الذين اعتمدتهم وحاكاهم أمثال المتنبي، أبي تمام، البحتري، ابن الرومي وأبي فراس الذين ظل معجمهم اللغوي العربي التليد الفصيح، معتمدا ومتداولاً في قصائده بحماس ولهفة وحب منقطع النظير.

إن ظاهرة الحماسة والمباشرة عند الشاعر كانت من أبرز الخصائص التي عرف بها شعره، مما دفع بقصائده العديدة الى أن تفتقد إلى عناصر فنية هامة، ويرجع ذلك كما يرى الدكتور صالح خرفي إلى "متطلبات هذه الأخيرة - القصيدة - وحاجتها إلى صوت يبعث الحماس في نفوس

1 - يحي الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص371.

ضمن الفاظ وعبارات هي إلى ميدان المعركة أقرب منها إلى عالم الوجدان والعاطفة⁽¹⁾.

إن هذه الظاهرة الفنية، وهذا الاتجاه لا ينطبق على شعر مفدي زكريا في تلك الفترة الاستعمارية الرهيبة القاسية فقط، بل يمكن أن نقول إنها تنطبق على أغلب شعر الشعراء الجزائريين الذين عايشوا تلك الأوضاع المأساوية، وعانوا من ويلات الظلم والغربة " فإن معظمهم قد آمنوا بأن مواكبة البطولة، ومتابعة المناسبات لتخليدها وتمجيدها كانت أكثر ضرورة من تطوير الإطار الشعري أو تحديد التعبير فيه فغرق أكثرهم في البلاغة الجماهيرية، معرضين في شعرهم عن التأمل الداخلي الذي يساهم في إعطاء الثورة أبعادا فكرية جديدة... فكان الشعر بمجمله تمرّداً موثّبا وهجوماً على المحتل الظالم السفاح⁽²⁾.

إن المتمعن في طبيعة اللغة الشعرية التقليدية في قصائد مفدي زكريا يلحظ أنه كثيراً ما يلجأ إلى أسلوب الصنعة وما يتطلبه هذا الأسلوب المعتمد، من لغة مناسبة مباشرة وحافلة بالخطابية في آن واحد، يعبر من خلاله عن غربته ومعاناة ومأساة شعبه، مما يجعل بعض قصائده، تبتعد - إلى حد ما - عن اللغة الشعرية المنشودة، ومن أمثلة هذه المواقف النفسية والفنية التي تنتاب الشاعر وتناثره هنا وهناك بين سطور قصائده، والذي يشبه فيها محاكاة القصيدة العربية التقليدية بكل ما تملكه من خصائص غنية معروفة، قوله عندما يستنجد في غربته الفريدة، بلغة فحول الشعراء القدماء بظاهرة الحماسة :

هذا (نوفمبر)، قم! وحي المدفعا واذكر جهادك و السنين الأربعا
و قل الجزائر! .. واصغ إن ذكر اسمها تجدد الجبابر ساجدين وركعا!⁽³⁾
فالشاعر في البيت الثاني، يمكن أن يكون قد أعجب أو تأثر الى حد ما بالشاعرا الجاهلي عمرو بن كلثوم في قوله المشهور:

1- صالح خرفي : أطلس المعجزات، (المقدمة)، ش و ن ت، الجزائر، 1974، ص ص 5-6

2- نور السلماني : الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير، ص 401

3- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (إقرأ كتابك)، نظمت بزنزانة رقم 375، بسجن البرواقية، 1958، ص ص 57-58

إذا بلغ الفطام لناصبي تحرّ الجبابر ساجدينا⁽¹⁾

ومما يؤكد تأثر مفدي زكريا في لغته الشعرية هذه، بالمعجم اللغوي الجاهلي، هو إحساسنا بصعوبة النطق، عند قراءتنا لكثير من الكلمات التي يوظفها في شعره بسبب تنافر حروفها.*

كما أن مفدي زكريا كثيرا ما يشحن قصائده ببعض أسماء الأماكن والأعلام التي يحولها إلى لافطة إعلامية، وهذا العمل الشعري مبعثه الثقافة العربية التقليدية التي نهل من حياضها.

إن المتتبع للخصائص الأساسية للغة الشعرية عند مفدي زكريا، يلحظ أنها في مجملها وعمومها، تتصف بمميزات عديدة أبرزها، الدقة والجرس الموسيقي والقوة، والفخامة لأن مفدي زكريا قد رفض، وبكل ما أوتي من قدرة و قوة، لغة الشعارات والندوات التي لا تنبعث من أعماق الذات المعذبة المغتربة، ولا تدرك أبعاد الحقائق المتناقضة، فيقول :

وتعقد باسم السلم للحرب ندوة يصرفها السمسار (بالعملة الصفر)^{(2)*}

فهو يعلي رفضه صراحة " سياسة المماطلة واستهتار الطغاة بحق الشعوب في المحافل الدولية غير منتجة، ولا يرى في الشعارات التي تحملها الأمم كالعدل والسلام، إلا خرافة يضحك بها القوي على أذقان الجماهير الضعيفة، ويذريها الرماد في أعينهم، ليحلل لنفسه الآثام والإعتداء، وكان مفدي زكريا لا يرى الشعار إلا الصورة المنقلبة، فيرى الظلم في العدل، ويرى الحرب في السلم"^{(3)*}.

1- التبريزي : شرح القصائد العشر، مطبعة المدني، القاهرة، 1965، ص 322 .

* ما شابه هذه الكلمات : مصقع، تضعض، لعلع، شللع، و قد وردت هذه الكلمات في قصيدته المشهورة ، " إقرأ كتابك"

مفدي زكريا : اللهب المقدس ص ص ص ص 57، 60، 65، 66.

2- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (فلا عز .. حتى تستقل الجزائر !)، نظمها أثناء زيارته لبنان، 1961، ص 312.

*المقصود "بالصفراء" الذهب الأصفر.

3- أحمد رحمان : لغة القوة في شعر مفدي زكريا، مجلة الضاد، معهد الآداب واللغة العربية جامعة قسنطينة، العدد 6-7، أكتوبر 1983، ص 18.

هذه النظرة الحزينة المتألّمة، مبعثها الحقيقي إدراك مفدي زكريا لحقائق الأشياء وأبعاد الآراء والأفكار الإستعمارية التي تعرض على مسرح الحياة، فيقول رأيّه بكل صراحة ووضوح :

والعدل زور، والسلام خرافة لغة، تحلل باسمها الآثام
فلتكتب الأقلام، سفر هناتكم للعالمين وتنطق (الأفلام)
ولتشهد الأكوان أقدس ثورة للحق حارت دونها الأفهام...!(1)

نلاحظ أن مفدي زكريا، قد اعتاد في شعره، ولا سيما الثوري منه، أن يسير على هذا النهج والفهم، باللغة المجلجلة الصاخبة، فلا تقرأ فيه إلا الرفض لوسائل التحذير اللينة، ولكنه عندما يرفض يحضر البديل، على أن يكون في كل الحالات يحمل القوة والعنف(2).

فيندفع كالبركان، قاذفا حمم الألم والغضب والثورة على أعداء الحق والحرية، مزلزلا دعائم الباطل في كل مكان فوق الأرض وعلى رؤوس الهمم العالية، ليراها أعداء الانسانية فيقول :

ولعلع من (شللعل*) ذو بيان فانطق فوق (جرجرة**) الجعابا
وشبت من ذرى(وهران) نار رآها (برج مدين***) فاستجابا(3).

فمفدي زكريا، بهذه اللغة الشاعرية الحزينة الحادة، وبهذا البيان اللفظي القاطع، شبيه في يراعه بالمحارب في ساحة الوغى، لا يمكن أن ننتظر منه الأناقة والزخرفة الفنية، فهو يلبس لباس الميدان الخشن، وتدفعه إلى ساحة الوغى، حالته النفسية التعيسة الغاضبة، فلا يمكن أن تقرأ في شعره

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، بنت الجزائر : أهوى فيك طلعتها، ص 46

2 - أحمد رحماني : لغة القوة في شعر مفدي زكريا، ص18.

* الشللعلع : جبل في الأوراس بالجهة الشمالية لمدينة باتنة .

** جرجرة : جبال القبائل الكبرى، سلسلة الأطلس ، ص ص 31-32

*** برج مدين : كناية عن مدينة تلمسان التي تضم ضريح الصوفي الشيخ شعيب أبو مدين .

3 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، ص ص 31-32.

إلا لغة الرفض لوسائل التحذير، فما علينا إلا أن نتفهم حالته، وأوضاعه ونعفيه من طلباتنا الجمالية الكثيرة، فهناك ما ينوب عنه في واقع العمل الثوري الملموس⁽¹⁾.

ويقدمها مفدي زكريا ناصعة مدورية صريحة، أن اللغة السورية والمناسبة الدامغة في وقته التعيس، هي اللغة التي تعيد الغريب إلى أهله ووطنه، وترسي قواعد العدل في الكون، هي لغة القنابل ودوي المدافع وأصوات الرصاص المتناثر، وفي زجرة الأبطال، حين يشتد الصدام والقتال في ساحات الوغي فيقول :

لغة القنابل في البيان فصيحة	وضعت لمن في مسميه صُمامٌ
بلادنا بيد (الكُلاص)* خلاصها	هيهات يجدي (مجلس)** وخصام
و(لوافح) النيران، خير(لوائح)	رفعت، لمن في ناظريه ركام
و(روائح) البارود، مسك نوافج	سُجرت، لمن في منخريه زُكام
والحق، والرشاش إن نطقا معا	عَنَتِ الوجود، وخرت الأصنام ! ⁽²⁾

هذه لغة شعر الغربة والثورة عند مفدي زكريا لمن يرغب الفهم أو الدراسة، فهي اللغة الشعرية التقليدية، التي عبرت بصدق عن معاناته الحادة، وغربته المركبة الطويلة، داخل غياهب دهاليز السجون، وبعيدا عن الوطن، غريبا عن الأهل والأحبة، مبعدا عنوة عن الديار.

فاختار لظاهرة حزنه وغربته، اللغة المؤثرة النابعة من أعماق عوالمه الباطنية، وأمطرها حمما قاتلة، ضد أعداء الحرية والإنسانية، لغة تتسم بقوة البيان والدلالة، ذات وقع مؤثر في النفوس. لغة قادرة على نقل عوالم النفس الحزينة الجريحة الدامية الضائعة، ترسل ذبذبات الآهات وصدى

1 - عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة في الأدب العربي المعاصر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1971، ص451.

* الكلاص : كلاش : باللغة الروسية، كلمة أجنبية، معناها آلة حرب.

**مجلس : مجلس الأمم المتحدة.

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص ص 44-50.

الزفرات، التي تنبعث نيرانا في النفوس الحية، وتنشر فيهم الحماس، وتأجج العواطف، وتحني فيهم بقايا الشهامة، و تدفعهم الى التضحية، لذا جاءت هذه اللغة التي اعتمدها مفدي زكريا في قصائده الغنائية الناثقة، تحمل رسالة منابعا ذاتها المغتربة، قد شحنت " بالألفاظ الجزلة ذات الرنين الضخم، والجلبة القوية، فهي تملأ السمع وتثير الانتباه بقوة، وصريرها، ولعل للمواقف الحماسية والنضال السياسي الذي كرس له أغلب شعره، تأثيرا مباشرا على تمييز لغته بهذه الميزة، ولعله كان يختارها عن عمد وإدراك لأدواته، واستجابة لمواقفه الشعورية، فإن شعرا يتسم بالحماسة والثورة، لا تليق به الألفاظ الرقيقة الهامسة، بقدر ما تليق به لغة تملأ الأشداق وتقرع الآذان"⁽¹⁾.

لقد رفض مفدي زكريا أسلوب الليونة و سلوك المداينة اللغوية، مع الدخيل المحتل، وأحضر معه السلاح البديل الوافي الشافي، كهذا الذي تمثله (الكُلَّاصُ) والنار والصفائح، فتحرس كل ذي صوت، وتشل كل ذي حركة، فيقول :

السيف، أصدق لهجة من أحرف	كتبت، فكان بياها، الإبهامُ
والنَّار، أصدق حجة، فاكتب بها	ما شئت، تصعق عندها الأحلام
إن الصفائح، للصفائح أمرها	والخبيرُ حربُ، و الكلام كلام
عزُّ(المكاتب)، في الحياة(كثائب)	زحفت، كأن جنودها الأعلام*
خيرُ المحافل، في الزمان جحافلُ	رُفعت، على وحداتها الأعلام** ⁽²⁾ .

والمتمعن لسياق النص الشعري، يلاحظ أن مفدي زكريا، قد تناثرت أبيات قصيدة أبي تمام بين أبيات قصيدته الشهيرة (وتعطلت لغة الكلام) التي تمثل مأساة الشعب عندما خذل في حقه أمام العالم، حيث وظف " السيف أصدق أنباء من الكتب"⁽³⁾.

السيف أصدق أنباء، من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

1- محمد ناصر : المحافظة و التقليد في الشعر الجزائري الحديث، مجلة الثقافة، العدد 40، السنة أوت - سبتمبر 1977، ص71

*الأعلام الأولى : تفيد الجبال الشامخات.

**الأعلام الثانية : تعني الرايات الخفاقة

2- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص43..

3- أبو تمام : الديوان، المركز العربي للبحث و النشر، القاهرة، ب ت، ص7.

هذه الجملة المؤثرة، المعبرة عن الغضب الكبير، ومرارة الموقف، إذ سقط في فضائها اللغوي، فراح يسبح في محسناتها البديعية، المواكبة لغربته وحزنه، والمعبرة بصدق عنها، وذلك باستعماله ألوان الجناس، كما يظهر جليا عند قوله : لهجة وحجة، صحائف وصفائح، حبر وحرب، مكاتب وكتائب، محافل وجحافل، لوافح و لوائح.

وفي ظلمته وغربته المحتومة، ينفض مفدي زكريا يديه من الحبر والورق، كأنه ليس بالشاعر الأديب، حين يرى في دم الأحرار الحروف التي لا تمحي، والأصدا التي تخرق الصمم، معلنة أن الحق المهضوم، والظلم المستديم، لا يؤخذ إلا عن طريق التضحية بالدم الغالي فيقول :
حقوقنا، بدم الأحرار نكتبها لا الحبر، أصبح يعنينا، ولا الورق⁽¹⁾
ولا يتردد الشاعر من أن يسبغ العظمة والألوهية على آلة القتل والدمار، آلة الرشاش مزيلة الحسرة و العبودية عن المكبلين بالحديد والقهر، فيسجد له سجدة التقدير والإجلال والتبعية الدائمة، لأن الدنيا لا تعرف الراحة والانسان فوقها السكينة، إلا عندما يسمع هتاف أصوات نبراتها تتعالى، واتبعها الشاعر بعبارات مدوية مجلجلة، وضمنها بجرس موسيقى حاد صاحب يفني بقوة الانفعال ويبرزه بدقة، فيقول :

وتكلم الرشاش، جل جلاله...!!
فاهتزت الدنيا، وضع التير
وتزلت آيـاتـه، لهابة
لواحة، أصغى لها المستهتر
والنار، للألم المـبرح، بلسم
يُكوى بها العظم الكسير، فيجبر⁽²⁾.

وبناء على هذا يتضح أنه على الرغم من استمرار لغة الغربة والثورة والغضب، في قصائد مفدي زكريا والذي يمثل المنظور التقليدي في شعره، إلا أنه وبتأثير من الظروف والمواجهة التي أفرزت هذا النوع من الانفعال الشعوري والشعري، والتي تتسم بالحسرة والألم والغربة،

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (زنزاة العذاب رقم 73)، نظمها في الظلام بعد عذاب شديد من طرف الزبانية، 1955، ص 28

2- المصدر نفسه : (وتكلم الرشاش جل جلاله !!)، ذكرى احتلال الجزائر 1830-1959، ص 134

والعنف والقوة في أكثر الأحيان، فإن بعض قصائده، وجدت ذريعة وإلتزاما للإتكاء على ما في اللغة من طاقة سماعية، ذات أصوات إنفجارية، وقادرة على الإمتداد هنا وهناك لتحمل احتجاج الشعب وغضبه، ورفضه المطلق للواقع المفروض عليه⁽¹⁾ إن المتتبع لطبيعة اللغة الشعرية وخصائصها ومميزاتها في التيار الوجداني بالمقارنة مع اللغة الشعرية عند مفدي زكريا، الذي يمثل التيار التقليدي، يلحظ من قصائده العديدة ، أن معجم شعره اللغوي قد تطور كثيرا، إذ أصبح التعامل مع هذه اللغة عنده، خاضعا لذلك النهر الهائل الذي يروى الحياة كلها ، المتدفق من النفس* دون التقيد بالمواصفات والأنماط الكلاسيكية التي شاع استعمالها عند الشعراء المتأثرين بالمعجم المحافظ⁽²⁾ .

إن اللغة الشعرية التي كتب بها الوجدانيون، كانت في مجملها نابعة من أعماق الإحساس الذاتي، الملون لماسيهم و غربتهم وصورهم بلونهم المميز الفريد، والمبعد بينهم وبين الأنماط المعتادة المألوفة في الشعر الكلاسيكي، وبسبب هذا التغير والتحول من النمط التقريري إلى النمط الذاتي، إبتدع الشعراء الوجدانيون لأنفسهم " معجما شعريا جديدا يعتمد - في الغالب - على ألفاظ شفافه.....ترتبط بإيحاءات نفسية و وجدانية عديدة، أكثر من ارتباطها بدلالات مادية محدودة"⁽³⁾.

ومن ملامح اللغة الشعرية الرومانسية الوطنية الحزينة المغترية، والتصويرية المجسمة لأغوار الأحاسيس الدامية، ما تنفس به مفدي زكريا لهيبا، وكأنه الهمس الأليم، الذي هو أبعد عن الصخب المعتاد في أشعاره، عندما وصف هذه الظاهرة الرهيبة، حيث يقول :

1- عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة في الأدب العربي المعاصر، ص438.

* ينظر : المرجع نفسه، ص658.

يرى عبد الله الركيبي بأن الاتجاه الرومانسي عند الشعراء الجزائريين، لا يمثل رؤية معينة للطبيعة أو الأسلوب، إنما يشبه هذا، فهم يحسون بواقع سيء، فيثورون عليه، كما ثار الرومانسيون، و يلوذون أحيانا بالطبيعة يتغنون بها، ولكنها ليست تلك الطبيعة المثالية أو (الأم الرؤوم)، وإنما هي طبيعة الوطن، طبيعة الحضارة، ولكنه حب يترع إلى الإشارة بالوطن و تقديسه، فهي وطنية رومانسية إن صح التعبير يلتجئ إليها الشاعر لانه يائس من واقعه، من حاضره، يائس من العدل و الحاكم الاجنبي، فيلتمس العزاء في طبيعة بلاده التي يضاعف من جمالها، بطش الاستعمار، و من ثم اختلط الحديث عن الطبيعة، بالحديث عن الوطن، و بالحزن عليها او على النفس"، ص658 .

2- عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ص.658

3- عبد القادر القط : الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر، ط3 ، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص16.

قام يَحْتال كالمسيح وييدا يتهادى نشوان، يتلوا النشيدا
يا "زباناً" أبلغ رفاقك عنا في السماوات، قد حفظنا العهودا
كل من في البلاد أضحى "زباناً" و تمنى أن يموت "شهيدا" !!
أنتم يا رفاق، قربان شعب كنتم البعث فيه والتجديدا !!
فاقبلوها ابتهالة، صنع الرش أش أوزانها، فصارت قصيدا !!
واستريحوا إلى جوار كريم واطمئنوا، فإننا لن نحيدا!!⁽¹⁾

" تمثل ألفاظ القصيدة معاناة الشاعر الحزين، اليأس عن رد المكروه عن رفيقه زبانه لذا جاءت ألفاظ القصيدة بإيجائها وأنغامها وصورها، مصدر تفجير هذه الأحاسيس في أعماق الملتقى الذي لا يشعر وهو يقرأ مثل هذا الشعر سوى بالعفوية المتأثرة الحاملة، وكأنه في عوالم الرومانسيين"⁽²⁾.

وبعد هذا الفحص الوجيز، يمكن أن نوجز القول : إن اللغة الشعرية التي صادفتنا في المعجم الوجداني، بالمقارنة مع مثيلتها في المعجم التقليدي المحافظ، قد نمت و تطورت في قصائد مفدي زكريا، وتحددت مناهجها، ويبدو ذلك واضحا في توجهه الى الطبيعة، وإلى عوالم الذات خاصة لاستنباط لغة جديدة، تعبر بصدق عن غربته وآلامه المختلفة، وفق تنوع مشاعره، واختلاف خلجات أحاسيسه واضطراباته، بعيدة عن لغة التراث التليد، حتى وإن حاول التمسك بنهجها، في بعض الأحيان، لكن ما لبث أن عدل عنها بعد التطور الذي حدث، فغير - إلى حد ما - من نظرتة الى الشعر، لعوامل وأسباب مستجدة في واقعه اليومي، و ظروف حياته القاسية.

وعلى العموم، فإن هذا التغير أو التطور - إن صح التعبير - الذي طرأ على لغة الشعر عند مفدي زكريا، كان من نتائجه البارزة، تحويل المعجم الشعري عنده من الطابع التقريري إلى الطابع التصويري، الجسم بدقة للمشاعر الحزينة والأحاسيس الدامية والعواطف الجياشة المتقطعة.

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص ص 9-11-19.

2 - محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث، ص324.

ثانيا : الصورة الشعرية

إن تشبيه الشعر بالتصوير، ظاهرة فنية قديمة في النقد العربي، حيث تحدث أبو عثمان الجاحظ عن هذه الظاهرة، عندما تعرض في استخداماته لكلمة التصوير فأورد قائلا: "فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير"⁽¹⁾.

وهو النهج- تقريبا- الذي سلكه في "الصناعتين" أبو هلال العسكري حين أرشد إلى "حسن الأخذ"، فقال: "أن المعاني مشتركة بين العقلاء، وربما وقع المعنى الجيد للسوقي والنبطي والزنجي... وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ وورصفها وتأليقها ونظمها"⁽²⁾.

وقد يبدو أن أعظم ناقد عربي، وقف قديما مليئا عند موضوع الصورة الشعرية، هو عبد القاهر الجرجاني، فهو عندما تصدى لهذا المصطلح قال: "ومعلوم أن سبيل الكلام التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه، كالفضة والذهب، يصاغ منهما خاتم أو سوار، فكما أن محالا إذا أنت أردت النظر في صوغ الخاتم وفي جودة العمل وردائه، أن تنظر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذي وقع فيه العمل وتلك الصنعة - كذلك محال إذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية في الكلام، أن تنظر في مجرد معناه، وكما أننا لو فضلنا خاتما على خاتم، بأن تكون فضة هذا أجود أو فضة أنفس لم يكن تفضيلا له من حيث هو خاتم، كذلك ينبغي إذا فضلنا بيتا على بيت من أجل معناه أن لا يكون تفضيلا له من حيث هو شعر وكلام، وهذا قاطع فأعرفه"⁽³⁾.

فأنت تلحظ أن المعاني عنده، هي مراد الشعر، وأن المعاني لا تؤثر في قيمته، بل التي تـأثر فيها ألفاظه أو صورته، وعليه المعول في الحكم له أو عليه.

- 1- أبو عثمان الجاحظ : الحيوان، (تحقيق)، عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، ط3، ج3، بيروت، 1969، ص132 .
- 2- أبو هلال العسكري : الصناعتين، تحقيق مفيد محمد قمبيحة، دار الكتب العلمية، بيروت، مطبعة العجالة الجديدة، 1981، ص217.
- 3- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، شرح محمد عبد المنعم خفاجي، نشر مكتبة القاهرة، 1969، صص255-256 .

وعلى العموم، فقد عالج النقد القديم، موضوع الصورة الشعرية، معالجة تتناسب مع ظروفه التاريخية والحضارية، وكان اهتمام النقاد بدراسة الصورة الشعرية، يكاد يطغى على إهتماماتهم الأخرى كاللغة والموسيقى، ولعل ذلك راجع إلى أهميتها البالغة في القصيدة، كما يرى " كولورج " " أن الشعر من غير المجاز، يصبح كتلة جامدة، ذلك لأن الصورة المجازية جزء ضروري من الطاقة التي تمد الشعر بالحياة"(1).

كما نجد أن النقد القديم قد اهتم، بالتحليل البلاغي للصورة القرآنية، ولتمييز بين أنواعها وأنماطها المجازية، والتركيز على دراسة الصورة الشعرية عند كبار الشعراء(2).

كما حرص على موضوع الإثارة التي تحدثها الصورة الشعرية في ذات الملتقى، حيث قارن هذه الإثارة بنوع متميز من اللذة والألم، والتفت - إلى حد ما - إلى العلاقة والصلة الوثيقة بين الصورة الشعرية، على اعتبار أنها إحدى خصائصه النوعية، التي تميزه عن غيره، علاوة على ذلك، فإن الصورة كانت تفرض نفسها على الناقد، وهو يحاول تتبع ما حققه الشعراء من اختراع أو ابتكار أو ابداع، وبذلك يكون النقد القديم عبر قرونه الطويلة، قد قدم مفاهيمه المتميزة التي تكشف عن تصوره الخاص لطبيعة الصورة الفنية، وأهميتها ووظيفتها، من تحليله البلاغي للنصوص الشعرية والقرآنية(3).

ولا حاجة بنا الى استعراض كل ما قيل في الصورة الشعرية، لأن معظم التعريفات والدراسات تقترب من مفهوم الأمريكي " إزرا باوند " حين قال أنها : " تلك التي تقدم تركيبة عقلية وعاطفية في لحظة من الزمن"(4).

1- اليزابيث درو : الشعر، كيف نفهمه و نتذوقه، ترجمة محمد ابراهيم الشوشي، مكتبة ميمنة، بيروت، 1961، ص59.

2- المرجع نفسه : ص63 وما بعدها.

3- جابر أحمد عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي و البلاغي، دار المعارف، مطبعة القاهرة الجديدة، ب ت، ص5-6.

4- عز الدين اسماعيل : التفسير النفسي للأدب، مكتبة غريب، دار غريب للطباعة، ط4، القاهرة، 1977، ص63.

والصورة الشعرية لا تنفصل عن اللغة لأنها: "انبثاق عن اللغة ومعنى هذا أن الصورة لا تتقرر بمحض الصدفة، بل تولد من جهد الشاعرالفنان على وفق انتقائية دقيقة تقررها الخصال الشخصية لأنها عميقة الجذور في التجربة المحسوسة"⁽¹⁾.

كما ظلت الصورة الشعرية تفرض شروطها على النقاد وهم يحاولون جاهدين تتبع ممرات ما حققه الشعراء من ابتكار أو ابتداء.

1 - الاتجاه التقليدي الوجداني في شعر مفدي زكريا:

لقد عرفنا فيما نثر سابقاً، بأن ثقافة مفدي زكريا تقليدية، وكان معينه الأساسي، التراث العربي بكل ما يتضمنه من مقومات وخصائص، هذا التراث العظيم الحافل بالفنون المتعددة، والحضارة الغنية بالماثر، كان أهم مصادر شعره وفكره، فإن الحديث عن الصورة الشعرية في هذا الاتجاه، يتناول المصادر نفسها التي وظفت واعتمدت، في إبراز طبيعة اللغة الشعرية وملامحها في ظاهرة الغربة عند مفدي زكريا: وخاصة القرآن الكريم، ثم ذكر بعض أعلام الشعر العربي القديم.

2 - أثر القرآن الكريم في شعر مفدي زكريا:

وفيما يخص القرآن الكريم، فهو المصدر الأول والأساسي الذي نهل من حياضه مفدي زكريا، فقد استلهم من آياته الكريمات مختلف الصور واستخرج من معانيه المؤثرة ألوان التعبيرات الشعرية" فهو يعتصر ما في المفردة القرآنية من دلالات نفسية بعيدة، قد لا يدرك كنه أبعادها سوى الملتقى الحافظ للقرآن الكريم"⁽²⁾. إلى درجة استخدامه لألفاظه، وتوظيف تعابير، إلى حد أن هذه الظاهرة الفنية أضحت متكاً يستند عليه بناء قصائده، وإبراز آهاته وغربته وثورته.

ويمكن أن نرجع ذلك إلى وعيه الديني المبكر، وإدراكه وقناعاته التامة، بأن لغته العربية غنية لا نظير لها من الناحية الفنية والبلاغية، فهي لغة قد ملئت بشتى أنواع الإحياءات،

1 - جاشتويا شلار: كتاب الأقدام، ترجمة غالب هلسا، وزارة الثقافة و الاعلام، بغداد، 1980، ص.29

2- محمد ناصر: مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة، ص.113.

وأن صوره بليغة ودقيقة ومؤثرة في النفوس قبل القلوب، وهي الأداة المناسبة والحبية والمفضلة لتأدية أسلوبه القوي، بالإضافة أن آيات القرآن الكريم واضحة، لذا جاء القرآن الكريم " يعبر بالصور المحسة المتخلية عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية. ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاحصة، أو الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا النموذج الإنساني. شاخص حي، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، والمتتبع للصورة الشعرية المأخوذة والمستلهمة من آيات القرآن الكريم"⁽¹⁾ وفي قصائد مفدي زكريا نجد لها في شكل أساليب متنوعة ووفق استخدامات متفاوتة في السطحية والرمز وعند التلميح والتصريح.

ومن أبرز الصور التي إستلهم منها مفدي زكريا، الآية القرآنية، التي تعبر عن غربته وحنينه إلى بيئته الأصلية "الصحراء"، وطبيعتها الفريدة المملوءة بالذكريات، ومرتع الصبا ومساكن الأهل والأحبة، متغنيا بفضائها الرحب، وجمالها، وهو حبيس موثق في سجن "البرواقية"، فجاءت زفراته تحمل صور المتناقضات التي تعزز ظاهرة الغربة والاغتراب معا فيقول :

وفي صحرائنا، الكبرى، كنوز	نطارده عن مواقعها الغرابا
وفي صحرائنا، تبر، وتمر	كلا الذهبين : راقق بها وطابا
وهزّت مريم العذراء نخيلا	فأسقطت الفلودج و الرضا با ⁽²⁾ .

هذه الظاهرة اقتبسها مفدي زكريا من القرآن الكريم، عند قوله تعالى : " وَهَؤُلَاءِ إِلَيْكَ بِجَذَعِ النَّخْلَةِ تُسْقَطُ عَلَيْكَ رُطَبًا جَنِيًا" (مريم الآية 25) إذ تمثل مفدي زكريا الصورة دون أن يصوغها بما يلائم وضعه الحزين، لأن الصورة في الآية الكريمة توحى بالأمن والإطمئنان - رغم حالة العذراء المضطربة الحائرة أمام الحدث العظيم - ولكنها ظلت في أبياته الشعرية مجرد إعجاب بالنص القرآني. اقتبسها ليدلل به على حالته المغتربة الحزينة، على حنينه للوطن المسلوب المحتل، دون أن يكون

1- سيد قطب : التصوير في القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، ب ت، ص 32.

2- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وقال الله ..)، ص 33-37.

للآية أثر يذكر في توجيه الصورة الشعرية التي جاء بها، كما نجده في موطن آخر يقترب من التصوير الجيد حين يقول :

و رسالة صاغ (الشهيد) بيانها و زكا بها، في الخالدين (عصام)
أسرى بها من "بربروس" خياله و هفت به لحماكم الأحلام
و القلب، بالأنات يقطع بحرهما دقاته: الأوزان، و الأنغام (1).

فهو استمد لحنه إلى أرض الكنانة مصر، هذه الصورة الحزينة، التي اقتبسها من الآية القرآنية الكريمة عند قوله تعالى : " سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ " (الإسراء الآية 1)

ومن خلالها عبر عن معاناته، واشتياقه، عما يعانيه وحيدا داخل السجن من وحشة بين جدرانها، ونفس معذبة، تتطلع اشتياقا إلى مصر التي يناشدها أن تخلصه من آلامه وغربته.

وهناك العديد من النماذج الشعرية، التي استوحى من أجوائها وأفنانها، آيات القرآن الكريم والتي تبرز دلالات ألفاظه، هذا التنفيس الذي حل محل الكبت فدحضه، عند قوله وهو في حالة غضب شديد وثورة، مُعَدِّدًا ألوان العذاب والمآسي التي لحقت بالشعب الجزائري من طرف العدو الدخيل الفرنسي، وأن ساعة الخلاص قد دقت، وأن لغة البيان قد تعطلت وحل محلها لغة أخرى هي :

نطق الرصاص، فما يباح كلام! و جرى القصاص، فما يتاح ملام!
و قضى الزمان، فلا مرد لحكمه و جرى القضاء، و تمت الأحكام...
و سعت فرنسا للقيامة، وانطوى يوم النشور، و جفت الأقلام
ما للقيامة، في الجزائر أرعدت ؟ فغدا لها في الخافقين غمام؟
لا النار، لا التقتيل، يثني عزمه لا السجن، لا التنكيل، لا الإعدام!

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام..)، ص52

لا الذاريات، الماحقات، هواطلا
لا الشاخات، تدكها (الألغام)
لا القاصرات، الغافلات، كواعبا
ديت قداستها، و فضّ ختام⁽¹⁾.

فالشاعر قد أعطى للدلالة القرآنية - كما هو وارد و أوضح من سياق شعره - ،
منطلقا له دلالة جديدة رمزية، ولكنها مستمدة من الأولى، فكلمات مثل القصاص، القيامة، النشور،
النار، الذاريات، الغافلات والكواعب، كلها لها دلالتها الدينية العميقة، المؤثرة المعروفة في القرآن
الكريم، إلا أنها في هذا النص الشعري على عكس ذلك، فإذا كانت كلمة مثل الذاريات التي يراد بها
في القرآن الكريم الرياح العاتية أو العاصفة، فإنها في البيت الشعري عند مفدي زكريا، تعني الطائرات
المقاتلة المدمرة، وهكذا يقاس باقي الكلمات.

ويستنجد مفدي زكريا في سجنه ووحدته الطويلة، بآيات القرآن الكريم، ليستمد منها
قوته، في شكل صور بيانية حزينة، عن طريق الاقتباس، فيوظفها في شعره، خاصة عندما يصف ليلة
أول نوفمبر 1954، الليلة المباركة التي انطلقت ساعة الصفر فيها، أول رصاصة معلنة بداية العد
التنازل لمظاهر الغربة وألوان الظلم والجهل والتشريد والقتل والقمع والإضطهاد، لتضع المحتل
الدخيل، وسنين القهر والإبادة حدا فاصلا، فكانت هذه الليلة العظيمة، بالنسبة للشاعر المضطهد
المعذب، بعثا جديدا، شبيه في وقعه وحدته بليلة القدر المباركة التي أنزل فيها القرآن الكريم، على نبيه
خير الأنام (ص) هدى ورحمة، ونهجا يخرج الناس من الظلمات والظلم، الى رحاب الخير والمحبة
والعدل والسلام، وتنفيسا لمكبوتات المظلومين المستعبدين، فيقول :

دعا التاريخ ليلك فاستجابا " نوفمبر! " هل وفيت لنا النصابا؟
وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليلة القدر الجوابا؟

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام ..)، ص ص 42-44-45 .

تبارك ليلى، الميمون نجما	وحل جلاله، هتك الحجاب!
زكت و ثباته عن الف شهر	قضاها الشعب، يلتحق السرابا
تنزل روحها، من كل أمر...	بأحرار الجزائر، قد أهابا ⁽¹⁾ .

نلاحظ من خلال هذه الأبيات الشعرية، أن الشاعر قد دعت الضرورة المعنوية إلى الاستنجاد" بالجملة القرآنية، ما دامت هذه الجملة موزونة عرضا، ليجعلها شطرا أو بعض شطر في شعره، وفي ذلك تحقيق للهدف المعنوي والتنغيم الموسيقي، والشاعر زكريا يلجأ إلى هذا التوظيف في المواقف العظيمة، والأحداث الجسام، التي يخيل إلينا فيها بأن التاريخ يتوقف لحظتها جلالا وروعة"⁽²⁾.

لقد هام مفدي زكريا عشقا، بظاهرة الإسراء التي وردت في القرآن الكريم، كما أحب كل آيات سورة القدر، والتي أوردها كاملة تأثرا وإعجابا، لأن آياتها تضمنت حركية معاناته الداخلية بدقة، وسأيرت مواطن إنفعالاته بصدق قال تعالى : " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، تَنْزِيلُ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحُ فِيهَا يَأْذُنُ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ، سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ" (سورة القدر الآيات 1، 2، 3، 4، 5)

ويقارب مفدي زكريا، واصفا عزم وإقدام أبناء الجزائر من المجاهدين البواسل، عند بناء صوره الشعرية، وهم يجتثون من ديارهم جذور البؤس والظلم، الذي سلطه عليهم العدو الدخيل، وإصرارهم على العودة الى بلادهم وتحريرها من القيود وتحطيم قلاع الاستعمار ومدارسه، يقول مفدي زكريا :

بشباب، تخشى لقاء المنايا	ونفوس، لا تعرف الإحجاما
ونسور، مثل الصواعق تنقـ	ض فتذروا المستعمرين حطاما ⁽³⁾ .

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وقال الله ..)، ص ص 30-31.

الفصل الثالث : _____ الخصائص الفنية لظاهرة الغربة، في شعر مفدي زكريا

2- محمد ناصر : مفدي زكريا، شاعر النضال و الثورة، ص.118

3- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (يوم الخلاص)، في ذكرى عيد استقلال تونس، 20 مارس 1956-1961، ص 210
فهو قد اعتمد على صوره الشعرية، وعمل على إظهار ما تتضمنه من معاناة،
ومن قوة وصبر واقدام، على آيات القرآن الكريم، التي اقتبسها لأبياته الشعرية، عند قوله
تعالى : " واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض فأصبح
هشيما تذروه الرياح، و كان الله على كل شيء مقتدرا". (الكهف الآية 45)

فهو قد شيد بناء الصورة الشعرية التي نثرها في البيت الثاني من الفعل " يذرو" كما
هو الحال في الآية القرآنية الكريمة.

ويبدع مفدي زكريا في ابراز الصورة الشعرية المأثرة المعترية، في اقتباسه من القرآن
الكريم، عندما يرافق في حسرة وألم، وزهو وكبرياء وشموخ وتجلد، رفيق دربه في غربته داخل
غياهب السجون، ابن الجزائر البار الشهيد أحمد زبانه، وهو ينقاد إلى مقصلة الشهادة، مواجهها الموت
بكل شجاعة وتحدي ونكران للذات، متقدما ثابتا متحديا غطرسة الزبانية القائمين عليها، أعداء
الحرية والانسانية، ومن بين الأيات القرآنية الكريمة التي وظفها مفدي زكريا لهذه الصورة
الرهيبية الشعرية، والظاهرة الإنسانية المأساوية، في قصيدته الشهيرة الخالدة خلود الحق فوق
الأرض " الذبيح الصاعد" إذ اقتبس عبارة " وأقض يا موت في ما أنت قاض" أو كما ساغها شعرا
عند قوله :

" أشنقوني، فلست أخشى حبالا واصلبوني، فلست أخشى حديدا"
"و اقض يا موت في ما أنت قاض، أنا راض، إن عاش شعبي سعيدا"⁽¹⁾

وجاءت دعائم الصورة الشعرية التي اقتبسها، مفدي زكريا من القرآن الكريم، عند
قوله: "قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي
هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا" (طه الآية 72)

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (الذبيح الصاعد)، ص 10 .

عندما آمن السحرة برب موسى عليه السلام، وعندما أدركوا سر فعله، وتبين لهم البرهان العظيم، أيقنوا أن فعله مصدره حق، وأن رسالته ومعجزته حق، إذ تحداهم في سحرهم فلم يستطيعوا عليه ردا، فتوعدهم فرعون بالعذاب الشديد، عن طريق الصلب الى جذوع النخل، وقطع أرجلهم وأيديهم من خلاف، فلم يثنهم ذلك التهديد وألوان الوعيد على التراجع عن إيمانهم برسالة ربهم، أو الضعف والركوع لغير الله، وكذلك كان الأمر بالنسبة لشهيد الحق والحريّة أحمد زبانة الذي آمن بربه ووطنه وبحقه في العيش على ظهر الأرض حرا كريما، فلا الصلب ولا الشنق والتعذيب المتواصل داخل السجون، يثنيه عن المطالبة بحقه، أو يوقفه عن النضال والكفاح من أجل عزة وطنه، وبناء على هذه الظاهرة البائسة، أسس مفدي زكريا الصورة الشعرية الموافقة، ومقتبسا معالمها الأصلية من الآية القرآنية الكريمة السابقة الذكر، وكان مفدي زكريا من بين الشعراء الذين كانوا أكثر توفيقا في استغلال صور القرآن الكريم واستيحائها بالإعتماد على التكثيف والتركيز والابتعاد عن التفسير*، ومنح المتلقي فرصة الإكتشاف والمعايشة الوجدانية وربط هذه الصور بحالاته النفسية، واستغلال الطاقة التعبيرية في المفردة القرآنية، ووعي الدلالات المختلفة التي يتوفر عليها المشهد القرآني وإشاراته، وبناء صور فنية من مفردات لا تثير في أصلها أية صورة شعرية، إلا ما يحاول الشاعر إيجاده وتوفيره ببراعته الفنية.

يمكن أن نوجز أن مفدي زكريا قد تأثر في صوره الشعرية بآيات القرآن الكريم، ويعود ذلك إلى ثقافته التراثية العربية القديمة، التي تلقاها منذ نعومة أظافره، كما ترجع في أصولها إلى تلك التربية الاقليمية التي ثقفها وتعود عليها منذ صباه، ثقافة تراثية عربية إسلامية أصيلة.

3- أثر الشعر العربي القديم في شعر مفدي زكريا :

يمثل الشعر العربي القديم الرافد الثاني، ومصدرا حيا يستقي منه مفدي زكريا الصورة الشعرية، بعد القرآن الكريم، إذ تأثر بقصائده وتأثرا كبيرا، حيث اتخذ لقصائده منه، تارة شكل اقتباس

* ينظر : محمد ناصر بوحمام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، (1925 - 1976)، ج2، ط1، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر 1992، ص 378 وما بعدها.

أو تضمين، وأخرى تكون على شكل استيحاء للجو العام لهذه القصيدة، أو في المعنى والمبنى، وأحيانا أخرى تأتي الصورة الشعرية عنده، على شكل إشارة إلى صورة شعرية في بيت ذاعت شهرتها، وكثرت ديدها على الألسنة.

وحين نبحت عن الصورة الشعرية الحسية في زاوية الاتجاه التقليدي، عند مفدي زكريا نجدها قد تقشبت لباس الحزن والمعاناة والغربة، وهو يستحضر لآهاته وآلامه العديدة، من معين التراث الشعري العربي، الظاهرة المناسبة المؤثرة والمعبرة عن هذه الأوجاع، فيأتي - مثلا - أبي تمام عند قصيدته المشهورة "فتح عمورية"* فيعمد إلى نسج صورته الشعرية، وفق ظلالها ومعانها، وأبعادها النفسية فتكون قصيدته الخرساء "وتعطلت لغة الكلام"....

والذي يهمنا في هذه القصيدة بالخصوص أن مفدي زكريا، قد أتى بما قصده أبو تمام* قي افتتاحيته المعروفة⁽¹⁾.

إذ أنه قدم لنا الظاهرة والفكرة نفسها في الصورة الشعرية عدة مرات، حتى وأن جانبت بعض الشيء من حيث معمارية النص وهندستها اللغوية، فإن الانفعال والإضطراب النفسي يتلاقيان في النص الشعري، ويبرز أن قوة المثير، أما الصورة الفنية فهي في عمومها تكاد تكون هي في مطابقتها للأحداث، ومواكبة للإضطرابات النفسية، وحتى لا نكرر النص الذي قدمناه، عند تعرضنا الى طبيعة اللغة الشعرية، ونكتفي بذكر البيت الشعري الذي قلده فيه مفدي زكريا أبي تمام، حيث يقول :

السيف، أصدق لهجة من أحرف كتبت، فكان بيانه، الإهمام⁽²⁾

كما يوجد في قصائد مفدي زكريا إشارات متطابقة من ناحية الشكل والمضمون والصورة الشعرية، فهذا هو يعمد إلى التعبير عن مكانته الاجتماعية عندما يجد الجدد، فهو يشبه موقف أبي نواس من قومه، مستعيرا أحواله البائسة، وظروفه المعقدة، وما أصابه في سجنه من ويلات العذاب، والاحساس بالغربة المضنية، فيقول :

* مطلع القصيدة قول أبي تمام : السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد و اللعب .

1- الوناس شعبان : تطور الشعر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ت، ص 106.

2- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وتعطلت لغة الكلام)، ص 43 .

سيدكرون، إذا الليل الرهيب سجي وجلجل الخطب، أني في الدجى فلق
حسبي وحسب أناسي، أن غدوت لهم عودا، يعطّوهم، ذكرى وأحترق⁽¹⁾.
فهذه الصورة التي رسمها مفدي زكريا داخل لوحته الشعرية المغترية، تحمل بصمات
إنفعال الشاعر أبي فراس الحمداني في وحدته وغربته، عندما يقول :

سيدكرني قومي إذا جد جدّهم وفي الليلة الظلماء، يفتقد البدر⁽²⁾.

فلاحظ أن الصورة الشعرية التي رسمها مفدي زكريا، هي التي جسمها أبو فراس، بغض
النظر عما تعج به من إشارات ودلالات فنية جديدة، فهو كالبدن الذي يمضي ويتوارى في الليلة
المظلمة، بينما نجد مفدي زكريا يكتفي بتشبيه نفسيته المعذبة، بالعطر المعطر تواضعا، الذي
لا ترتقي أهميته إلى أهمية البدر تقديرا وعرفانا، عند ضياعه وفقدانه.

كما أن عبارة "ذكرى وأحترق" عند مفدي زكريا تفيدنا بالحالة النفسية الحزينة الغريبة
التي تحترق من أجل مبادئ مقدسة لا تمحى مع الأيام، عكس المبالغة اللغوية التي وظفها أبو فراس
في عبارة "يفتقد البدر" ومع ذلك يمكن أن نقول، إن مفدي زكريا في تعبيره هذا يكون قد وقع
تحت تأثير الضرورة الشعرية، حيث عمد إلى هذا التعبير - حتى تستقيم له القافية - فأوصله إندفاعه
هذا إلى أن يكون في خدمة الصورة التي حاول الشاعر نسجها على غرار صورة أبي فراس الحمداني،
وبالتالي يمكن القول أن مفدي زكريا شاعر تقليدي توفرت لديه المقدرة على الجمع والتنسيق لفن
الأولين الذي لا تخلو منه قصيدة في قصائده العديدة، حيث حملت أشعاره بعض مصطلحات فنية
للمعجم الرومانسي الذي كان ممزوجا بغربة وحسرة الشاعر، كما أن الصورة الشعرية عنده " ظلت
تعتمد على الاقتباس والنقل للأشياء، ثم أنما في الأساس صور تقليدية جاهزة استوحاها مفدي

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (زنزانة العذاب رقم 73)، ص 29 .

2- أبو فراس الحمداني : الديوان، دار صادر، بيروت، ب ت ، ص15.

من النمط القديم الذي ظل مخزوناً في ذاكرته، وهي في عمومها لا توحى إلا بمعان مكرورة مجتهداً الأذواق⁽¹⁾

أما الصورة الشعرية عنده في الاتجاه الوجداني، فهي تأتي في قصائده عادة وليدة الشعور الذاتي المضطرب، وهذا بإعتبار أن موطنها بواعث الانفعال، التي تعد مصدر التجربة الشعرية، كما أن للعاطفة دور أساسي في خصوصيات ومميزات هذه الصورة، لكون العاطفة طاقة شحن وإمداد للعمل اللغوي والتصويري والموسيقي عند الشاعر الرومانسي بكل ما يجعل صورته الشعرية الملتحمة مع انفعالاته النفسية تتسم بالصدق الفني والحيوية لأن العاطفة جزء لا يتجزأ من شخصيته وشعوره وتفكيره⁽²⁾.

ويعتبر مفدي زكريا من عداد الشعراء الجزائريين القلائل الذين نجحوا في نقل معاناتهم وتجربتهم الذاتية إلينا بذكاء حاد وعبقورية منقطعة النظير، رغم الظروف الصعبة، وما تعرضوا له من بطش داخل غياهب السجون، وبعيدا عن الوطن في ديار الغربة، فقد استطاع مفدي زكريا أن ينقل إلينا بعض الصور الرهيبة التي سلطها عليه الزبانية، ثم صور في غربته الإنفرادية داخل زنزانة العذاب رقم 73 تصويراً أنموذجياً لحالته النفسية الحزينة المشحونة بانفعالات الغربة والإشتياق إلى ديار الأحبة، إذ مزج في قصيده ألواناً عديدة لظواهر مركبة بناها الانفعال، وحققتهما النفس المتألمة البائسة، فجاءت مملوءة " بالحنين والشكوى، بالتذكير وبالتطلع، والعاطفة الوطنية وبالعاطفة الذاتية"⁽³⁾.

لذا يعمد - مضطراً - إلى توظيف تشبيهات حسية متتالية في صورته الشعرية، فنجد في غربته داخل السجن، إذ يعمد إلى ما يسمى بالحال في الشعر العربي، فحاله كحال الليل، وحب سلوى مثل حب الله، وأنفاسها كالصهباء، ويكتفي في مثل هذه الصور بالربط بينه وبين من يماثله ربطاً موجزاً سريعاً، لأن هدفه الإيقاع القوي، كهذه الظاهرة المغترية التي خاطب فيها حبيبته معذبا وحيدا من وراء القضبان، فيقول :

1- أعزوز شعيب : الاتجاه القومي في الشعر المغربي الحديث، جامعة محمد الخامس، الرباط، ط1، 1988-1989، ص288 .

2- محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث، ص499 .

3- المرجع نفسه : ص ص 22-25

سلوى، حديثك يا سلوى، يياغمي والطرف يختان، لا يدري به الحدق
أنفاسك الطهر، كالصهباء تغمري دفئا، ويسكرني من فرعك العرق⁽¹⁾.

فهذه الصورة الشعرية التقليدية، القائمة على تماسك علاقات حسية مثل الرشف والثرغ والعرق والأرق، إنما هي صور شعرية منقولة بدقة عن مناظر سلوكية مبنية على رؤية الأحداث في علاقاتها بالأشياء، وهي تعمل على إيضاح مركبات الفكرة، أو الصورة وبيائها، ونمذجيتها، وغاية الظاهرة المعذبة المغتربة، هي نقل نفس المشاعر والانفعالات عند تقاربها وتشابها و توافقها وتلاقيها فيقول محترقا غربة واشتياقا إلى أهله :

سلوى! أناديك سلوى! هل تجاوبني سلوى؟؟ فإن لسانى باسمها ذلق
سلوى! أناديك سلوى! مثلهم خطأ لو أنهم أنصفوا، كان اسمك الرmq
هل تذكرين، إذا ما الحظ حالفنا إليك أهتف يا سلوى، فنتفق؟
أم تذكرين، ولحن الموج يطربنا إذ نفرش الرمل في الشاطئ و نعتق؟
أنفاسك الطهر، كالصهباء تغمري دفئا، ويسكرني من فرعك العرق
سمراء! خذرها الباري، وصورها إن ارتشف ثغرها، يفتك بي الأرق⁽²⁾

بين سطور هذه المقطوعة المشحونة بالأرق والغربة والشوق القاتل، إنها أبيات نارية، لا تترع الإنتباه، والاعجاب والاشفاق فحسب، وإنما تترع برؤيتها الفنية التي تستخدم هذه اللغة الشعرية، الصور الراحائية العفوية المتأثرة إلى حد بعيد بعوالم الرومانسيين⁽³⁾.

أما إذا أردنا تتبع، الأبيات الشعرية وما تحمله من صور وظواهر، نثرت داخل الأبيات الشعرية، فإننا نصادف أحاسيساً، ومناظرا للظواهر الطبيعية، وصورة وصوت " أبو القاسم الشابي" تتناثر هنا وهناك بين أبيات القصيدة، وتنساب زفراته الحزينة تحمل الكلمات بعيدا إلى أعناق السماء

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (زنانة العذاب رقم 73)، ص 25

2 - المصدر نفسه : ص ص 22-25

3- محمد ناصر : مفدي زكريا شاعر النضال و الثورة، ص 126 .

" وكأها تتصاعد لاهثة من أعماق "بربروس" أو ساحات الإعدام ولكنها تنطلق من الأودية والسهول الخضراء، ومزمار الراعي، لا من سلاسل السجن، وصرخة الشهيد، فالصباح الجديد، والثغر الباسم، والملاك والطفل، والخلخل المزغردة، والأناشيد المهددة والفضاء البعيد والفجر والغسق، والانسحاب في ملكوت الله، أليست أقرب إلى الأودية والهضاب منها إلى زنزانة العذاب؟ أليست أصدق على الشاعر التائه على الشاعر السجين ⁽¹⁾..... في عرف الرومانسيين؟ وفي انفعالاتهم الروحية و الفكرية؟.

ومفدي زكريا عندما يميل إلى إبراز الصورة الشعرية ويفضلها، إنما يعتمد إلى ذلك لكي " يوفر للنص الشعري عنده إيقاعاً قوياً، فهذه خصيصة من خصائص مفدي يلجأ إليها في الحزن والغربة وفي الضعف والقوة والفرح، وهي لا شك بلاغة موروثة، كما أنها تعبر إلى حد ما عن تلاقي غربته وغربة غيره ممن أخذ عنهم الصورة أو الفكرة، بالرغم أنها لا تضيف كثيراً للتعبير الشعري في مثل المواقف الذاتية التي تتحاشى البلاغة البهرج والتلاعب بفن القول، فهذان العيبان يلحقان الأذى بالحقيقة الطبيعية الداخلية، ويعدان الفن عن طابع العفوية" ⁽²⁾.

التي تصادف المرء في مثل وحدته القاسية والطويلة، كما أنها تتصف بالتكامل لما تحمله من ظواهر عديدة، رغم قلتها في التركيز على أصول الظاهرة المسببة للانفعال الحقيقي، كما أنها في الأساس صورة شعرية تعود إلى خلفية ثقافية وبلاغية تقليدية جاهزة، في فهم الصورة الشعرية التي تفيض على نسيج القصيدة، ظلت مخزونة في بواطن وعوالم ذاكرته.

ثالثاً : الموسيقى الشعرية طبيعتها و شكلها

لقد اهتمت الإنسان البدائي إلى الموسيقى، وهو في حركته محاكياً للظواهر الطبيعية المختلفة والمشكلة بمظاهرها وصورها العديدة، عن طريق الأنغام والأصوات التي أفرزتها الذبذبات داخل محيط الأرض، الذي يعيش فيه الكائن، والذي يسمى عند البعض بالحيز أو المكان، هذه

1- صالح خـرفي : الشعر الجزائري ، ص 237.

2- عبد الفتاح صالح نافع : عضوية الموسيقى في النص الشعري، مكتبة المنار، ط1، الأردن، 1985، ص 35.

الذبذبات المجتمعة والمركزة، والتي تحدث ضرباتها المتصادمة في الكون، أصواتاً وأنغاماً، تدغدغ المشاعر الانسانية، وتبعث الحبور في المحيط الكوني وترسل ايقاعات عديدة، وألحانا عذبة تدفع إلى الانفعال واهتزاز أوتار القلوب، ولعل السر في أننا نستجيب حركيا وإنفعاليا للموسيقى استجابة تكاد تكون فطرية غريزية، أن النفس الانسانية ليست في حقيقة الأمر، إلا جزءاً صغيراً، وذبذبة من مركبات هذا الكون الفسيح، الذي تشمله حركة منتظمة موقعة⁽¹⁾.

وهناك دلائل دامغة وشواهد قاطعة، دالة على أن الكون وما يجري بداخله من أجرام مركبة ساجدة في فضائه الرحب، قائم على نظام محكم وإيقاع موسيقي دقيق، لقوله سبحانه وتعالى : "وَأَيَّةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ، وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ، لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ، وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ" (يس الآيات 37-40)

وعندما كان الفلك يدور في حركة دقيقة منتظمة موقعة، فإن أجسادنا أيضا تشابه وتناظر هذه الأفلاك السيارة، فهي عبارة عن نبض وحركة وإيقاع مستديم، وما ضربات القلب عند الكائن الحي، وما خلجات الروح عنده، وما حركة اليدين والرجلين، وما غمض العين وانتباهها، وما يقظة الانسان ونومه إلا نوع من الموسيقى الموقعة، كذلك التي نشاهدها في دوران الفلك، وانتظام الفصول واختلاف الليل والنهار⁽²⁾.

إن المراد من وراء هذا "التمهيد" والتوطئة، هو أن ظاهرة الموسيقى، تعد لغة فعالة، نفثت في عوالم الكون، لأن تكون مساكنها الأصلية القلوب، واستقرارها الكامل أعماق الوجدان. كما يراد من ورائها - أيضا - إدراك هذه الأجراس والنغمات التي تأتي على درجات من القوة والشدة، أو الضعف واللين، أو السرعة والبطء، إدراكا واعيا وفهما دقيقا سليما، وما يترتب عن ذلك من الصفات التي تصحبها آثار وجدانية وألوان عاطفية، من نشاط أو فتور، وحزن أو سرور،

1 - محمد زكي العشماوي : الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1974، ص185.

2 - المرجع نفسه : ص185.

وثبات أو اضطراب، إلى غير ذلك من ألوان وأنواع اليقظة النفسية التي تجيء عن طريق حاسة السمع والحواس الأخرى التي تتصل بها وتتأثر بمؤثراتها وتدور في فلكها"⁽¹⁾. وكل هذه الصفات المجتمعة تؤول بالموسيقى إلى التأثير التلقائي في مركبات الجهاز العصبي، لما هنالك من علاقة وثيقة بين الأصوات وتأثير الأعصاب، "فيتحول ما ينبعث من النغم، من رنات إلى مؤثرات في الأوتار العصبية للإنسان، فتسري فيها الإهتزازات و تصل إلى مركز الحي، فتوقظ العواطف وتثير الكامن من ضروب الإنفعال، وتبعث في النفس إطارا تبدو فيه مظاهر مختلفة من المعاني و شتى التصورات"⁽²⁾.

1 - الموسيقى الشعرية :

بمرور الزمن وتقدم الأحوال والأحداث، أصبحت الموسيقى الشعرية عنصرا إلزاميا هاماً من عناصره الأساسية، وأداة من أعظم الأدوات التي ينشئ على دعائمها الشاعر هندسة بناء قصائده، ثم هي من ناحية أخرى، تمثل المعيار الحقيقي من المعايير التي " تميز الشعر عن النثر وإن لم تكن هي المعيار الوحيد بينهما"⁽³⁾.

والموسيقى الشعرية التي نود الوقوف عند مظاهرها الإغترابية الحزينة، هي هذه الموسيقى الشعرية التي تبعث فينا عند سماعها " ميلا غريزيا في كل كلمة من عدة مقاطع تشبه الفقرات القصار أو تسمعها الأذن فتلتقطها كتلا من المقاطع تطول أو تقصر، فإذا ترددت في آواخر هذه الكتل الصوتية مقاطع بعينها شعرنا بسهولة ترديدها، وأحسسنا بغبطة وسرور، حين سماعها، و بعث هذا فينا الرضا والاطمئنان إليها"⁽⁴⁾.

عند هذا ندرك أن الموسيقى في الشعر لها مكانة هامة وأكثر من ضرورة، لأنها ليست زخرفة خارجية تضاف إليه، بل هي وسيلة من أبرز وسائل الإيحاء وأقدرها على التعبير عن كل ما هو عميق وخفي في عالم النفس وفي أغوارها، مما لا يكون في وسع ومقدرة الكلام التعبير والإفصاح

1 - عبد الحميد حسين : الأصول الفنية للأدب، مكتبة الانجلو-مصرية، القاهرة، ط2، 1964، ص23 و ما بعدها .

2 - المرجع نفسه : ص23 و ما بعدها.

3 - علي عشري زايد : عن بناء القصيدة العربية الحديثة، دار الفصحى للطباعة و النشر، القاهرة، 1978، ص162.

4 - إبراهيم أنيس : (موسيقى الشعر)، مكتبة الانجلو-مصرية ، ط5، القاهرة، 1981، ص11.

عنه، ولهذا فهي من أقوى وسائل الإيحاء تأثيراً وسلطاناً على النفس وأعماقها تأثيراً فيها، بل هي من بنية الشعر لدى أية أمة من الأمم⁽¹⁾.

أما الشعر العربي القديم، فقد نشأ نشأة غنائية موسيقية، أخذت من الظواهر الطبيعية والظواهر الحيوانية، خاصة الإبل، وعلى نماذجه الشعرية الغنائية التليدة، أسس العروضيون قوانين أوزانهم، وبذلك تعزز شأن الموسيقى الشعرية، وازدادت القيمة الفنية المعقودة عليها "لأنها تحينا بالكلمة، وتقرب الألفاظ إلى نفوسنا وترسخ الأبيات في أذهاننا، فنطرب لسماعها، ونشوق إلى تكرارها دائماً... ولا ريب أن الموسيقى في الشعر هي التي تميزه عن النثر.. وحين نقول ذلك فلا نعني أبداً أن النثر لا يحتوي على موسيقى، فإن فيه موسيقى ونغماً، ولكن موسيقاه تتبع خطأ مستقيماً، بينما موسيقى الشعر تكرر في حركة دائرية حول نفسها، لأنها تقوم على وزن معين يتكرر طيلة القصيدة"⁽²⁾.

2 - التشكيل الموسيقي :

يمثل التشكيل الموسيقي، باعتباره، الحركة الإيقاعية في موسيقى الشعر، أهم عنصر من مقومات القصيدة الغائية العربية على الإطلاق " لأنه مأخوذ من البيئة، فإنه إلى جانب إلحاح النقاد على هذا العنصر في كل عملية إبداعية، فإن إهتمام الشعراء به يفوق جل إهتمامهم بإعتبار أن الموسيقى هي أهم فارق بين الشعر والنثر"⁽³⁾.

وإذا تصفحنا الأعمال والدراسات النقدية الحديثة، نلاحظ أن معظم النقاد إن لم نقل جلهم في العادة يطرقون " موسيقى القصيدة من باين مختلفين، وعلى مستويين متباينين هما : مستوى الموسيقى الداخلية، ومستوى الموسيقى الخارجية، وإذا كان إجماع النقاد واقعا على أن الموسيقى الداخلية تتأني من عنصرين، هما الوزن والقافية، فإن الخلاف بينهم ظل قائماً حول تحديد

1 - علي عشري زايد : عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص 162 و ما بعدها.

2 - عبد الحميد جيدة : الإتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، بيروت، 1980، ص 352 .

3 - الشريف الربيعي : عبد الكريم العقون شاعراً، رسالة ماجستير، "مرفونة"، معهد الآداب و اللغة العربية ، جامعة الجزائر، 1988-1989، ص 159 .

ماهي الموسيقى الداخلية والعناصر المكونة لها، وهل هي ناتجة عن تقارب الحروف وتجانسها داخل اللفظة الواحدة، أم عن تآلف الألفاظ داخل العبارة الشعرية، أم هناك شيئا آخر يولد النغم الموسيقي ويعطي جرسا معينا للجملة الشعرية؟ ولكل رأي وحجته التي يدافع بها عما يراه هو عين الصواب⁽¹⁾. وعلى أي حال، ومهما تباعدت الأفكار، وتباينت الآراء، وتكاثر البراهين وصطعت الحجج، وتعدت واختلفت النظريات حول هذا الأمر أو الموضوع، واحتدى "الصراع الفكري والنقدي، فإن النتيجة المقبولة والمرجحة، ترى أن الموسيقى الداخلية هي أفضل وخير معبر عن التجربة الشعورية وأن الأخيرة لا تدرس إلا على أساس الموسيقى الداخلية للشعر، لأنها هي التعبير الموسيقي الداخلي الوحيد عن عواطف الشاعر، ومعاناته وتجاربه الشعورية والإنفعالية، كما أن الموسيقى الداخلية للقصيدة لا تدرك إلا بقراءة الشعر بصوت مسموع، وتختفي عند الإنتهاء من القصيدة، ولا تستعاد إلا بإعادة القراءة مرة أخرى"⁽²⁾.

ونخلص إلى أن النغم الذي يوحد بين الألفاظ والصورة، وبين أثر وقع الكلام والحالة الإنفعالية للشاعر، إنما "متزاوجة تامة بين المعنى والشكل، وبين الشاعر والمتلقي. وهي في آخر الأمر تعبير عن الانفعال الداخلي كما توقعه نفس الشاعر، فتتردد نغماتها في أعماقه"⁽³⁾ والمتتبع لشعر مفدي زكريا، يلحظ أن شعر الغربة عنده، في معظمه إستمرار وإمتداد للشعر العربي القديم، والذي يهمننا في هذا الغرض هو الوقوف عند طبيعة الموسيقى الشعرية في قصائد الغربة والمعاناة.

3 - موسيقى الشعر في إطارها التقليدي عند مفدي زكريا:

الدارس الحويط، المهتم بموسيقى الشعر عند مفدي زكريا، في إطارها التقليدي يلحظ أن نظرتة الموروثة المحافظة، بقيت مرتبطة، بنظرة النقد العربي، الذي يعطي أهمية وأولوية، بارزة إلى جانب الموسيقى في العامل الشعري، كما ظلت نظرتة إلى الابداع الشعري تقاس بالمعيار التقليدي،

1- إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر، ص 14 .

2- أحمد ناصف الجباني : موسيقى الشعر ، مجلة الأقلام، ج 4 ، السنة 1 أكتوبر 1964 ، ص.125

3- عبد الحميد جيدة : الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، ص 354

الذي يفهم الشعر، ويعرفه على أنه " قول موزون مقفى يدل على معنى، مع مراعاته لعناصره الأربعة⁽¹⁾ : اللفظ والمعنى والوزن والقافية والتي تمثل الموسيقى عنصرين منهما، هما الوزن والقافية هذه الظاهر، ليست عند مفدي زكريا فقط، بل تكاد تكون ظاهرة عامة عند الشعراء الجزائريين التقليديين، والسّر في إعتمادهم الواسع على الإطار القديم " يكمن في أسباب منها فكرة النموذج القديم : فقد عدت هذه القصائد عندهم نماذج فكرية وروحية وفنية، يجب الإحتذاء بها والاعتناء بأصولها وقواعدها، فلم ينظروا إلى التراث نظرة نقدية بقدر ما نظروا إليه في تقديس وإنبهار، فلم يتخلصوا من تأثيره فيهم، ذلك أن نماذجه سيطرت على أذهانهم وعلى ما أنشأوا من قصائد، وغاية الأمر أنهم طوعوا هذه النماذج لأغراض تتفق وظروفهم ومشاكل بيئتهم⁽²⁾.

وقد يعود اعتمادهم على النموذج الموروث، إلى الحالة الشعورية التي يعانوها حين تضمن عليهم بالوقت الكافي لاختيار نموذج مبتكر جديد فيه جهد و عناء، فكان همهم الوحيد صب تلك الشحنات العاطفية التي تبدو في حالة قلق و حيرة، أو مرح وحنين.

كما اشتد حرصهم - على غرار اهتمامهم بالوزن ودعوتهم إلى العناية المفرطة به - على العناية والاهتمام بموضوع القافية " لأنها عنصر بارز في موسيقى الشعر، وقد ألحوا كثيرا على سلامتها، واعتبروا إطرادها عنصرا هاما من عناصر النجاح، وانكروا تعددها في القصيدة الواحدة، ولو طالت، وأعدوا عيوبها أثرا من آثار الضعف في الشاعرية⁽³⁾.

وما يؤكد تمسك مفدي زكريا بالموسيقى الشعرية الموروثة، هو اعتبارها قلبا صارما بالغ الأهمية والاحكام والدقة، لا ينبغي تجاوزه، لأن هناك مجموعة من القواعد والالتزامات المطلوبة اللازمة التي يبنى على دعائمها الشكل الموسيقي للقصيدة المنشودة عنده، وإذا كان الإحساس بموسيقى الشعر يولد من إدراك الانسجام الناشئ من تردد ظاهرة صوتية معينة وتكرارها على نمط خاص،⁽⁴⁾ فإن الشكل الموسيقي الموروث، نجده في مختلف قصائد مفدي زكريا خاصة وشعراء

1- علي عشري زايد : عن بناء القصيدة العربية الحديثة، ص16

2- المرجع نفسه : ص 165

3- عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ص633

4- محمد مصايف : النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ص68.

الجزائر عامة، قد التزم بمجموعة التكرارات، لا تخرج عن الإلتزامات الأربعة :

1- تكرار وحدة صوتية معينة هي " وحدة الإيقاع " التي تتألف مما عرف في العروض العربي بإسم " التفاعيل"، وتتألف التفعيلة من توالي مجموعة من السواكن والحركات عن نحو معين، وقد تكون وحدة الإيقاع تفعيلة واحدة وقد تتركب من أكثر من تفعيلة، ومن تكرار هذه الوحدة يتولد الإيقاع الموسيقي الأساسي في القصيدة.

وعند الضرورة الشعرية يسمح عند تكرار هذه الوحدة بتنوع محدود ومحكم ينظمه ما عرف في العروض بإسم " الزحاف والعلل"، هذا التنوع المسموح به لا يترتب عليه تغيير جوهري في بنية وحدة الإيقاع.

2- تكرار عدد معين من وحدات الإيقاع يؤلف بدوره وحدة موسيقية جديدة مركبة هي "البيت" الذي يتشكل من عدد محدد من "التفاعيل" أو وحدات الإيقاع، لا بد من إلتزامه في كل بيت على امتداد القصيدة.

3- تكرار صوت معين أو مجموعة من الأصوات- الساكنة و المتحركة- في نهاية كل بيت، بحيث يلتزم هذا الصوت بعينه- أو هذه الأصوات بعينها- في أبيات القصيدة كلها، وهذه هي "القافية".

4- تكرار ثانوي ليس في أهمية الأنواع السابقة، وصرامتها، وهو إلتزام بتكرار صيغة محددة من صيغ التفعيلة الأخيرة في البيت - وقد سماها العروضيون "الضرب" فإذا جاءت

هذه التفعيلة في البيت الأول على صيغة معينة- سواء أكانت صحيحة أو معتلة- وجب أن تلتزم هذه الصيغة بعينها طوال القصيدة، بخلاف الزحافات التي تعرض لصيغ التفعيلة في حشو البيت فإنها لا تلتزم⁽¹⁾.

وفي حقيقة الأمر، أن اهتمام مفدي زكريا في الاطار التقليدي، بالجانب الموسيقي في شعره، لم يتوقف أو يقتصر على الموسيقى الخارجية للقصيدة، بالمحافظة على الإيقاع المتكرر حسب الأنماط السالفة الذكر، التي عرفها شعرنا العربي القديم، في كل بيت من أبيات القصيدة،

1- محمد مصايف : النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ص ص 166- 167 .

ايقاعا ووزنا وقافية ورويا، انما تجاوزت عنده الى مراعاة التركيب اللغوي للقصيدة - التفاعيل، التكرار التوازي، التنويع، اللازمة..... - أو ما يسمى بالموسيقى الداخلية - سواء تعلق الايقاع بالظلال النغمية الدلالية بمفرده، أم بموضعه في سياق الجملة والمقطع، أم قيامه في النص بأكمله⁽¹⁾. بناء على هذا التقييم والتقديم، سنخرج إلى دراسة بعض الشواهد الشعرية، المتأثرة بالنموذج التقليدي في البنية الايقاعية عند مفدي زكريا، في ممرات حياته المأساوية الطويلة.

رابعا : الموسيقى الشعرية وأثرها التقليدي عند مفدي زكريا

الموسيقى، ظاهرة عجيبة وفريدة في دنيا الناس، فهي مزيلة الأتعب، ومهونة الملل من أعماق الذات المنكسرة، وهي التي تثبت في بواطن النفس الروح والحياة المرحية التي يستوي عليها الشجون والحبور. لذا أحبها الإنسان منذ الوهلة الأولى، وعرفها في معجمه اللغوي على أنها " مجموعة من الأصوات التي يتألف من ضرباتها الموقعة نغم يلمس المشاعر، ومن إيقاعها لحن يهز أوتار القلوب"⁽²⁾. فجاءت الموسيقى ظاهرة فريدة، ميزت الشعر عن غيره من الفنون العديدة من الأجناس الأدبية، بصفة البقاء والتغرد والديمومة والخلود، لما تحمله - أيضا - في أصولها من صدق الانفعال وعمق التجربة الإنسانية، تجاه الظاهرة وأنواعها - المنعكسة في أعماق الذات المتأثرة، كما يرى مفدي زكريا " إذا ما خلا الشعر من الموسيقى المتجاوبة مع دقات القلب، فقد خلا من عنصر الخلود"⁽³⁾، لذا إهتم النقاد بالموسيقى الشعرية، وكانت (القافية) أكبر شغلهم في الكثير من دراساتهم، حيث اعتبروها عنصر بقاء الشعر وخلوده : كما يرى (ابن قنبر) عندما تناولها بالدراسة فقال : " الشعر لا يبدي على مر الزمان، وجرسه بالوزن والقوافي، وحسن النظم، وجودة التعبير من التدليس والتغيير. فمن أراد أن يحدث فيه شيئا عسر ذلك عليه"⁽⁴⁾، هذا الاهتمام بالقافية في الشعر، مرده إلى وجود ترابط قوي بين تناغم الأثر الانفعالي عند الكائن الانساني، وبين الايقاع الموسيقي.

1- محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث، ص194، ينظر أيضا : إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر، ص207

2- محمد زكي العشماوي : الأدب وقيم الحياة المعاصرة، ص 434

3- جريدة الجمهورية الجزائرية : (شاعر الثورة أمام الجمهور) 1984/11/5

4- ابن قنبر : تأويل مشاكل القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، 1954، ص142.

1 - التنويع في القافية :

الانفعالات والاضطرابات التي تعكس محتوى الحدث، عبارة عن مصادر تنويع القافية في بعض قصائد مفدي زكريا، فهي تبرز كثرة الظواهر الأليمة التي تنعكس من عالمه الباطني، جراء ما ترسب فيها من سلوكات مأساوية تناثرت في مجال المحيط الذي يتلقاه ويتفاعل فيه ومعه، من ذلك قصيدته الشهيرة التي رصد فيها مأساة شعب بكامله، إثر اعدام المحتل الفرنسي على تجربتها الذرية في الصحراء الجزائرية سنة 1956، فجاءت قصيدته تحمل ألوان المعاناة، وأبياتها تتضمن مشاهد رهيبة أحدثتها القنبلة في المحيط الطبيعي وشكل الإنسان معاً، حيث كانت الصور البشعة التشويهية، التي لحقت بأطفال الجزائر، وكيف رسمتهم في أشكال غريبة تتنافى وصور الخالق في خلقه .. فأدماه المنظر، فصاح ألماً وحزناً وثورة على الفاعل الظالم، وإغتراباً لفعل الإنسان الذي يدعي المدنية والتحضر، في تناقضه وعدم احترامه لغيره من البشر، ومتسائلاً في حزن بليغ عن ذنب هؤلاء الأطفال الأبرياء، فيقول :

ما دهاه؟ ويل أمه مدهاه؟؟ ويلتاه، من جيله ويلتاه !!
ما له في الحياة، يولد أعمى ؟ لم تر الكون، باسم مقلتهاه ؟
ما له مقعداً، يدحرج رجليه هـ؟ .. وماذا جنى، فشلت يدهاه؟
ما له، لم تزل تهد هذه الأ... م، ولم تستمع لها، أذناه؟
ما له أخرسا، تناجيه في المهـ د، ولم تبسم لها، شفتاه؟
ولماذا لم يبك، بين ذراعيـ هـ دلالاً... ولم يقل : أماه؟
آلهذا الوجود، جاء وحيداً؟ أم له من زمانه أشباه؟
ويلتاه من جيله ويلتاه! (1)

هذه الصور المرعبة، ضمنها (حرف الهاء) وأعطاه أبلغ الأثر عند السامع، فهو يحمل حالة الاضطراب النفسي الحاد، من تأوه وأنين وجراح، كما أنه حرف جر في، ضمنه الشاعر حرقة،

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وليد القنبلة الذرية!)، قيلت بمناسبة تفجير فرنسا لقنبلتها الذرية في الصحراء الجزائرية، صبيحة يوم السبت 13 فيفري 1960، ص ص 161-162.

وصورا ترفضها الأخلاق والأعراف الإنسانية قاطبة، ثم يربط هذا المشهد الرهيب، بمشهد ثان، جعل قافيته حرف (الألف) للاستغاثة والنداء، وحمله حرف (العين) الحلقي روياء، دلالة على مرارة الموقف ومأساة الحدث، وحتى تتناغم وتتداخل الأجراس الموسيقية المؤثرة، فتتضح أكثر صور المشهد المرعب الغريب.

فيتعجب من قدر هذا الطفل، ويتقطع حزنا لما آل إليه شكله وحاله ومصيره المجهول، فيقول :

ت، فلم يقض في الحياة ربيعا	قذفته إلى الحياة، يد المو
ب، فرنسا... فجاء شكلا مريعا	وسقته السموم، في عالم الغيـ
ر على مذبح الطغاة صريعا	إبن إفريقيا الشهيد، وقد خـ
نا، فرنسا، فحطمته رضيعا	تخذت منه " للتجارب" قربا
رى : وجرت له للخراب سريعا ⁽¹⁾	شوهت خلقه، جريمتها الكبـ

مشاهد مرعبة حملتها أبيات القصيدة وصدى حرف العين أعطاهم جرسا صوتيا مؤثرا أظهر الجدة في الانفعال النفسي، وتنوعه يدل على عظمة الظاهرة، وسخط الشاعر. ويتابع الشاعر انعكاسات المشاهد الرهيبة، حيث يقدم لنا في المشهد الثالث الصور المأساوية التي تركتها آثار، وإفرازات القنبلة الذرية، على أجسام أطفال الجزائر، فكان حرف (الراء) الروي، معبرا عن قوة الانفعال اتجاه المصاب الجلل، وتأكيده على عمق الأثر النفسي الدرامي، فيقول :

ي، فيرجى ... ولم يمت فيواري	شبح كالخيال، لم يك بالحـ
بين قوم، معذنين حيارى	عاش حيران، في عذاب وبؤس
يائسا، لا يغالب الأقدارا	ظل يسعى، إلى الفناء رويدا
قم ذراته هباء، فطارا	طحن الداء جسمه، وأحال السـ*
كالصواريخ، نعمة وانفجارا ⁽²⁾	نبئت من فطامه، لعنات

1 - مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وليد القنبلة الذرية!)، ص 162

2 - المصدر نفسه : ص 162

ثم ينهي الشاعر المشاهد المأساوية، دون أن ينتهي من المعاناة، فنجد أنه قد قيد القافية حفاظاً على الظواهر والمشاد الرهيبة، وجعل رؤيتها ساكنة، ليظهر حالة الرفض والتدمير وعدم الحيلة، أمام هذه المنعكسات المأساوية الفريدة في دنيا الناس، فيقول :

شعب إفريقيا، أحاط به المكـ	مر فأمسى للمجرمين، ضحية
ورمته عبر القرون، فرنسا	طعنة للقنابل الذرية
وسرى الموت فيه، جيلا فجيلا	يوم هزت شعوية الحيوية
وسيحكى هذا الزمان، ويروي	للبرايا، فضائح، المدينية ⁽¹⁾

إن هذا التنويع في بعض قصائد مفدي زكريا، مرده الحالة النفسية المغترية، التي تصاحبه باستمرار، وانعكاساتها تجاه الحياة، وشكل من أشكال الإبتعاد عن الرتبة التي تصاحب القصيدة الموحدة للقافية المعتادة فالحالة النفسية المنفعلة، تصور رسوم المشاهد المروعة، وتظهر الانفعال الكبير لدى الشاعر، ودقة في اختيار الحروف المناسبة والمؤدية لتيار الإضطراب القوي في أعماق الذات المتأثرة، مما يجعل المتبع لظواهره المأسوية " يتمهل في قراءة كلماتها تمهلا شديدا يكاد يقف عند كل كلمة، بل عند كل حرف من حروفها وحركة من حركاتها " ⁽²⁾ المثيرة التي تنقل جزئيات الصور المأساوية للمشاهد المقصود.

2- اختيار الكلمة :

ينتقي مفدي زكريا الكلمة المناسبة والمعبرة عن انعكاس مصادر الإنفعال، حتى تؤدي بأمانة الظاهرة المأساوية بصدق ودقة، فالكلمة الدالة على الحدث تبرز وتوضح صور المعاناة عند الشاعر، في مجال العمل الفني، وتظهر قدراته وزاده اللغوي، وتعرض أمام المتبع دون عناء، سرٌّ تفوقه وصدق اختياره ونعد إدراكه في تعامله مع الظاهرة اللغوية، التي تعطي في النهاية " الانسجام العفوي

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (ولید القنبلة الذرية !)، ص 165

2- إبراهيم عبد الرحمن : الشعر الجاهلي، قضاياها الفنية والموضوعية، القاهرة، مكتبة الشباب، 1979، ص 289

الداخلي الذي ينبع من هذا التوافق الموسيقي بين الكلمات ودلالاتها حيناً أو بين الكلمات بعضها وبعض حيناً آخر⁽¹⁾. فالكلمة عند مفدي زكريا، تحمل بين حروفها الرسالة الصادقة الحقيقية إلى القارئ، لأنها تحقق عن طريق دلالتها الغاية المرجوة، والأمنية المنشودة، وتحدث في انسجام أجراس موسيقى حروفها الأثر النفسي : لذا نجده في قصيدة*، يضمن الكلمة حرف (السين) الذي ينبعث من مصدر الزفير والمواكب للحركة الإنفعالية المؤدية لظاهرة الغربة والحركة ... ويكشف للمتتبع عن نفسية الشاعر المضطربة المتأسية، ويتضح ذلك في اختياره الدقيق للكلمات المناسبة، فيقول :

عادي من ظلال أمسك أمسي	بين ماضي الأسى وأحلام أنسي
وشجاني من ذكرياتك كون	علوى السمات، أرهف حسي
نرجسي الهوى، ندى التصابي	كالأمان الطراب، في ليل عرس
خافق الوجد، في حنايا ضلوعي	خفقان الجوى، بأعطاف قس
فترأت للعين أطياف ماض	لم يكن للجراح - في العمق - ينسي ⁽²⁾

نلاحظ أن الكلمات، أمسك، أنسى، مسى، نرجسي، في ليل عرس، يوم نحسي. قد حفلت بحرف (السين) لتأكيد الحالة النفسية المتألمة، وتخرج من الأعماق الملتهية شظايا الظواهر الراسبة في قاع الذات : وتتأكد هذه الانفعالات الحادة في بعض الألفاظ، مثل، وشجاني من ذكرياتك، أرهف مسى، نرجسي الهوى، خافق الوجد في حنايا ضلوعي، لم يكن للجراح في العمق ينسى، وتبرز قوة مشاعر مفدي زكريا، وكيف أحييت فيه الذكرى، أحداثاً راسبة في ذاته أليمة وقاسية : وبناء على هذا، فإن الكلمة عند مفدي زكريا، تحمل معاناته، لأنها وليدة حالة نفسية مغتربة، إكتنفت الشاعر من خلال ظاهرة مأساوية ما، أو ناجمة من حدث أوقف أليم،

1- إبراهيم عبد الرحمن : الشعر الجاهلي، قضاياها الفنية والموضوعية، ص 263

* قصيدة : ابن زيدون، (بين الحب والعظمة)، نظمها للمهرجان الذي كان سيقام بالجزائر.. 1975/10/15 من طرف وزارة الثقافة، ينظر : ديوان من وحي الأطلس، ص 148

2- مفدي زكريا : من وحي الأطلس، قصيدة : ابن زيدون، (بين الحب والعظمة)، مطبعة الأنباء، المغرب، 1976، ص 148

يبحث من خلاله عن كلمة دقيقة أمنية، لها دلالة معبرة، توافق نظم موسيقى معين وتماشى والموقف، وتدلل على معاناة الشاعر.

إن عناية مفدي زكريا بالكلمة وأبعادها ادلالية غايته المشودة، التوضيح ظاهرة الغربة وصور المأساة التي يعيشها الانسان الجزائري تحت ظلال الحكم الفرنسي، فجاءت هذه الكلمة سلسلة سهلة دقيقة وناصعة، فيها جزالة بيانية، وفخامة تثير بدوي أحرفها المشحونة بالانفعالات النفسية، إيقاعا فريدا يلحم بين التجربة والتعبير.

3- المعارضات :

إن ميل الشعراء منذ القدم الى حب المعاضة، وحب إبراز قدراتهم الشعرية، ومعارضة أعمالهم الفنية غيرهم، ظاهرة انسانية قديمة قدم هذا الفن المؤثر فوق الأرض، ومعارضة القصائد العربية التقليدية شكلا، معارضة سلبية مقيتة حيث " يكرر فيها الشاعر ما قيل، بنفس التعبير والمعنى، أن يمتنع المضمون كما يقال، وحاشا أن يوصف مفدي زكريا بهذه الأوصاف، أو أن يقال عنه بأنه يكرر الأسلاف حتى وإن سار على سننهم وهو المعروف بالتعصب الكبير للقديم⁽¹⁾ ومعارضة إيجابية ذات إضافات عديدة، وشخصية شاعرية واضحة المعالم، إذ يعتمد الشاعر إلى ميادين " جو أو طقس شاعر سابق، من باب الإعجاب، فقد يعجب أحدنا بجرس موسيقى هذا أو ذاك ويحاول أن يقلده في أجوائه العامة التي هي أصلا مشتركة بين الجميع"⁽²⁾ .

إن هذه الظاهرة ذاع عودها في الشعر العربي الموروث بكثرة، ويمكن أن نرجعها إلى عصور الانحطاط خاصة، التي عرف فيها الأدب العربي مثل هذه الظواهر والخصائص، وهي ظاهرة منتقدة في كثير من الأحيان بشدة في الأدب العربي، لما نثر فيها من عيوب وتقليد سليبي، لأن الشاعر الذي يقلد أو يعارض القصيدة الموروثة، يلزم نفسه باتباع المرات الفنية التي كتب على أسسها الشاعر القديم من حيث " البحر والوزن والقافية، كما يصبح مكبلا بنهج الشاعر الذي

1- بلحيا الطاهر : تأملات إلباظة الجزائر لمفدي زكريا، ص 134

2- المرجع نفسه : ص 134

يعارضه حتى في أحاسيسه الخاصة ومشاعره المميزة، فضلا عن أسلوبه في التعبير، وبذلك يصبح مقيدا لا يستطيع أن يرسل نفسه على سجيته، لأنه ملتزم بالإطار الذي يستوحيه ويعارضه⁽¹⁾ ويمكن أن نختز من قصائده، المعارضات التي تمثل ظاهرة الغربة في شعره، والمبرزة للأشكال الموسيقية المناسبة :

أ - الوزن دون القافية :

إن هذا اللون من المعارضات الذي يعتمد على الوزن دون القافية، نجده كظاهرة فنية في شعر مفدي زكريا، مركزا عند قصائده المأساوية والثورية، التي تتخذ ظاهرة الغربة وإبراز ألوان الألم وأصناف العذاب والوحدة داخل السجن، أو بعيدا عن الوطن والأهل، كقصيدته الدامية الحزينة التي تحمل عنوانا كئيبا " زنزانة العذاب " التي يرسل من وراء قضبانها هذه الزفرات الحارة التي ملأت حرقة ووحدة، يقول :

أنام ملء عيوني، غبطة ورضى على صياصيك، لا هم ولا قلق
طوع الكرى، وأناشيدي تهددي وظلمة الليل، تغريني فأنتلق⁽²⁾.

فالشاعر قد أعجب بظاهرة فنية، هي الوزن الذي تضمنه البيت الذي عارض من خلاله أحد أعمدة الشعر العربي أبو الطيب المتنبي عندما قال :

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرّاه و يختصم⁽³⁾.

إن ثبوت ظاهرة المعارضة عند مفدي زكريا، وبروز أثر المتنبي في البيت الشعري واضح المعالم، هذه المعارضة تجسدت في " شيعين أساسيين، في الوزن من البحر البسيط - متفعّلن فعلن مستفعّلن فعلن - ونأكد في الصياغة الرصينة الجزلة التي عمد إليها مفدي زكريا جريا على طريقة المتنبي، وجعلها منهجا له في سجنياته، وغاية، مما أفقدها قدرة التعبير عن حقيقة ما يعانيه من غربته وعزلته بين جدران السجن⁽⁴⁾ . وفق صياغة رصينة جزلة، والتي عمد إليها مفدي زكريا نهجا على سنن المتنبي، وجعلها صراطا يمضي على هداه في كتابة سجنياته.

1 - ب. الصديق : أطلس المعجزات ، (دراسة نقدية) ، المجاهد الثقافي، العدد 17، 1971، ص74

2 - مفدي زكريا : اللهب المقدس ، (زنزانة العذاب رقم 73) ، ص 21.

3 - أبو الطيب المتنبي : الديوان، شرح ناصف اليازجي، دار صادر، بيروت، ب ت، ص 120

4 - عمر بوقرورة : الغربة و الحنين في الشعر العربي الحديث، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1987 ، ص ص 325-326 .

ب - التكرار التقليدي:

تعد ظاهرة التكرار من بين التي تؤدي وظيفة تعبيرية واضحة، فتكرار لفظة أو عبارة ما، بشكل أولى الى سيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه على فكر الشاعر أو شعوره أولاً، ومن هناك لا يفتأ ينبعث في أعماق رؤياه من لحظة لأخرى، وقد عرفت هذه الظاهرة اللغوية الإيحائية المكررة في القصيدة العربية الموروثة، " منذ أمد بعيد، لم تكتمل وتؤد شكلها النهائي الواضح إلا في العصر الحاضر، لأن ظاهرة التكرار في حد ذاتها ليست ظاهرة جمال يضاف إلى القصيدة العربية، بحيث يحس صنعا بمجرد استعماله، وإنما هو كسائر الأساليب يحتاج إلى أن يجيء في مكانه من القصيدة وأن تلمسه يد الشاعر، تلك اللمسة السحرية التي تبعث الحياة في الكلمات لا بل إن في وسعنا أن نذهب أبعد، فنشير الى الطبيعة الخادعة التي يملكها هذا الأسلوب، فهو بسهولة و قدرته على ملء البيت، وإحداث موسيقى ظاهرية فيه، يستطيع أن يضلل الشاعر ويوقعه في مزلق تعبيرى"⁽¹⁾

وظاهرة التكرار في الحقيقة، تهدف إلى اظهار، وإبراز ناحية مميزة هامة في العبارة المكررة، يعني بها الشاعر أكثر عنايته بغيرها، ويمثل هذا الأمر الضابط الأول الممهد البسيط الذي ندركه، كامنا عند كل تكرار يخطر على البال. فالتكرار في الأساس يسلط الضوء على نقطة حساسة في العبارة، ويكشف عن اهتمام المتكلم، هو من جهة أخرى يخضع لحملة من القوانين الخفية التي تتحكم في العبارة، ومن بينها قانون التوازن⁽²⁾ الحاصل في التكرار الذي ينقسم إلى قسمين، أحدهما يوجد في اللفظ والمعنى والآخر يوجد في المعنى دون اللفظ، فأما الذي يوجد في اللفظ والمعنى. فكقولك لمن تستدعيه (أسرع أسرع) وأما الذي يوجد في المعنى دون اللفظ فكقولك (أطعني ولا تعصني) فان الأمر بالطاعة نهي "عن المعصية"⁽³⁾

وظاهرة التكرار في بعض قصائد مفدي زكريا، المبرزة للمعاناة والغربة، هي التي متكأ، والكلمات التي يوظفها عبارة عن مفاتيح لأبواب الانفعال وخروج السنة الهبته الداخلية،

1 - نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر، ط8 ، دار العلم للملايين، بيروت، 1989 ، ص ص 276-277.

2 - ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم و تحقيق و تعليق أحمد الخرف، ي وبدوي طبانة، مكتبة

لهضة مصر بالفجالة، مطبعة الرسالة، القسم الثالث، 1962 ، ص3

3 - عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة في الأدب المعاصر، ص485.

ناحية أخرى، فهو يعتبر هذه الظاهرة ضرورية لما تتضمنه من إيقاعات حركية دافقة داخل أبيات القصيدة، وهو عندما يعمد إلى "توظيف هذا النمط الموسيقي يقصد من ورائه - في العديد من المرات- أن يبرز معاناته وآلامه، ويعمد إلى إثارة الحماسة من نفوس المتقاعسين، وشحنة إضافية في عزيمة وقلوب الثائرين، إذ يستفزههم للمسيرة قدما في دروب الجهاد والنضال والقتال، وبذلك يضحي التكرار في قصائده أشبه بتكرار دق الطبول، وتناغم الصهيل تصايح الرجال وزجرجة الأبيات الحربية، ولا يخفى أن الموسيقى التي تصاحب مثل هذا النوع من الكلام، موسيقى حزينة الطبع"⁽¹⁾

وإذا أردنا أن نقدم حول هذه الظاهرة نماذج من قصائد مفدي زكريا، فإنها منشورة في العديد من أشعاره، وتتخذ أشكالا ملونة بلون المثير وما يقابله من مضمون "ومن هذه المفردات اللغوية التي كرر توظيفها، كلمة "الصياصي" التي تعني لغويا، الحصون المنيعة، ولكنه يتجاوز هذا الاستخدام اللغوي، حين يضعها في سياق ثوري، فتشع بإيحاءات إلى معاني أبعد مما تعنيه دلالتها اللغوية المحددة، وذلك حيث يصف صمود الشعب الجزائري أمام عدة وعتاد الجيوش الاستعمارية.

وزلزل من صياصيها فرنسا... وأوقع في حكومتها انقلابا⁽²⁾

و يقول في قصيدة أخرى مستعملا المفردة نفسها :

و زلزل صياصيها بقوتك تسامت تشق الغيب في سيرها شقا⁽³⁾

"فالصورة الغالبة هنا، الإنتصار للحق في النهاية هي التي يريد الشاعر مفدي زكريا إثباتها في ذهن المتلقي"⁽⁴⁾.

إن اللغة الشعرية عند مفدي زكريا، ذات جرس موسيقي حاد، يظفي على الكلمة مدلولاً سوياً، وهذا عن طريق اختيار الكلمة الدقيقة المناسبة، ثم يعمد إلى إبرازها وعن طريق التكرار الهادف، لإحداث الأثر البليغ لدى المتلقي، وإفضاء تجميع للكلمة وجرس الموسيقى، مما

1- عبد الرحمن حوطش : شعر الثورة في الأدب المعاصر، ص.485

2- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وقال الله ..)، ص 32

3- مفدي زكريا : تحت ظلال الزيتون، ص. 42

4- محمد ناصر : مفدي زكريا شاعر النضال والثورة ، ص 113

يكون جرس موسيقي حركي ذا أبعاد نفسية قوية مؤثرة يقول :

سمت "منستير" فلتسم الأغاريد وتندفق من حناياها الأناشيد
وتبعث البسمة السكرى بزورقها كما تعابث نشوان وعرييد⁽¹⁾

فإظهار حرف " السين" بين الحروف، وتكراره المؤثر والمقصود، غاية مفدي زكريا لتحقيق الانفعال النفسي المرغوب، وتثبيتته في العوالم الباطنية للمتلقي : وإطفاء خط موسيقي مشحون بالحركة المأثرة عن طريق استعمال الكلمات الدقيقة المناسبة.

كما نجد في موطن آخر، يهتم بالظاهرة الحسية، التي توضح بدقة حالة الرعب، وألوان الظلم وآثار الخراب والدمار، التي تحدث في النفوس الملهع، جراء أصوات الصفيح التي تنثره مختلفة أليات الحرب، وتلقي به في الظاهرة الحسية من شظايا وأشلاء يقول :

وسارت سرايا الجولان تلتقي بجولان عزرائيل في ليلة الأسرا
وتسبق إسرافيل ينفخ صوره فتصعق في سينا لرجفته الصحرا⁽²⁾

فقد أعطى مفدي زكريا، لإنفعاليته الحزينة، قوة بيانية، وأبرز للجرس الموسيقي النهج المؤثر وجوداً قوياً داخل الأبيات الشعرية، وأظفى على الكل رونقا أسلوبيا خلاقا، فقد أفلح إلى حد كبير في اختيار الألفاظ المناسبة التي تؤدي الجرس الموسيقي المؤثر لتحقيق الانفعال وإبراز الظاهرة المقصودة والحالة المرجوة.

ومن يعد إلى " إلباذاة الجزائر" ملحمة مفدي زكريا الفريدة من نوعها في دنيا الأدب العربي والجزائري على وجه الخصوص، والتي تتطلب دراسة قائمة بمفردها، لما تتضمنه من تكرار، إذ " ليس من السهل أن تأتي صور (ألف) بيت شعري نسخة واحدة ومشاهد متنوعة، خاصة إذا كانت المشاهد هذه، متنوعة متداخلة والبطولات متعددة، والانسجام بين الأحداث قائم"⁽³⁾....

1- مفدي زكريا : تحت ظلال الزيتون، ص 101

2- المصدر نفسه : من وحي الأطلس، ص 243

3- بلحيا الطاهر : إلباذاة الجزائر لمفدي زكريا، ص 132

خالية من ظاهرة التكرار، لأن الشاعر يصعب عليه السير بتوازن لما ينتابه من مشاعر مختلفة لظواهر عديدة، لكل منها رصيد من الآثار والصور والمعاناة يجانب في كثير من الأحيان هذا السير المنتظم، مما يضطره إلى تكرار بعض الإنفعالات والصور التي ترسبت عنده منذ زمن بعيد، في شجاعة وكبرياء وشموخ "(عبد الرحمان بن زياد) الذي إستشهد واقفا نتيجة معاندة بينه وبين ضابط فرنسي، وأبى أن يركع أمام قدمي الضابط، يتكرر هذا المشهد التاريخي مع جماعة كبيرة من الثوار، بداية من ماسينيسا الى آخر شهيد"(1).

هذه الظاهرة الإنسانية الأبية المملوءة بالعزة والكرامة، مكررة بكثرة في قصائد مفدي زكريا لأنها جزء من شخصيته، وعشق هذه الظاهرة السلوكية التي يدفعها للبروز دائما في حماساته الخالدة، وعن طريق "هذا الباب الخفي، دخل ما أسميه بالتكرار في المشاهد والصور. أما بعض المفردات (البطولة، السيف، الرصاص، الدم، الموت، التقتيل....) وعشرات المفردات الأخرى، نجد بأنها مكررة عشرات المرات، ليس لفقر الشاعر اللغوي أو عجزه في البحث عن ألفاظ أخرى، بل لأنها كلمات مفتاحية لا يستطيع الإستغناء عنها"(2)....

ولو نظرنا الى 'اللازمة' المكررة في "إلياذة الجزائر" على سبيل المثال، بإعتبارها أكثر ظاهرة تكرار عرفت في شعر مفدي زكريا، والتي لازمت الملحمة من البداية الى النهاية، و تكررت مائة مرة في الملحمة الشعرية عند قوله: شغلنا الوري. وملانا الدنا. بشعر نرتله كالصلاة. تساييحه من حنايا الجزائر(3) ...

فهذه اللازمة أفضت على 'إلياذة الجزائر' جدارا حصينا أحاط بالملحمة، وأعطاه ألوان الانفعالات القوية المناسبة، وأعادها كل مرة عند تنقله من ظاهرة إلى أخرى ومن حدث إلى حدث آخر. وحافظ بين جدرانها "الأجواء الحماسية العامة للنص، وكانت 'اللازمة' تلجم الشاعر من حين لآخر على أن لا يترك مجاله، وتبقي على النفس العام لجو البطولة"(4)

1- بلحيا الطاهر : إلياذة الجزائر لمفدي زكريا، ص ص 132-133

2- المرجع نفسه : ص 132.

3- المرجع نفسه : ص 102

4- المرجع نفسه : ص 133

فجاءت هذه الزفرات والإيقاعات الملونة بالظواهر العديدة، التي تحمل قصة شعب ومأساته الطويلة، مجسدة داخل هذه النماذج المكررة الظواهر، المؤثرة في النفس، يعتقد المتسرع من ورائه أنه إيقاع " غير متجدد مظهرًا ولكنه يستبدل نكهته وطعمه الداخل في عمق الحدث كلما تبدل الجو باستلحاق الصور الوريائية الآتية للترميز أو الواقع كما أن...."(1).

إن هذا النسج في ظاهرة التكرار التي أخذها مفدي زكريا عن الشعراء القدماء، وحرصه وإلتزامه الشديد في إظهارها موزعة ومنثورة داخل قصائده، جعل من شعره وثيقة حية يحاكي من خلاله فحول الشعر العربي، في مفرداتهم وتراكيبهم ومعانيهم، وموسيقاهم.

ج- الأوزان والقافية :

لا يختلف القدماء على أن الشعر لا يقوم قائمه سوىًا إلا إذا اعتمد على ركن الموسيقى، لذا نجده عند قدامة بن جعفر " قول موزون مقفى يدل على معنى"(2) .

وينظر إليه عبد الرحمان ابن خلدون من زاوية أنه " الكلام الموزون المقفى..."(3).

ويأخذ أهمية كبيرة عند ابن رشيق القيرواني إذ أن " الوزن أعظم أركان حد الشعر وأولها به خصوصية، وهو مشتمل على القافية و جالب لها ضرورة"(4).

أما القافية، فقد عرفوها على أنها "الحرف الذي يجيء في آخر البيت....."(5).

ولم يتوقف العديد من الدارسين عند هذا الحد، بل نجدهم يؤكدون على " أن المضمون ناتج عن الشكل، وأن الشكل ناتج عن الموسيقى المتكونة في نفس الشاعر قبل البدء بعملية الخلق الشعرية، وأن الشاعر يحاول أن يعطي 'النغم' أو 'الحالة النفسية' التي بدأت تتكون في داخله شكلاً

1- بلحيا الطاهر : الياذة الجزائر لمفدي زكريا، ص133

2- قدامة ابن جعفر : نقد الشعر تحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، بيروت دار الكتب العلمية ب ت، ص64 .

3- ابن خلدون عبد الرحمان : مقدمة ابن خلدون ط2 تحقيق عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي 1967 ج4 ، ص1405 .

4- ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر و ادابه و نقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجبل بيروت ج1 ، ب ت ، ص 134 .

5- الطيب عبد الله : المرشد الى فهم اشعار العرب و صناعتها، ط2 دار الفكر بيروت ج1 1970، ص113.
مناسبا فيبحث في اللغة عن الأصوات التي تتفق مع هذا النغم الأصلي، أو تقترب منه، وترتبط الأصوات بكلمات وتتجمع الكلمات في بواعث أو دوافع... ينتج عنها في نهاية الأمر معنى أو مضمون..."(1).

والوزن والقافية عنصران أساسيان يمثلان بالنسبة للنقد القديم، قوائم الموسيقى الشعرية، ومحورا دراستها السوية.

وهذا الفهم هو الذي ذهب إليه شوقي عندما عرض الموسيقى حيث أشار إلى " أن موسيقى الشعر لم يضبط منها إلا ظاهرها، وهو ما تضبطه قواعد علمي العروض والقوافي..."(2).
ويتضح حرص النقاد على أهمية ضبط وتأکید عنصری الوزن والقافية، حتى يحافظ البيت الشعري على ترابطه مع القصيدة ككل، من حيث تكرارهما من أول بيت في القصيدة إلى آخر بيت فيها وكما أنهما يحافظان على أبيات القصيدة ويضمنان وحدتها وتحديدها.

وعمد النقاد القدماء إلى الربط بين أوزان الشعر وأغراضه حيث جعلوا لبعض الأغراض ما يناسبها من أوزان معينة، وهذا ما ذهب إليه حازم القرطاجني الذي يرى " ولما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم، وما يقصد به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان وما يخيّلها للنفوس، فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضع قصدا هزليا أو استخفافيا وقصد تحقير سيء أو العبث به، حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء، وكذلك في كل قصد"(3).

والوزن عند " نازك الملائكة" الروح التي تكهرب المادة الأدبية وتصيرها... فلا شعر من دونه مهما حشد الشاعر من صور وعواطف، لا بل أن الصور والعواطف لا تصبح شعرية بالمعنى الحق إلا إذا لمستها أصابع الموسيقى و نبض في عروقها الوزن"(4)

1 - أحمد بسام الساعي : حركة الشعر الحديث في سوريا، دمشق، دار المأمون للتراث، ب ت، ص.259

2 - شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، ط6 ، دار المعارف، القاهرة، 1981، ص97 .

3 - حازم القرطاجني : منهاج البلغاء و سراج الأدباء ، ط2 ، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، ص266 .

4- نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين، بيروت، 1983، ص 238.

ولذلك عد الوزن تيارا سحرى مؤثرا في القصيدة الشعرية، وعنصرا هاما في أحداث الحركية النغمية بين السطور، فهو ضروري للشعر لأن " الوزن هزة كالسحر تسري في مقاطع العبارات، تكهرها بتيار خفي من الموسيقى الملهمة. وهو لا يعطي الشعر الإيقاع فحسب، وإنما يجعل كل نبرة فيه أعمق وأكثر إثارة وفتنة، ولذلك كان الشعر مؤثرا، بحيث كان القدماء يعدونه ضربا من السحر يسيطر به الشاعر على الجماهير." (1)

ولأن الوزن هو المحدث للعديد من التوترات اللغوية حيث نجد " خلق مسافة توتر بين المكونات اللغوية القائمة في وجودها العادي خارج الشعر ووجودها داخله" (2).

إن الشاعر عندما يصاب باضطراب أو يحس بمعاناة لمثيرات عديدة تحيط به وتعتريه " الحالة الشعرية يصبح ذهنه مشحونا بالموسيقى، هذه الموسيقى تجعل الألفاظ تنبعث في عقله الباطن وترتفع إلى سطحه عشرات الكلمات المطموسة المعالم مما رقد في الذهن الجماعي للأمة وبعثته موسيقى الحالة الشعرية" (3).

وبناء على هذا الفهم فإن عناصر البنية الموسيقية ينبغي لها أن تقوم بدورها كاملا بحيث " تؤدي وظيفتها في التجربة الانفعالية تعبيرا وتوصيلا، بمعنى أن الموسيقى تسهم إسهاما فاعلا في إحلال الدلالة في فضاء متفتح على التجربة الشعرية" (4).

وانطلاقا من الآراء التي تقدمت، والتي عرضنا إليها نخرج على الظواهر التي توضح مسار مفدي زكريا في الغربة عبر قصائده، التي أفرزت معاناته الحزينة، من خلال ظاهرة الوزن و القافية التي برزت من خلالها غربة الشاعر.

وعندما عمدنا إلى بحثنا عن ظاهرة الغربة في جانبها الموسيقي عند مفدي زكريا، تبين أنه كان يقصد إلى التنويع الذي يصاحب حالاته الانفعالية، خاصة من ناحية قوافي القصيدة الواحدة، ووجدنا هذه الظاهرة منشورة في قصيدة مأساوية رصدت نتائج القنبلة الذرية التي فجرها السلطة

1- نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر، دار العلم للملايين ، بيروت، ص 225

2- كمال أبو ذيب : فن الشعر، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت، 1987، ص 87 .

الفصل الثالث : _____ الخصائص الفنية لظاهرة الغربة، في شعر مفدي زكريا

3- نازك الملائكة : الصومعة و الشرفة الحمراء، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1979، ص147 .

4- محمد راضي جعفر : الاعتراب في الشعر العراقي، ص129

الفرنسية في الصحراء الجزائرية سنة 1956، وما أفررتة من آثار رهيبية على الأجنة والحياة ..
يقول :

ما دهاه .. أويل؟ أمه .. ما دهاه؟؟ ويلتاه، من جيله ويلتاه
ماله في الحياة، يولد أعمى؟ لم تر الكون باسمًا مقلتاه؟
ماله مقعدا، يدحرج رجليـه؟ .. وماذا هي، فشلت يداها؟ (1)
فالزفرات لجوفية الحزينة المحشونة بتأوه حار، تحمله صرف " الهاء" ويحدث في النفس الأثر
المأساوي، ويثبت الظاهرة الانسانية الشنيعة.

كما وظف لمعناته من جانبها الموسيقي، ظاهرة توزيع القوافي المواكبة تنوع معناته
وألوان آهاته وأحزاته، يقول :

جزى الله عنا الخطوب الزواجر ولولا الخطوب لما هب ثائر
فلسطين يا مهبط الأنبياء ويا مهبة العرب الدامية
جنحنا لمؤتمرات السلام م ... امتحانا لأننا نحب السلام (2)
هذه الظاهرة في تنوع القوافي، هو ما يعرف " بقصائد المقاطع التي تنوع القوافي فيها
في كل مقطع" (3). إذ أختار الكلمات الواضحة الدقيقة التي تقدم الظاهرة الإجرامية المأثرة.
فالمعاناة في الظاهرة الموسيقية الشعرية عنده " ليست وليدة الألفاظ المتراسة، وإنما هي
نتيجة حالة نفسية تكشف الشاعر من خلال تجربة أو موقف اهتدى فيه الشاعر إلى ألفاظ لها دلالتها
الموجودة في جرسها عند النظم" (4)

وقد تبين بواسطة إحصائية دقيقة قام بها الدكتور يحيى الشيخ صالح أن أوزانا بعينها قد
شاع استعمالها في قصائد مفدي زكريا " أي أن البحور المشهورة عند مفدي زكريا هي نفسها
تقريبا المشهورة عند الشعراء العرب القدامى، وهي البسيط و الطويل والكامل، مع فارق ملحوظ

1- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وليد القنبلة الذرية !)، بمناسبة تفجير فرنسا لقنبلتها الذرية في الصحراء الجزائرية، 13 فيفري 1969،
ص 161

2- مفدي زكريا : من وحي الأطلس، ص ص 199 - 200

الفصل الثالث : الخصائص الفنية لظاهرة الغربة، في شعر مفدي زكريا

- 3- عبد الله أحمد العفيفي : جريدة الرياض، (الموسيقى الخارجية في شعر علي محمود طه)، العدد 6437 في 6-2-1986م
4- مجلة عالم الفكر : الكويت، المجلد السادس عشر، العدد 2، يوليو، سبتمبر، 1985، ص ص 9-10
وهو أن مفدي اعتمد كثيرا بحر الخفيف بحيث إحتل أكبر نسبة في التوارد في شعره، ثم بحر الرمل الذي ارتفعت وروده عند مفدي خلافا لما رأيناه عند القدامى⁽¹⁾

فإختيار مفدي زكريا لهذه البحور والتركيز عليها، لأنها بحور صافية مزدوجة، تأخذ في معانها الذاتية، وتعبّر عن الاضطرابات النفسية بسهولة، كما أنها تأخذ بالنظرية القديمة التي تخصص لكل بحر من بحور الشعر، ما يناسبه من موضوعات، تتجاوب وارتدادات النفس المتألّمة الحزينة أو الثائرة الغاضبة، فالشاعر " حينما يلجأ الى هذا الوزن الذي يمكن أن نسميه وزنا قوميا " إنما يفعل ذلك ليضمن التجاوب بينه وبين نفسه أولا، ثم بينه وبين جمهوره ثانيا⁽²⁾.

وحين نتابع القافية الحزينة في شعر مفدي زكريا، نلاحظ الحروف المستعملة بكثرة، تثبت المعاناة الحادة عند الشاعر، لذا جاء حرف " الراء " محتلا أكبر نسبة في شعر مفدي زكريا، يليه في ذلك حرف 'الدال' و 'النون' و 'الميم' بنسبة واحدة تقريبا، ثم يأتي حرف 'الهاء' في درجة ثالثة⁽³⁾.

ولإعتماد مفدي زكريا حرف " الهاء " الذي يناسب الحالة النفسية المنكسرة الحزينة عنده، فإن ذلك لا يعني بالضرورة أنها لا تناسب الحالات الأخرى، كحالات الفرح وغيره... إن ضبط الحركة الانفعالية المواكبة للظاهرة الإجرامية، في شعر زكريا مقصودة، غايته نقل القارئ عبر ممرات الأحداث إلى غاية الوقوف عند نتائجها، ثم التأثير بنتائجها يقول :

ما له، لم تزل تهدده الأ.. م، ولم تستمع لها، أذناه ؟
ما له أخرسا، تناجيه في المهـ د، ولم تبتسم لها، شفتاه ؟
ولماذا لم يبك، بين ذراعيـ ها دلالا،.. ولم يقل : أماه ؟
ألهذا الوجود، جاء وحيداً ؟ أم له في زمانه أشباه ؟
ويلتاه - من جيله ويلتاه !⁽⁴⁾

1- يحي الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 298.

2- إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر، ص 188، وينظر أيضا : محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث، ص 250

الفصل الثالث : _____ الخصائص الفنية لظاهرة الغربة، في شعر مفدي زكريا

3- يحي الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 299

4- مفدي زكريا : اللهب المقدس، (وليد القبيلة الذرية)، ص ص 161-162

إن بطء الحُرطة الانفعالية، راجع إلى ثقل الظاهرة الإجرامية، وما تركته في عوالم الشاعر من اضطراب حاد، شلّ إلى حدّ بعيد أنفاسه، وجعلها تتأوه تحت وقع زفير متقطع مشحون بالغربة والألم والحزن.

فالهاء عنده قد "نالت من اهتمام مفدي ووردت في كثير من قصائده خلافا لغيره من الشعراء، فإن لها ما يفسرها، فهي من الناحية الصوتية تتناسب مع مضامين التأوه والتحسر، وعدم الرضى، والقصائد التي وردت فيها "الهاء" رويها عند مفدي تتناول مواضيع لا تبعث على الرضى والاطمئنان بصورة عامة"⁽¹⁾

ولم يكتفي الدكتور يحي الشيخ صالح عند هذا الحد، بل عمد إلى تتبع هذه "الهاء" من خلال ديوان مفدي زكريا "اللهب المقدس"، حيث يقول : " ففي اللهب المقدس ورد حرف 'الهاء' رويها للقصائد التالية :

§ قصيدة (لا تعجبوا إن جاءكم برسالة) : التي انشدها الشاعر ارتجالاً أمام ملك المغرب إثر خروجه من السجن وهروبه الى المغرب، فبالرغم من موضوعها ليس مأساوياً من الدرجة الأولى، إلا أن الفرار ومعايشة التبتع والاضطهاد الاستعماري وعدم الاستقرار النفسي، تقدم للقافية "الهاء" موضوعاً مناسباً.

§ ثم قصيدة (إلى الذين تمردوا) : التي قالها الشاعر إثر مشكلة تمرد الجيش الفرنسي بالجزائر وتسلمه على الأبرياء العزل بالتقتيل والذبح والنهب والحرق....وهي ذات طابع مأساوي رهيب.

§ وقصيدة (إلا أن ربك أوحى لها) : التي قالها الشاعر إثر الزلزال الذي اجتاحت منطقة الأصنام بالجزائر، وخلف آلاف من القتلى والمنكوبين، وغير خفي أن موضوعها هي الأخرى مأساوي حزين يتناسب مع "الهاء" رويها.

§ والقصيدة الأخيرة ، ذات القافية "الهائية" هي (فلسطين على الصليب) : التي قالها الشاعر بمناسبة الذكرى الثالثة عشر لتقسيم فلسطين، حيث يتعرض لمأساة الشعب الفلسطيني

1- يحيى الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص299
وتخاذل الأمة العربية... ولا ريب أن الموضوع لا يبعث على الرضى والارتياح، بل يبعث على الشعور بالمأساة العميقة التي يعيشها العربي... مما يجعل روي "الهاء" يناسب أكثر أي حرف آخر"⁽¹⁾

وحتى لا نبتعد عن ظاهرة الغربة من وراء هذه المحاولة، يمكن أن نوجز، في أن الشاعر لم يتجاوز النهج التقليدي في الموسيقى الشعرية، هذا التقيد المؤسس عنده، هو الذي أفرز ظاهرة التصريع والتكرار وأنواع المعارضات في قصائده، والتزامه الشديد بالبحور الخليلية، ومنها بحور شاع توظيفها بكثرة عند الشعراء القدماء، كبحر الرمل-مثلا- الذي إستحوذ على معظم شعره، وربما يعود سبب ذلك، إلى ميولاته الذاتية، وتغنيه بجراحاته وآلامه وغربته الفردية والجماعية، وأيضا إلى أن بحر الرمل تنساب فيه حالات النفس المنكسرة بسهولة وتتناغم، كما يتناسب وحركية الانفعالات المضطربة المتأججة داخل النفس المغتربة الحزينة، فجاءت أشعار هذا البحر في الغالب مطابقة للحالة الانفعالية وبعيدة عن التأمل الفكري و الفلسفي، لما يتوفر عليه بحر الرمل من درجة عالية من التوتر وحدة إيقاعه.⁽²⁾

ونلاحظ بوجه عام أن الموسيقى الشعرية في ظاهرة الغربة عند مفدي زكريا، رغم ما أصابتها من تنويع في القوافي، فإنها بقيت مرتبطة بعري الموسيقى الشعرية التقليدية، بكل أشكالها ومضامينها، وكان في نهجه هذا ينير سبيلا توحى بالجديد، الذي يتطلب نظرة أخرى مستقلة.

وبالتالي نجد أن ظاهرة الموسيقى التي عرفها الانسان، واهتدى إليها عبر الزمن، تمثل فنا قديما عريقا، ومع مرور السنون أضحت عنصرا هاما ملازما للشعر وأداة فعالة من أدواته الأساسية، التي يؤسس عليها الشاعر هرمه الانفعالي الشعري، وقد لاحظنا أن شعر الغربة عند مفدي زكريا - من خلال بعض النصوص - لم تتجاوز في هذه الظاهرة، النمط التقليدي للموسيقى الشعرية التي عرفت عند القدماء من الشعراء العرب.

الخاتمة

1- يحيى الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ص 500

2- عبد الرحمن حوطش : شعر الثورة في الأدب المعاصر، ص 493

كانت رحلتى مع ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا، داخل غياهب عوالمه الباطنية جد ممتعة، بالقدر الذي كانت فيه مضمّنية. فلقد تحسست طويلا بين أمواج هذا البحر المائج من الإفرازات الشعرية المتعالية والمتلاطمة، التي ضمتها دواوين وأشعار مجهولة متناثرة هنا وهناك. وأدركت يقينا أن الثورة عند مفدي زكريا ولدت من رحم أحزانه وغربته.

وكنّت أصاحب الشاعر في غربته، ومعاناته، وأشاركه مأساة شعبه التي كانت أساس محنته الحقيقية وانفصامه الحقيقي المرير عن الأهل والوطن، فشعرت بين لبيب إفرازاته الحارة، قوة بيانية تلفظها حمم الاضطرابات الحزينة، فأدركت حجم عمق البركان الذي لا يظهر في الحقيقة لدنيا الناس إلا لشظايا قليلة، أما الحمم الملتهبة المركبة الراسخة في القاع، تتآكل دون أن يدركها أحد، فتحسست عظمة هذه الانفجالات، وانتابني شعور كبير بقوة المثير المنعكس، وأنى مقدم على أعظم بركان لا بداية لفوهته ولا نهاية لقاعه.

لقد أدرك مفدي زكريا أن مواد التاريخ وأحداثه، كالمآسي، والتضحية أو البطولة، يمكن أن تكون أفضل مادة للشعر، وهذا من حيث مآسيها، وانسجام ملامح المعاناة الانسانية معها...إنها منطقة صراع، ميدانها الشعر. لذا حول مفدي زكريا مهمة الشعر الجزائري، التي كانت موضوعاته القديمة ذات الطابع السلفي الوعظي الاصلاحى، إلى شعر مضامين نفسية تأملية إغترابية، ولم تخرج المضامين النفسية الثائرة والحزينة عن البواعث الأساسية التي كان مصدرها الشعب القليل والوطن المغتصب، وهى بواعث تركت ملامحها في شعر الغربة بمفهومها الزماني والمكاني .

لقد تمخض شعر الغربة عند مفدي زكريا عن مأساة طويلة، وما كان لها أن تأتى هذه الأشعار الملتهبة الحزينة، لولا إحساسه بالظلم والغربة والضياع الذى نال من شعبه ووطنه.

لقد تناولت هذه الدراسة ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا، فاقتضت ضرورة البحث تحديد مفهومها لغة واصطلاحا، ومن ناحية أبعادها اللغوية والفكرية، والاجتماعية والفلسفية والدينية، وأيضا في مجال الشعر وبعض موضوعاتها وأبعادها.

وكان أهم ما لوحظ هو اتساع وتشعب معانيها ومعالمها، واختلاف وتنوع الآراء ووجهات النظر فيها، فمن خلال العودة والاستقصاء التاريخي للنصوص الشعرية، تبين أن ظاهرة الغربة تتحدد بعلاقة التأزم بين الإنسان ذاته والكون المحيط به، فتبعث به إلى الاضطراب وينتابه شعور بالتوتر واليأس واللوعة والحسرة، فهي بالنسبة للشعر الإنكسار الذي يعجز الشاعر عن ترميمه أو التصرف فيه، فينشده شعرا داميا بالآهات والألم والنكبات التي تلقى به - في كثير من الأحيان - في غياهب متاهات السقوط والإنذار.

وقد ارتبطت ظاهرة الغربة في الشعر العربي الحديث ببعض الأفكار الرومانسية الغربية، وتمثل رومانسية مفدي زكريا من خلال الحنين الجارف إلى الماضي العربي التليد، وتذكر أيام العزة والسيادة، وهو نزوع تعويضي عن الواقع الحزين المؤلم الذي يعيشه الجزائري تحت الاحتلال الفرنسي، كما أنها رومانسية معاناة شاعر في غربته الطويلة وتشرذم شعبه واضطهاده، كما كانت تمثل بكاء وتعاسة فرد وشقائه وعبودية مجموع، فجاءت الرومانسية نابعة من واقع معاش مملوء بالمتناقضات، والجراحات. من هذا المنطلق فإن رومانسية مفدي زكريا حزينة لحزنه وكثيية لكآبته... لأن شعبه محزون الفؤاد، مكبل بالحديد، ضائع المصير، وما شعره إلا آفات هذا الشعب البائس يطلقها ويصعد بها أبياتا شعرية موزونة حزينة صادقة، فعبرت عن هذه الاضطرابات الحزينة المغترية أحسن تعبير، وكانت الرومانسية الحزينة مواكبة لمآسي الفرد والجماعة، واحتجاجا صارخا على فساد الحياة وترديها فأينما عثرت على ظواهر الحب، وجدتها عناقا للعذاب والحسرة مشبعة بالدموع والألم حنيننا داميا إلى الأوطان والأهل والأبناء...

كما ظهرت الطبيعة في مناظر رهيبة تنضح بالسواد والخراب والشقاء والحيف، وتبعد طريق الغربة والانفصام أمام الشاعر، ثم كان الاغتراب والضياح الذي واجهه الشاعر، مخدولا ومنكسر الوجدان، خائر الفكر منهك الروح والجسد.

وارتبطت ظاهرة الغربة كذلك ببعض الأفكار الواقعية، وأخذت منهجا إجتماعيا، تمثلت في ملاحقة السلوكات الخبيثة لرجال الطريق والانحرافات الدخيلة الشاذة والدخيلة بصفة عامة، والعمل على كشف مسبباتها، والتي أدت بالإنسان الجزائري إلى واقع مزر بائس عمه الجهل والتخادل والتواكل... كما أخذت طابعا إقليميا مغاريا، وقوميا وإنسلنيا، إذ تجسدت المبادئ والقيم

الإنسانية المهدورة في أشكالها ونماذجها العديدة والمختلفة ، وأكدت ضرورة تجاوز الإنسان للمعاناة والمأساة التي تصاحبه عن طريق الوعي ومحاربة منابع الجهل، والرجوع إلى الفكر، والعمل الجاد لمحاربة الظروف التي قادت إلى حدوثها ووجودها، فكانت صرخة حزن عميقة المنابت والجذور، في وجه الظلم والظلمة المستبدتين، والبؤس الاجتماعي والتسلط الاستغلالي. فالمعاناة هنا لا تكون ذات قيمة وغاية، ومعنى وهدف، ما لم تكن صادرة عن حياة الناس، ومعبرة عن آلامهم، وخدمة للصالح العام، فهي أولى خطوات الوعي المدرك الثوري، وأصول النضال الإنساني الحقيقي في الشعر الواقعي.

وقد جمعت - إلى حد ما - ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا بين الاتجاه الرومانسي الحزين والاتجاه الواقعي الراصد للانحرافات الواقعية، كما تجاوزتهما - في كثير من الأحيان - إلى إبراز محنة الإنسان فوق الأرض بدقة في علاقته بالوجود كله، وذلك عبر قصائده الفدائية المؤثرة ومن خلال دواوينه الملتهبة العديدة التي تتغذى كلها من رحم الأحران والغربة.

ويمكن القول أن مفدي زكريا قد أفلح بفراصة، أن يزاوج بين التراث القديم متمثلاً في أغنى مصادره، وبين الحداثة بمنهجها، التي تجسدت في أنصع مذاهبها .

منذ مطلع شبابه ذاق مفدي زكريا صعوبة الحياة، ومرارة العيش والكدر في سبيل الحصول على عنصر البقاء ولقمة الاستمرار، ولقي في سبيلها ألوان الإرهاق وأنواع التعب، حيث عمل أجيراً، وممثلاً متجولاً، وأقدم على مشاريع تجارية عديدة لم يكتب لها النجاح، وصاحبه الفشل في كل مسعى تجاري ، فأصبح يقاسي مقاساة شديدة، ويعان معاناة مزدوجة، حبه لتحقيق الثراء والرخاء الذين كان يحلم بهما، وحبّه للأدب الذي لم يرغب أن يكون حرفته الدائمة، إلا أنه فشل فشلاً ذريعاً في الأولى، على الرغم من المحاولات العديدة، والعرق الغزير، ومع كل محاولة كانت تترسب المعاناة، وتكبر وتترجم نفسه الأبية، وتنمو في عوالمه الباطنية، ويقوى معها الإحساس بالخيبة، والثورة على الواقع التعيس.

واقع مرير لونه الممارسات اللاإنسانية التي وظفها العدو المحتل الفرنسي طوال وجوده فوق هذه الأرض الغالية على أهلها، أعمال إجرامية لا يمكن وصفها، فهي ممارسات إستتصالية ضد الإنسان، سيظل التاريخ يحتفظ وحده ببشاعتها وانحطاط ممارساتها. وهو الوحيد الذي يبقى شاهداً

أحيانا على بشاعتها، إذ تفوق جرائم الفاشية، وخراب النازية، حيث تمثلت - من خلال بعض النماذج - في التجهيل والمسح والإبادة الجماعية... والتمثيل بالجثث والعبث بالمحارم... والتدمير الكلي للقرى والمداشر.... والتفنن في التعذيب الجسدي والنفسي ونحوها... وقد بينت الشواهد الشعرية، مدى فضاغة الجرائم التي ظل السجناء والمعتقلون يتعرضون لها، وأهوال التعذيب المسلطة عليهم، منذ لحظة دخولهم إليها إلى غاية مغادرتها شبه أحياء أو أموات.

واقع آخر للظاهرة الاجتماعية، ظاهرة الفقر والحرمان، التي أنتجت الجهل والتخلف، كانت مخططات العدو الدخيل، الذي سعى منذ أن وطئت أقدامه أرض هذه الديار، إلى التفجير والتحقير والنهب للخيرات، واستعباد كل من على هذه الأرض، فقد وضع بدقة مفدي زكريا هذه الأعمال، وكشف نوايا المخططات في أكثر من قصيد...

واقع الظلم والتنكيل بالأبرياء، في غياهب السجون والمعتقلات، أفرز المأساة الجزائرية، وأبرز أنواع الوحشية وضروب الشقاء. وكانت الغربة عنوة إلى خارج الوطن، من المأسى التي خطط الاحتلال الفرنسي لها تماشيا لاضطهاد الشعب، وقد وجدنا الكثير من الجزائريين - ومنهم شاعرنا - فارين بسبب أعمال الإبادة التي شرع في تطبيقها المحتل الفرنسي، ومغادرة ديارهم وأرضهم، والهروب سريريا إلى البلدان العربية الشقيقة المجاورة حيث ظلوا هناك يتجرعون مرارة الغربة والشوق، ومرارة فراق الأهل والوطن، رغم أنهم بين أشقائهم العرب.

وقد سجل مفدي زكريا أكثر من ظاهرة حزينة، كلما دفعت به الظروف إلى تلك الأقطار. إذ وصف ما كان يمر بعوالم الجزائري من شوق وحنين ولوعة الغربة إلى أرضه، واقع بائس يعتربه الأسى، تجاوز فيه الشاعر الحنة ومأساة شعبه، إلى تعاسة الأمة العربية والافريقية والانسانية بصفة عامة، حيث استوعبت نظراته ظواهر كلية، وأضحى الشاعر أكثر الشرائح الاجتماعية إلتصاقا بمآسي وأحزان وهموم الانسان وآلامه، وهذا ما وسع من معالم التجربة الشعرية عنده وعمقها، وخلص إلى أن الخروج من التعاسة وبواعثها، من غربة وظلم وعبودية... يتم عن طريق الثورة والرصاص، فبهما يتم بعث الحياة الانسانية الحرة المطمئنة، وعن طريق الجحافل من الشهداء، الدماء الزكية الطاهرة، تظهر الأرض من اليرقات المؤذية للحياة، ويتخلص الأحياء من مسغبة العيش الذليل.

لإبراز ظاهرة الغربية، وظف مفدي زكريا، أدوات الاتصال الواضحة والدقيقة، حيث ركز على الصورة الشعرية البليغة المؤثرة المستمدة من التاريخ الإسلامى والتراث القديم والقرآن الكريم والشعر العربي القديم، فجاءت صوره الشعرية حزينة ناثرة وليدة شعور صادق وذات متألمة، كما وظف لغة بليغة مؤثرة حماسية ناثرة، استخدمت الكلمة لتعبر عن الإنفعالات وعميق المعاناة... فكانت لغته الفريدة أداة قوية لتوصيل الشحنات والأفكار والمظاهر التعيسة...

رغم ما عرف عنه من أصالة تراثية، إلا أن الاندفاع لظواهر ظاهرة الغربية والواقع المأساوي جعلها لغة ذات خاصية فريدة مميزة... وأظف على هذه اللغة وصورها، أنغاما موسيقية مؤثرة مناسبة لكل اضطراب أو حالة تعترية... رغم التزامه الشديد بالقواعد الموروثة الصارمة التي صطعت في قصائده. بالوفاء للقديم.

مفدي زكريا الملحمي الحزين غير بعيد عن النصوص العربية القديمة العظيمة، لقد كان وفيًا لتراث أمته، سار عليه على نهجه، وترسم طقوس فحول الشعراء الأقدمين، وكتب بشغف ولهفة في حيزهم وعارض بعضهم، ونهج نهجهم، ووظف في شعره العديد من معانيهم وخط بدمه صورهم البطولية وأيامهم الخالدة وأخذ عزهم وترديدهم، لكنه لم يكن في هذا مقلدا بليدا، بل كان يهمس في ظواهر وأحداث التاريخ فيستسلم له التاريخ فيأخذ منه ليقرب بين الماضي المجيد والحاضر التعيس، ثم يستخرج العبرة التي كانت غايته من ذلك بدل العبرة - بفتح العين -.

ولعلني بهذه المعالجة النفسية التاريخية التوثيقية الشعرية، والمعاناة التي عايشتها بين قصائد مفدي زكريا، تبين لي أن الشاعر، قد عايش الأحداث وعانى جزئيات الظاهرة والتجربة الاغترابية في عمق صورتها، ورسم بقلمه الدقيق أجزاءها، من حيث صفاء الشور وسمو الروح، إذ مكنته من أن يحدث فيها الأثر ذاته، وهذه قدرة وظاهرة فريدة يتميز بها عظماء الشعراء.

تلك كانت رحلتي، التي استطعت أن أسجل من خلالها مظاهر الغربية في عوالم الرجل، الذي مات غريبا عن الأهل والوطن، وأحبه حبا منقطع النظر، وما يزال شعره وثيقة إيدولوجية للأجيال والتاريخ، لما حواه هذا الشعر من ظواهر ومضامين عميقة.

إذا وفقت، وأرجو ذلك، أكون قد وضعت لبنة في هرم نريده أن يكون متجددا حيا، وإذا تعثرت، فهذا من طبيعة الأمور، ذلك أننى في بداية الطريق.

أولا : المصادر

- القرآن العظيم.
- الكتاب المقدس : انجيل يوحنا، الإصحاح 3، (18)، باب طوما، دمشق 1919
- أ - الدواوين والمجموعات الشعرية :
 - 1- ابن الرومي : تحقيق حسين نصار، الهيئة العامة، بمصر، ج2، 1973.
 - 2- أبو تمام : الديوان، المركز العربي للبحث والنشر، القاهرة، ب ت.
 - 3- أبو فراس الحمداني : الديوان، دار صادر، بيروت، ب ت.
 - 4- أبو الطيب المتنبي : الديوان، شرح ناصف، اليازجي، دار صادر، بيروت، ب ت.
 - 5- أبو القاسم الشابي : "الأعمال الكاملة"، دار العودة، بيروت، 1972.
 - 6- أبو علاء المعري : "اللزوميات"، تحقيق عبد العزيز الخانجي، القاهرة، ب ت.
 - 7- أبو ذؤب الهزلي : تحقيق حسين نصار، الهيئة العامة، بمصر، 1969.
 - 8- أحمد سحنون : الديوان، الشركو الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977.
 - 9- أحمد زكي أبي شادي : "الشفق الباكي"، المطبعة السلفية، مصر، 1926.
 - 10- إلياس أبو شبكة : المجموعة الكاملة في الشعر، دار الثقافة، بيروت، 1979.
 - 11- خليل مطران : الديوان، "حكاية عاشقين"، ج1، دار الطليعة، بيروت، ب ت.
 - 12- سعدي يوسف : الديوان، الأعمال الشعرية الكاملة، المطبعة العصرية، دار العودة، بيروت، 1972.
 - 13- صالح الشرنوبلي : الديوان، جمع وتقديم، علي أحمد باكثير، الدار المصرية للطباعة، ب ت.
 - 14- صالح خرفي : أطلس المعجزات، ش و ن ت، الجزائر، 1974.
 - 15- صالح عبد الصبور : الديوان، الأعمال الكاملة، "أقول لكم"، دار العودة، ط2، بيروت، 1972.
 - 16- عبد البديع صقر : شاعرات العرب، منشورات الكتاب الإسلامي، ط1، 1971.
 - 17- عبد الله شريط : الرماد، ش و ن ت، الجزائر، 1969.

- 18- عبد الوهاب البياتي : الديوان، مجلد 1، دار العودة، بيروت، 1972.
- 19- علي محمود طه : الديوان، الأعمال الكاملة، " أقول لكم "، دار العودة، بيروت، 1972.
- 20- عبد المعطي حجازي : الديوان، " يقظة عملاق "، دار العودة، بيروت، 1974.
- 21- فدوى طوقان : الأعمال الكاملة، " وحدي مع الأيام "، دار الأدب، ط4، بيروت، 1973.
- 22- كيلاني حسن سند : الديوان، " قبل ما تسقط الأمطار "، دار الكتاب العربي، مصر، 1985.
- 23- كمال عبد الحليم : الديوان، " اصرار "، دار الفن الحديث، القاهرة، 1979.
- 24- مفدي زكريا : اللهب المقدس، ش و ن ت، الجزائر، 1983.
- 25- مفدي زكريا : تحت ظلال الزيتون، دار النشر، تونس، 1965.
- 26- مفدي زكريا : من وحي الأطلس، مطبعة الأنباء، المغرب، 1976.
- 27- مفدي زكريا : إلياذة الجزائر، وزارة التربية الوطنية، الجزائر، 1986.
- 28- مفدي زكريا : أجمادنا تتكلم، مؤسسة مفدي زكريا، الجزائر، 2003.
- 29- محمد الأخضر السائحي : الديوان، همسات وصرخات، المطبوعات الوطنية، الجزائر، 1965.
- 30- محمد العيد آل خليفة : الديوان، ش و ن ت، الجزائر، 1965.
- 31- محمد مهدي الجواهري : الديوان، الجزء 1، مطبعة بغداد، 1949.
- 32- محمد سيد شريف : الديوان، " أوراس "، دار العودة، بيروت، 1974.
- 33- محمد الفيتوري : " أغاني إفريقيا "، مكتبة المعارف، مصر، 1956.
- 34- نازك الملائكة : الأعمال الكاملة، " قرارة الموجهة "، دار العودة، ط1، بيروت، 1982.
- 35- يحي بن زياد : الديوان، جمع وتقديم أنور حسين الشوفي، دار إحياء التراث، بيروت، 1962.

ب - المصادر العامة :

- 1- أبو الفرج الأصفهاني : أدب الغرباء، تحقيق صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديدة، بيروت، 1972.
- 2- أبو عثمان الجاحظ : الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، ط3، مج3، بيروت، 1969.
- 3- أبو هلال العسكري : الصناعتين، تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، مطبعة الفجالة الجديدة، بيروت، 1981.
- 4- الزمخشري : أساس البلاغة ، دار الكتب المصرية، ط1، بولاق 1300 هـ، مصر
- 5- الطيب عبد الله : المرشد، إلى فهم أشعار العرب وصناعتها، ط2، دار الفكر، ج1، بيروت، 1970.
- 6- التبريزي : شرح القصائد العشر، مطبعة المدني، القاهرة، 1965.
- 7- ابن منظور : لسان العرب، المطبعة الأميرية، ط1، بولاق 1300 هـ، مصر.
- 8- ابن قيم الجوزية : مدارك السالكين، ج4، مطبعة القاهرة، مصر، 1892.
- 9- ابن قتيبة : تأويل مشاكل القرآن، تحقيق أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، 1954.
- 10- ابن حزم الأندلسي : طوق الحمامة، تحقيق الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط3، القاهرة، 1985.
- 11- ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون، ط2، تحقيق عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي، ج4، مصر، 1767.
- 12- ابن رشيق القيرواني : العمدة، في محاسن الشعر وآدابه ونقده، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجبل، ج1، بيروت، ب ت.
- 13- ابن سيدة : المخصص، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، ج1، بيروت، ب ت.

- 14- ابن كثير : تفسير ابن كثير، مكتبة النهضة الحديثة، الفجالة الجديدة، القاهرة، 1968.
- 15- أرسطو طاليس : من الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، 1973.
- 16- أفلاطون : كتاب الفيدون، ترجمة وتحقيق علي ساطي النشار، وعباس الشربيني، دار المعارف، مصر، 1965.
- 17- حازم القرطاجي : منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ط2، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، مكتبة النهضة، مصر، ب ت.
- 18- سوفوكليس : أديب ملكا، ترجمة محمد صقر خفاجة، الهيئة العامة، مصر، 1984.
- 19- سيد قطب : التصوير في القرآن الكريم، دار الشرق، بيروت، ب ت.
- 30- ضياء الدين بن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتحقيق وتعليق أحمد الخرفي وبدوي طبانة، مكتبة، مصر بالفجالة، 1963.
- 31- قداحة بن جعفر : نقد الشعر، تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة، دار الكتب العلمية، بيروت، ب ت.
- 32- كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط8، بيروت، 1987.
- 33- محمد علي بيوض : الأحاديث القدسية الصحيحة، جمع وإعداد الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، 2002.

ثانيا : المراجع

أ- المراجع العامة :

- 1- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ش و ن ت، الجزائر، 1981.
- 2- إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر، ط5، مكتبة الأنجلو، القاهرة، 1981.
- 3- إبراهيم عبد الرحمان : الشعر الجاهلي، قضايا الفنية والموضوعية، مكتبة الشباب، القاهرة، 1979.

- 4- إبراهيم السولامي : الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية، دار الثقافة، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، المغرب، 1974.
- 5- أحمد هيكل : تطور الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، مصر، 1968.
- 6- أحمد الطريسي أعراب : الرية الفنية في الشعر العربي الحديث بالمغرب، المؤسسة الحديثة، الدار البيضاء، امغرب، 1987.
- 7- أحمد بسام الساعي : حركة الشعر الحديث في سوريا، دار المأمون للثرات، دمشق، ب ت.
- 8- أحمد فتحي بهنسي : العقوبة في الفقه الإسلامي، دار الرائد العربي، بيروت، 1983.
- 9- أحمد النكلاوي : الإغتراب في المجتمع المصري المعاصر، ط2، دار الثقافة العربية، القاهرة، 1989.
- 10- أدونيس : سياسة الشعر دار الأدب، ط1، بيروت، 1985.
- 11- الشريف المريبجي : عبد الكريم العقون، شاعر، ديوان المطبوعات معهد الآداب جامعة الجزائر 1988-1989
- 12- الهاشمي علوي : من أين يجيء الحزن، دار العودة بـبيروت، 1972.
- 13- الوناس شعبان : تطور الشعر الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ب ت.
- 14- أعزوز شعيب : الاتجاه القومي في الشعر المغربي الحديث، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1988-1989.
- 15- أنس داود : التجديد في أدب المهجر، دار الكتاب العربي، مصر، 1967.
- 16- إحسان عباس : إتجاهات الشعر العربي المعاصر، مجلة المعرفة الكويتية، العدد8، 1979.
- 17- إليزابيت دور : الشعر، كيف نفهمه ونتدوقه، ترجمة، محمد ابراهيم الشوش، مطبعة عيناني الجديدة، 1961.
- 18- بلحيا الطاهر : إلباذاة الجزائر لمفدي زكريا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989.
- 19- جريدة العلم : الرباط، 1957/06/30.
- 20- جون فون زيلسكي : المأساة والخوف، ترجمة، عارف حذيفة، وزارة الثقافة، دمشق، 1982.

- 38- عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة، " مزايا الفن والتعبير في اللغة العربية "، دار غريب للطباعة، القاهرة، ب ت.
- 39- عبد الله حمادي : الحركة الطلابية الجزائرية، (1962 - 1971)، ط2، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، 1995.
- 40- عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث، ش و ن ت، ط1، الجزائر، 1981.
- 41- عبد الله الركيبي : قضايا عربية ي الشعر الجزائري المعاصر، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1977.
- 42- عبد الرحمان حوطش : شعر الثورة في الأدب العربي المعاصر، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1971
- 43- عبد الرحمان بدوي : الزمان الوجودي، دار النهضة، مصر، 1945.
- 44- كمال نشأت : أبو شادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1967.
- 45- كمال أبو ذيب : فن الشعر، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1987.
- 46- ماهر حسين فهمي : الحنين والغربة في الشعر العربي الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1970.
- 47- محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث، دار النهضة، مصر، 1982.
- 48- محمد مصطفى بدوي : كولردج، نوابع الفكر العربي، دار المعارف، مصر، 1957.
- 49- محمد غنيمي هلال : الرومانتيكية، دار العودة، بيروت، 1986.
- 50- محمد ناصر بوحجام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.
- 51- محمد مصايف : النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984.
- 52- محمد البشير الإبراهيمي : عيون البصائر، ش و ن ت، ط2، الجزائر، ب ت.

- 53- محمد ناصر : مفدي زكريا، شاعر النضال والثورة، نشر جمعية التراث، ط2،
- العطف - ، غرداية، الجزائر، 1987.
- 54- محمد زكي العشماوي : الأدب وقيم الحياة المعاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2،
1974.
- 55- محمد راضي جعفر : الإغتراب في شعر العراقي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1999.
- 56- محمد منـدور : الشعر المصري بعد شوقي، الحلقة الثالثة، مصر، 1973.
- 57- محمد الطاهر الطمار : تاريخ الأدب الجزائري، ش و ن ت، الجزائر، ب ت.
- 58- محمد هدارة : تيارات الشعر العربي المعاصر في السودان، دار الثقافة، بيروت، ب ت.
- 59- محمد زغينة : شعر السجون والمعتقلات في الجزائر، منشورات جامعة باتنة،
الجزائر، 1990.
- 60- محمد فارس : تاريخ الجزائر الحديث، (مطبعة ألفباء الأديب)، دمشق، 1969.
- 61- محمود الربيعي : في نقد الشعر، دار المعارف، ط2، مصر، 1975.
- 62- محمود رجب : الإغتراب منشأة المعارف، ج1، اسكندرية، 1978.
- 63- محمود إحسان الهندي : الحوليات الجزائرية، العربي للإعلام والنشر والطباعة،
دمشق، ب ت.
- 64- محسن أطميش : دير الملاك، (دراسة نقدية)، منشورات وزارة الثقافة، بغداد، 1982.
- 65- مصطفى سويـف : الأسس الفنية للإبداع الفني، دار المعارف، مصر.
- 66- مفدي زكريا : كيف نتحدى الموت أمام المقصلة، المجاهد، العدد 48، تاريخ
1959/08/10
- 67- مفيدة محمد قميحة : الإتجاه الإنساني في الشعر العربي المعاصر، دار الآفاق الجديدة،
بيروت، ب ت.
- 68- ميشال سليمان : السمو في الشعر بوصفة مقولة جمالية، مجلة الفكر المعاصر، عدد
أوت، 1981
- 69- نايف بلو : عالم الجمال، المطبعة التعاونية، دمشق، 1981.

- 70- نازك الملائكة : الصومعة والشرفة الحمراء، دار العلم للملايين، ط2، بيروت، 1979
- 71- نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر، ط8، دار العلم للملايين، 1989
- 72- ناجي نجيب : كتاب الأحران، دار التنوير، ط1، 1983
- 73- نعيم اليافي : الشعر العربي الحديث، وزارة الثقافة، دمشق، 1981
- 74- نفيسة داخلي عبد الرزاق : الحزن في الشعر السوداني، جامعة الاسكندرية، كلية الآداب، 1989
- 75- نور السلطان : الأدب الجزائري، في رحاب الرفض والتحرر، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1981
- 76- هاري ليفن : انكسارات، " مقالات في الأدب المقارن "، ترجمة عبد الكريم محفوظ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1980
- 77- وهيب طنوس : الوطن في الشعر العربي في الجاهلية إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي، منشورات، كلية الآداب، جامعة حلب، 1979
- 78- يحيى الشيخ صالح : شعر الثورة عند مفدي زكريا، ط1، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، 1987

ب - المجلات :

- 1- أحمد رحمانى : لغة الضاد، معهد الآداب واللغة العربية، جامعة قسنطينة، العدد 6-7، أكتوبر، 1983
- 2- أحمد ناصف الجبابي : موسيقى الشعر، مجلة الأقدام، ج4، السنة 1، أكتوبر، 1964
- 3- ب. صديق : أطلس المعجزات، المجاهد الثقافي، العدد 17، 1971
- 4- توفيق برو : جنون الاستعمار وجرائمه ف الجزائر، مجلة سيرتا، العدد 6-7، السنة 4 جويلية 1982
- 5- حمدي حافظ ومحمود الشرقاوي : الجزائر بين الأمس واليوم، المؤسسة العربية للأنباء والنشر والتوزيع، العدد 272، ب ت

- 6- حنفي بن عيسى : المستشرقون وتاريخ الجزائر، مجلة المعرفة، وزارة الأوقاف، العدد 3 مارس 1982.
- 7- عبد الله أحمد العفيفي : جريدة الرياض، الموسيقى الخارجية في شعر علي محمود طه، العدد 6437 ، في 6-2 - 1986
- 8- محمد ناصر : المحافظة والتقليد في الشعر الجزائري الحديث، مجلة الثقافة، العدد 4، السنة 7 أوت، سبتمبر 1977.
- 9- محمد الصالح الجابري : الوعي القومي والديني عند الشعراء الجزائريين المهاجرين إلى تونس مجلة الفكر، العدد 7، السنة 30 أوت - سبتمبر 1977.
- 10- محمد الأسعد : اشكاليات التجربة الشعرية، مجلة الفكر المعاصر، عدد أوت، بيروت، 1981.
- 11- محمود أمين العالم : مجلة الفكر التونسية، العدد 9، 26 جوان 1981.
- 12- مفدي زكريا : جريدة الجمهورية، شاعر الثورة أمام الجمهور، الجزائر، 5/11/1984
- 13- مولود قاسم نAIT بلقاسم : إلياذة الجزائر، مجلة الثقافة، وزارة السياحة، السنة السادسة عشر، العدد 1، 9 فبراير 1986.

ج- المراجع الأجنبية :

- 1- **Abdel Ghari Maguerbi**, la paysannerie face à la colonisation
(Edition Enape) Alger 1973
* **Actes des XIV Congrès International d'Algérie** 1905 3^{ème} Partie.
- 2- **Charles Herni Ferand** « La Révolution Algérienne » (Plon),
Paris 1959.
- 3- **Charles Robert Ageron**, histoire de l'Algérie Contemporaine
(presse universitaires de France, Paris, 1964)
- 4- **Jules Roy**, «la guerre d'Algérie» Edition bernard, Paris, 1950.

- 5- **Jeanson Colette et Francis**, «l'Algérie Hors la loi», Edition du
Juil- Paris, 1955.
- 6- **Ibrahim Ahmed Taleb**, de la Colonisation à la Révolution
culturelle (S.N.C.D) Alger, 1973.
- 7- **Le courrier d'Afrique**, 26 Juin, n° 216 , 1845
- 8- **Nietzsche**, ainsi parlet, Zamoustra, George Arthur, Edition
Générale Française, 1972.
- 9- **Paul Gaffarel**, «l'Algérie, Histoire, Conquête et Colonisation de
Hiemien – bielot et Cie, Paris, 1983.
- 10- **Roland Barthes** « Le degré Zero de l'écriture » Coll – Brint,
Pari, 1970.

فهرس الموضوعات

المقدمة : (6-2)

مدخل : مفهوم الغربة والإغتراب (19-8)

أولا : مفهوم الغربة 8

أ- الغربة لغة (10-8)

ب- الغربة في الدين الإسلامي. (11-10)

ج - الغربة في المعاجم اللغوية الأجنبية (13-12)

ثانيا : مفهوم الإغتراب 14

أ- الإغتراب لغة (16-14)

ب - الإغتراب إصطلاحا 16

ج - الإغتراب عند بعض الفلاسفة والمفكرين (19-17)

الفصل الأول : ظاهرة الغربة في الشعر العربي الحديث (72-20)

أولا : ظاهرة الغربة في الشعر الرومانسي العربي الحديث (51-35)

تمهيد (38-35)

أ- ظاهرة الحب (42-39)

ب- الظاهرة الطبيعية (45-42)

ج- ظاهرة الغربة (51-46)

ثانيا : ظاهرة الغربة في الشعر الواقعي العربي الحديث (55-52)

أ- ظاهرة الظلم الاجتماعي والإستغلال (61-55)

ب- ظاهرة الثورة على الإستعمار (72-61)

1. نكبة فلسطين (65-61)

2. مأساة الجزائر (69-65)

3. قضايا الإنسانية (72-69)

الفصل الثاني : ظاهرة الغربة، بواعثها وأبعادها في شعر مفدي زكريا.	74
تمهيد : نظرة في الوضع التاريخي وإفرازاته.	(78-74)
أولاً: بواعث ظاهرة الغربة الاجتماعية، في شعر مفدي زكريا	(98-79)
1- ظاهرة الرفض والتنديد	(87-81)
2- ظاهرة الفقر والحرمان.	(94-87)
3- ظاهرة الجهل والتخلف.	(98-94)
ثانياً: بواعث ظاهرة الغربة السياسية، في شعر مفدي زكريا	(127-99)
1- ظاهرة القمع والإبادة.	(105-101)
2- ظاهرة السجون والتعذيب.	(127-105)
ثالثاً: أبعاد ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا.	(147-127)
1- البعد الوطني	(137-127)
2- البعد المغاربي	(140-137)
3- البعد العربي والاسلامي	(145-140)
4- البعد الافريقي والانساني	(147-145)
الفصل الثالث : الخصائص الفنية لظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا	149
تمهيد : الغربة الشعرية ومدلولها	(150-149)
أولاً : اللغة الشعرية مضمونا ومدلولاً	(151-150)
1- المعجم التقليدي للشعر الجزائري	(153-151)
2- أثر القرآن الكريم في الشعر الجزائري الحديث	(159-153)
3- المعجم اللغوي التقليدي في شعر مفدي زكريا	(167-159)
ثانياً : الصورة الشعرية	(181-168)
1- الإتجاه التقليدي الوجداني في شعر مفدي زكريا	(170-170)
2- أثر القرآن الكريم في شعر مفدي زكريا	(176-170)

3-	أثر الشعر العربي القديم في شعر مفدي زكريا	(181-176)
ثالثا :	الموسيقى الشعرية : طبيعتها وشكلها	(188-181)
1-	الموسيقى الشعرية	(184-183)
2-	التشكيل الموسيقي	(185-184)
3-	موسيقى الشعر في إطارها التقليدي عند مفدي زكريا	(188-185)
رابعا :	الموسيقى الشعرية وأثرها التقليدي عند مفدي زكريا	188
1-	التنوين في القافية	(191-189)
2-	إختيار الكلمة	(193-191)
3-	المعارضات	(194-193)
أ-	الوزن دون القافية	194
ب-	التكرار التقليدي	(199-195)
ج-	الأوزان والقافية	(205-199)
الخاتمة		(210-208)
الملخص باللغات		(213-211)
أولا :	المصادر	(217-214)
أ-	الدوريات والمجموعات الشعرية	(215-214)
ب-	المصادر العامة	(217-216)
ثانيا :	المراجع	(224-217)
أ-	المراجع العامة	(222-217)
ب-	المجلات	(223-222)
ج-	المراجع الأجنبية	(224-223)
ثالثا :	فهرس الموضوعات	(227-225)

ملخص باللغات الثلاث (العربية، الإنجليزية، الفرنسية)

يمثل مفدي زكريا، ظاهرة كبرى في حركة الشعر الجزائري الحديث، فقد استقطب اهتمام العديد من البحوث، إذ تناوله الدارسون من زوايا عديدة ومختلفة. ورغم هذه الدراسات القيمة فإن شعره المتنوع الأغراض، لا يزال كالبركان المتدفق لا يتوقف، يفتح آفاقا جديدة أمام الدارسين. من هذه الرؤى (ظاهرة الغربة)، لا تزال ميدانا واسعا، في حاجة إلى دراسة نفسية. وإذا كان في شعر مفدي زكريا، كثير من الأحزان، فإن هذه الدراسة تأخذ أشعاره التي تبرز الظاهرة الاغترابية، وتهدف إلى معرفة الأصول المركبة للظاهرة، في أبعادها النفسية والتاريخية، والفنية، عن مرحلة عصيبة في تاريخ الجزائر، تمتد من الحرب العالمية الثانية حتى وفاة الشاعر في ديار الغربة. هذه الدراسة تقوم على ثلاث مناهج، هي المنهج التاريخي التوثيقي لمعرفة بواعث الظاهرة، والمنهج النفسي المدعم بالاستقراء، لفهم انعكاسات الظاهرة المثيرة، والمنهج الفني، المحلل لآثار الصورة الشعرية واللغة، وأعماقها من الناحية الموسيقية في تأثيرها الشعري.

هذه الدراسة قسمت إلى ثلاثة فصول : تناولنا في الأول ظاهرة الغربة في الأدب العربي الحديث، وفي الثاني ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا، أما الثالث فخص بالخصائص الفنية. وخلصنا إلى أن الميزة الجوهرية للشعر العربي الجزائري - بعد الحرب العالمية الثانية - تتضح في التحول الجذري للشعر من موضوعات لها طابع سلفي وعظمي وإصلاح، إلى مضامين، ذات طابع نفسي استقرائي تأملي واغترابي، رغم أن مضامينها ومصادرها لم تبتعد عن بواعثها الحقيقية التي كان مبعثها الوحيد الوطن المغتصب من طرف المحتل الفرنسي، هذه البواعث التي تركت ملامحها وآثارها في شعر الغربة عند مفدي زكريا.

تلك كانت رحلتي مع ظاهرة الغربة في شعر مفدي زكريا التي استطعت أن أسجل من خلالها، مظاهر المعاناة والتشرد والغربة الفريدة في عوالم الرجل الداخلية، الذي عاش غريبا في عالم كله مآسي وظلم وعذاب، ومات غريبا عن الأهل والوطن، وبقي شعره وثيقة إيديولوجية، وأنشودة للأجيال، وحقائق للتاريخ.

رحم الله مفدي زكريا، وشهداء الجزائر والانسانية.

RÉSUMÉ

Moufdi Zakaria représente « un phénomène particulier » dans la littérature Algérienne contemporaine, il a suscité un certain nombre de recherches en ce sens ou de nombreuses études ont été faites sur des aspects particuliers d'œuvre poétique.

Ses œuvres poétiques très diversifiées du point du contenu, reste bouillonnante comme un volcan avec tout ce qui représente un volcan comme énergie et risque d'explosion.

La fécondité de ses œuvres, ouvre de nouvelles perspectives d'étude et de recherche, de tous les centres d'intérêt que représentent ses œuvres.

Le phénomène de l'aliénation reste un domaine très large et pas suffisamment exploité, dans la dimension psychologique.

La tristesse qui émane de ses œuvres poétiques, représente une période noire de l'histoire de l'Algérie coloniale qui commence à la deuxième guerre mondiale jusqu'à sa mort en exil.

Cette étude repose sur un choix méthodologique particulier qui englobe en même temps trois méthodes d'approche, historique, psychologique et artistique (littéraire).

Nous sommes arrivés enfin de compte à conclure à l'issue de cette étude ; que la littérature Algérienne avant la deuxième guerre mondiale avait un caractère classique et réformiste, et puis s'est transformée en littérature à caractère sociale et psychologique, sans s'éloigner de ses buts initiaux qui sont la libération du pays du colonialisme.

Tel a été mon voyage à travers les profondeurs de l'âme du poète, à travers ses œuvres auxquelles j'ai extorqué toutes les formes d'aliénation d'un être, qui a vécu (étranger) à lui-même- et à son peuple.

Ses œuvres resteront un document idéologique, et source particulière pour les études historiques pour les générations futures.

Que Dieu bénisse Moufdi Zakaria et nos martyrs.